

جمهورية مصر العربية

وزارة الأوقاف

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
لجنة إحياء التراث الإسلامي

الرسالة الكاملة
في السيرة النبوية

تأليف

ابن النفيس

علاء الدين علي بن أبي الخزم القُرشي

٦٠٧ هـ - ٦٨٧ هـ

مراجعة

د. أحمد عبد المجيد هريدي

تعليق وتحقيق

عبد المنعم محمد عمر

طبعة منقحة ومزودة

١٤٠٨ هـ - ١٩٨٧ م

مكتبة / د. قطب محمد طه
رقم القيد / ٥٥٢
تاريخ القيد / ١٠ / ٥ / ١٩٦٩
٢

جمهورية مصر العربية
وزارة الأوقاف

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
لجنة إحياء التراث الإسلامي

الرَّسَالَةُ الْكَامِلِيَّةُ
فِي السِّيَرِ النَّبَوِيِّ

تأليف

ابن النفيس

علاء الدين علي بن أبي الخزم القرشي

٦٠٧ هـ — ٦٨٧ هـ

مراجعة

د. أحمد عبد المجيد هريدي

تعليق وتحقيق

عبد المنعم محمد عمر

طبعة منقحة ومزودة

١٤٠٨ هـ / ١٩٨٧ م

الطبعة الأولى سبتمبر ١٩٨٥ م
الطبعة الثانية ١٩٨٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿وَأِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

(قرآن كريم)

اهداءات ٢٠٠١

الدكتور / القطب محمد طه

القاهرة

تقديم لجنة إحياء التراث الإسلامى

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، صلاة وسلاما دائمين إلى يوم الدين ، أما بعد فهذا هو الكتاب الثانى الذى تخرجه لجنة إحياء التراث الإسلامى ، لابن النفيس ، بعد كتاب : «الموجز فى الطب» الذى حققه الأستاذ عبدالكريم العزباوى ، ونشره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية فى عام ١٩٨٦ م .

وقد اشتهر «ابن النفيس» ببحوثه الطيبة ، بعد أن وفق فى أثناء تجاربه العلمية إلى اكتشاف الدورة الدموية الصغرى ، المعروفة بدورة الدم فى الرئة ، مخالفا بذلك آراء جالينوس ومن تبعه من الأطباء ، فقدم بذلك للطب وطرق العلاج أجل الخدمات .

ولم يقتصر جهد ابن النفيس على التأليف فى علم الطب ، بل شارك كذلك بالتأليف فى فروع مختلفة من العلوم العربية ، فله فى الحديث مخطوط بعنوان : «مختصر فى علم أصول الحديث» ، كما ألف كتابا أخرى لم تصل إلينا ، ككتابه فى الفقه الذى شرح به : «التنبيه» للشيرازى ، وكتابه : «طريق الفصاحة» ، كما شرح كتابين فى الفلسفة لابن سينا ، وهما : «الإشارات» و«الهداية فى الحكمة» .

ويعد كتابه : «الرسالة الكاملة فى السيرة النبوية» الذى تقدمه اللجنة اليوم إلى قراء العربية ، نمطا خاصا فى كتابة السيرة النبوية مزوجة بمنهج المتكلمين ، فقد نهج فيه نهجا حاكى فيه رسالة «حى بن يقظان» للرئيس ابن سينا ، إذ تصور قصة يحكيها من سماه : «فاضل بن ناطق» عن الرجل المسمى بكامل ، فيما يتعلق بالسيرة النبوية والسنن الشرعية على طريق الإجمال .

ويقص علينا «ابن النفيس» في أربعة فصول : كيفية تكوّن هذا الإنسان المسمى بكامل ، ووصوله بالفطرة إلى تعرّف العلوم والنبوات ، وكيفية وصوله إلى تعرّف السيرة النبوية ، وكيفية وصوله إلى تعرّف السنن الشرعية ، ثم كيفية وصوله إلى معرفة الحوادث التي حدثت بعد انتقال خاتم الأنبياء محمد ﷺ إلى الرفيق الأعلى . وهنا يتحدث الكتاب كذلك عن أهم الحوادث التي مرت بالعالم الإسلام في زمن «ابن النفيس» ويذكر الكثير من عادات حكام مصر والشام وأخلاقهم .

وقد حقق هذا الكتاب العالم الفاضل الأستاذ عبد المنعم محمد عمر رئيس اللجنة ، تحقيق الخبير الباحث المدقق ، وأسندت اللجنة أمر مراجعة الكتاب إلى السيد الدكتور أحمد عبد المجيد هريدى ، عضو اللجنة ، فلم يرضن عليه بوقت أو جهد ، حتى خرج الكتاب بالصورة التي تليق به . واللجنة إذ تقدم اليوم هذا الكتاب لجمهور قراء العربية ، لترجو أن يجد فيه عشاق التراث العربى يغيتهم ومطلبهم ، والباحثون فى السيرة النبوية والتاريخ الإسلامى ، مايشدون من قيم ومثل عليا ، تنير لهذا الجيل والأجيال القادمة من شباب الإسلام طريقهم إلى مستقبل أفضل . والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

مقرر اللجنة

أ.د. رمضان عبدالتراب

٢١ من شعبان سنة ١٤٠٧ هـ

١٩ من أبريل سنة ١٩٨٧ م

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله الذى يسر إصدار الطبعة الثانية من كتاب « الرسالة الكاملة في السيرة النبوية » ؛ والفضل فى ذلك لله ، فهو سبحانه « وتعالى لكرمه لا يمنع مستحقاً مُستحقّه ، ويعطى كل مستعد ما يَسْتَعِدُّ له »^(١) : فالكتاب دفاع عن العقيدة الإسلامية ، وعن الشريعة التى أوصى بها الله الواحد الأحد إلى نبيه محمد المصطفى ﷺ كاشهد المؤرخون وكبار المفكرين ؛ ونكتفى هنا بذكر نبذة مما أورده المؤرخ الصفدى^(٢) عن هذا الكتاب ، فقد قال عنه : - « انتصر فيه لمذهب أهل الإسلام وآرائهم فى النبوات والشرائع ، والبعث الجسماني وخراب العالم . ولعمري لقد أبدع فيها ودل على قدرته وصحة ذهنه ، وتمكنه من العلوم العقلية » .

وهذا الغرض السامى الذى دفع « ابن النفيس » إلى تأليف هذا الكتاب هو نفسه الذى حدا بالأزهر الشريف أن يصدر الطبعة الأولى منه بمناسبة الاحتفال بعقد المؤتمر العالمى الرابع للسيرة والسنة النبوية الشريفة الذى عقد فى رحاب الأزهر الشريف ابتداء من يوم الجمعة ١٨ من شهر صفر سنة ١٤٠٦ هجرية الموافق الأول من شهر سبتمبر سنة ١٩٨٦ ميلادية ، وهو المؤتمر الذى شارك فيه نخبة ممتازة من علماء المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها .

ورغبة من صاحب الفضيلة الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق على جاد الحق شيخ الجامع الأزهر فى تيسير نشر هذا الكتاب بين المسلمين لدراسته والانتفاع بما ورد فيه من آراء وبحوث ، فقد تفضل فضيلته بالسماح لنا بإصدار الطبعة الثانية منه ، فله منا عظيم الشكر راجين أن يديم الله عليه نعمة التوفيق فى خدمة الإسلام والمسلمين .

ولما كان ابن النفيس قد اعتمد فى تأليف الفنون الثلاثة الأولى من هذا الكتاب على التعاليم الإسلامية التى أنزلها الله سبحانه فى « كتابه العزيز » ، وعلى التوجيهات النبوية الكريمة فى أحاديثه وسنته ، لذلك رأينا أن ندعم تعليقاتنا على آراء « ابن النفيس » بذكر

(١) من كلام « ابن النفيس فى الفصل الأول من الفن الأول من الرسالة الكاملة فى السيرة النبوية » .

(٢) ت ٧٦٤ هـ . والنبذة من ترجمته « لابن النفيس » .

بعض الآيات القرآنية الكريمة ، وبعض الأحاديث النبوية الشريفة ، لأنها مثيلاتها هي المنبع الذي استقى منه آراءه ومعارضاته لبعض الفلاسفة وبعض المتصوفين ، وكان يقصد من وراء ذلك أن يُبين للناس أن اتباع تعاليم الإسلام هو الذي يكفل سعادة الإنسان في الحياة الدنيا والآخرة

ورغبة في الانتفاع بما تحويه « الرسالة الكاملة في السيرة النبوية » على الوجه الأكمل ، رأينا أن نتوسع في التعليق على الفن الرابع الذي تكلم فيه ابن النفيس عن أهم الحوادث التي مرت بالعالم الإسلامي في زمانه ، ذاكرًا الكثير من عادات حكام مصر والشام وأخلاقهم ، كما تحدث عن أهل هذين القطرين وما قاسوه على يد هؤلاء الحكام . ولا شك أن رأى ابن النفيس فيما حدث في عصره له قيمته ؛ فهو معاصر مهدت له زعامته في مهنة الطب الاتصال بالحكام ، وبكثير من رجالات عصره ، كما يسرت له الاتصال بجماهير الشعب

ونحب أن نذكر بوضوح أننا في تعليقنا على الفن الرابع من هذه الرسالة الكاملة في السيرة النبوية لم نتفق مع ابن النفيس في موضع أو موضعين من تفسيره لأسباب بعض الظواهر الاجتماعية التي تكلم عنها ؛ وقد دعمنا رأينا بالأدلة التي تنقض ما ذهب إليه ، معتمدين في ذلك على الكتاب العزيز . والسنة النبوية الشريفة ، ووقائع التاريخ الإسلامي من مصادرها الصحيحة ، وعلى ما توصلت إليه حضارتنا المعاصرة من آراء عن الحياة الاجتماعية .

ويسعدنا أن يرى هذا الكتاب النور في عهد الأستاذ الدكتور محمد علي محبوب وزير الأوقاف ورئيس المجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

والله ولي التوفيق ،،،،

عبد المنعم محمد عمر

١٩٨٦/١٢/٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

أحمد المولى - تبارك وتعالى - وأصلى وأسلم على خير من بعثه الله
رحمة للعالمين ، سيدنا محمد - صلى الله عليه وسلم - وعلى آله الطيبين
الطاهرين ، وصحبه الكرام البررة ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم يقوم
الناس لرب العالمين

وبعد

فبمناسبة الاحتفال بالمؤتمر العالمى الرابع للسيرة والسنة النبوية
الشريفة (المؤتمر العاشر لمجمع البحوث الإسلامية) فى رحاب الأزهر
الشريف ، الذى يبدأ - بمشيئة الله تعالى - يوم الجمعة ١٨ من شهر صفر
سنة ١٤٠٦ هـ الموافق الأول من شهر نوفمبر سنة ١٩٨٥ م ويترقبه
المسلمون فى مشارق الأرض ومغاربها ، ويهتمون به اهتماما كبيرا ويولونه
اهتمامهم ، ولا غرو فهو حول سيرة المصطفى - صلى الله عليه وسلم -
وسنته النبوية الشريفة ، ولأهمية هذا المؤتمر يشارك فيه عدد كبير من
علماء المسلمين المتخصصين فى التاريخ الإسلامى ولا سيما السيرة النبوية

والسنة ، وصداه كبير ومبارك في مشارق الأرض ومغاربها ، لانعقاده في رحاب الأزهر - قلعة العلم والايان - ولذا أولاه المسئولون في جمهورية مصر العربية اهتمامهم وعلى رأسهم السيد الرئيس محمد حسنى مبارك ، رئيس جمهورية مصر العربية الذى تشرف بتوجيهاته الكريمة ؛ لإبراز هذا الاحتفال العظيم بما يتناسب وجلال السيرة والسنة النبوية ، وجلال الأزهر الشريف ، ومكانته العلمية وما أداه من خدمات جليلة للعالم الإسلامى .

ومن هذا المنطلق فقد شكلت لجنة عليا برئاسة فضيلة الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق على جاد الحق شيخ الأزهر للإعداد لهذا الاحتفال ، وشكلت أمانة عامة للمؤتمر ثم أمانة فنية ، وأمانة مالية وإدارية ، وكل من الأمانتين شكلت لجانا مختلفة ، للعمل فى شتى النواحي ، ومن بينها لجنة التحضير للمؤتمر ، وقد وقع اختيارها على طبع عدة مطبوعات تقدم هدايا للمدعوين فى هذه المناسبة .

وكان من بين ما تقدمه من مطبوعات كتاب « الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية لابن النفيس » تحقيق وتعليق الأستاذ عبد المنعم محمد عمر وكيل وزارة الثقافة سابقا ورئيس لجنة إحياء التراث الإسلامى . بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية .

وقد عُهد إلى مجموعة من الأساتذة الفضلاء لإعداد هذا الكتاب إعدادًا فنيًا وعلميًا ؛ وإخراجه إخراجًا يليق بموضوعه .

ولا يفوتنى فى هذه المناسبة إلا أن أسدى خالص الشكر ، وعظيم
التقدير ، لكل من أسهم فى هذا العمل الجليل ، خدمة لديننا ، وأمتنا ،
وأزهرنا العتيد .

والله تعالى نسأل أن يجعل عملنا هذا خالصا لوجهه ، وأن يجزى
الجميع خير الجزاء ، إنه نعم المولى ، ونعم النصير .

دكتور الحسينى عبد المجيد هاشم

وكيل الأزهر الشريف

و

الأمين العام

للمؤتمر العالمى الرابع للسيرة والسنة

النبوية الشريفة

بسم الله الرحمن الرحيم

المداخل

عنى العلاء بن النفيس فى كتابه « الموجز فى الطب » بتلخيص آراء ابن سينا فى كتاب « القانون » عدا ما كان منها خاصاً بالتشريح ووظائف الأعضاء ، وقامت « لجنة إحياء التراث بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية » بنشره ٢٩٨٦ م . وبينما كنت أعد لكتابة تقديم لهذا الكتاب ، رأيت أن أطلع على قائمة بعناوين الكتب التى ألفها ابن النفيس ، فوجدت من بينها مخطوطة عن السيرة النبوية الشريفة بعنوان « الرسالة الكاملة فى السيرة النبوية » فتاقت نفسى إلى الاطلاع على منهج هذا العالم المتطيب ، وأسلوبه فى كتابة السيرة النبوية الشريفة ، وبخاصة لأنى أصدرت كتاباً يؤرخ لفترة كبيرة من حياة الرسول الكريم بعنوان : « خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها : نظرات فى إشراق فجر الاسلام »^(١) .

ولما شرعت فى البحث عن أصول هذه الرسالة المخطوطة ، علمت أنه يوجد منها فى العالم نسختان مخطوطتان : إحداهما فى « دار الكتب والوثائق القومية »^(٢) بالقاهرة ، والثانية فى إحدى مكتبات « استانبول » العامرة بكنوز المخطوطات العربية فى مختلف العلوم والفنون .

ولما شرعت فى دراسة ما كتب فى المصادر المختلفة ، التى كتبت عن هذه الرسالة قابلتني عدة مفاجآت ، وما أكثر ما يقابل المشتغلون بتحقيق التراث العربى من تلك المفاجآت ، وسأحاول أن أذكر باختصار أهمها فيما يأتى :

(١) نشرته الهيئة العامة للكتاب سنة ١٤٠٢ هـ = سنة ١٩٨٢ م .

(٢) يوجد فى هذه الدار نسختان إحداهما منسوخة عن الأخرى .

المفاجأة الأولى : أن ابن النفيس كان يرمى من وراء كتابة هذه الرسالة كما نقل المؤرخ الكبير «الصفدى» إلى : الانتصار «لذهب أهل الإسلام وآرائهم في النبوات والشرائع ، والبعث الجسماني وخراب العالم»^(١) وأنه كان يرمى إلى معارضة «رسالة حى بن يقطان تأليف الرئيس ابن سينا» ولذلك فقد أصبح لزاما على أن أتصفح رسالة «الرئيس ابن سينا» لأتبين الصلة بين الرسالتين ، وأقف على مدى صحة حكم «الصفدى» في وصفه رسالة «ابن النفيس» بقوله : «ولعمري لقد أبدع فيه ، ودل ذلك على قدرته ، وصحة ذهنه ، وتمكنه في العلوم العقلية» .

المفاجأة الثانية : كان من المعروف في الأوساط المهمة بالتراث العربى المخطوط أن «الرئيس الشيخ ابن سينا» كتب رسالة صغيرة بعنوان : «حى بن يقطان» «بعبارة مغلقة غامضة»^(٢) ولذلك قام تلميذه أبو منصور الحسين بن زبلة بشرحها ، كما قام الفقيه أبو عبيد الجوزجاني بعمل شرح آخر لها ، ولكن المفاجأة كانت أن «ابن سينا» كتب بنفسه شرحا لها ، وأن أصول هذا الشرح محفوظة في مخطوطة بإحدى مكتبات إنجلترا ، فأصبح من الواجب الإطلاع عليها ، ولكن من حسن الحظ أننا وفقنا بعد البحث إلى معرفة أن الأستاذ «محمد صغير حسن المعصومى» الأستاذ بقسم العلوم الإسلامية بدمشق قد توفر على دراسة تلك المخطوطة ، وقام بتحقيقها ونشرها في مجلة المجمع العلمى بدمشق ، وقد يسر هذا التحقيق مهمتنا في هذا البحث .

(١) نقلا عن ترجمة ابن النفيس في الواقى بالوفيات للصفدى . ومسالك الأبصار للعمري .

(٢) أحمد أمين : حى بن يقطان لابن سينا وابن طفيل والسهورردى .

المفاجأة الثالثة : قرأت في كتاب « الشرق الأوسط في مؤلفات الأمريكيين » تأليف سارتون^(١) أن المستشرق يوسف شاخنت يعمل على نشر : « الرسالة الكاملة في السيرة النبوية » وفي عمل ترجمة جزئية لها باللغة الانجليزية ، وبالبحت اتضح أن هذا المستشرق تعاون مع زميله ماكس مايرهوف — الذى عاش فى القاهرة زمناً طويلاً — على نشر الكتاب ، وقد صدر بعد وفاة مايرهوف^(٢) .

ولما كنت أعلم أن « ماكس مايرهوف » بذل جهوداً كثيرة محاولاً نفي فضل اكتشاف ابن النفيس للدورة الدموية^(٣) ، لذلك رأيت أن أتابع بحث هذا الموضوع — ودراسة كتابهما — بحثاً علمياً بعيداً عن تعصب مايرهوف .

وكان من أهم ما استلقت نظرى فى تعليقاتهما قولهما : إنه ليس من المعقول أن يكون ابن النفيس قد أراد برسالته هذه معارضة الشيخ « الرئيس ابن سينا » كما قال « الصفدى » وكذلك قولهما إنه ليس بين هاتين الرسالتين أية صلة^(٤) ، وقد ذهبا إلى أنه يوجد تشابه كبير بين رسالة « ابن النفيس » وبين رسالة « حى بن يقظان » تأليف الفيلسوف المتطبيب « ابن طفيل »^(٥) ، ولذلك فقد اهتمتا بالمقارنة بين هاتين الرسالتين ، ولم يذكرنا شيئاً عن صلة رسالة « ابن طفيل » برسالة « ابن سينا »^(٦) .

(١) الترجمة العربية ص ٤٩

(٢) نشر فى جامعة اكسفورد ١٩٦٨ ، وقد توفى مايرهوف فى ٢٠ أبريل ١٩٤٥ م .

(٣) انظر حياة ابن النفيس فى هذا البحث .

(٤) ص ٢٠ من المقدمة الانجليزية وما بعدها .

(٥) توفى سنة ٥٨١ هـ .

(٦) انظر ص ٢٠ من المقدمة الانجليزية التى كتبها المحققان والصفحات التى تليها .

المفاجأة الرابعة : اتضح بعد الدراسة المتأنية أنه يوجد في التراث العربى رسالة ثالثة كتبها «شهاب الدين يحيى بن حبش المعروف بالسهورردى المقتول سنة ٥٧٨ هـ» بعنوان «الغريبة الغربية» أثنى فيها صاحبها على رسالة «حى بن يقظان للرئيس ابن سينا» وذكر ما فيها «من عجائب الكلمات الروحانية ، والإشارات العميقة معترية .^(١) ... مما يترتب عليه مقامات الصوفية ، وأصحاب المكاشفات» ، ولم يشر المستشرقان إلى هذه الرسالة برغم صلتها الوثيقة بالموضوع .

ومن المهم أن نلاحظ : أن المستشرقين تجاهلاً ما ذكره المؤرخ الكبير «الصفدى» وهو أن الغرض الذى وضعه «ابن النفيس» نصب عينيه لم يكن فقط كتابة السيرة النبوية الشريفة على منهج جديد ، ولكنه أراد معارضة الشيخ الرئيس ابن سينا دفاعاً عن العقيدة الإسلامية الصحيحة وسنحاول أن نشرح ذلك عند مقارنة هذه الرسالة بالرسائل الثلاث الأخرى التى أشرنا إليها ، ويتضح لنا من ذلك أنه يجب علينا ألا نعتمد فى دراسة وتحقيق تراثنا على ما يذله المستشرقون من جهود ، وأنه يجب علينا أن نعنى بتأدية هذا الواجب بأنفسنا ، معتمدين على معرفتنا بأصول ديننا ، وعلى ذوقنا فى فهم اللغة العربية ؛ لغة آبائنا وأجدادنا .

المفاجأة الخامسة : عندما وصلت إلينا مصورة مخطوطة «استانبول» بفضل المعونة المخلصة التى قدمها العالم الأستاذ الدكتور «أكمل الدين إحسان أوغلى» مدير «مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية باستانبول» اتضح أن هذه النسخة تتضمن «أربعة فنون» ، فهى بذلك تزيد فناً كاملاً عن نسخة دار الكتب بالقاهرة ، وقد

(١) معترية = عارية وانظر أحمد أمين : حى بن يقظان لابن سينا ، وابن طفيل والسهورردى ، نشر دار المعارف .

وجدنا أن هذا الفن الرابع يزيد من قيمة هذه الرسالة زيادة كبيرة من الناحيتين التاريخية والاجتماعية ، فقد درس هذا العالم المتطبيب التاريخ الإسلامي دراسة واعية ، كما درس تطور الحياة الاجتماعية في المجتمع الإسلامي ، بعد وفاة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ثم عبر في هذا الفن الرابع عن رأيه في الأسباب التي أدت إلى ما آلت إليه حالة الشعوب الإسلامية ، من الضعف والتفكك ، حتى طمع فيهم الصليبيون ، وانتصر عليهم المغول واجتاحوا ودمروا الكثير من البلاد الإسلامية .

المفاجأة السادسة : ورد في مصادر البحث القديمة أن العلاء بن النفيس ألف رسالتين :

الرسالة الأولى بعنوان : فاضل بن ناطق

الرسالة الثانية بعنوان : الرسالة الكاملية في السيرة النبوية

وقد اتضح لنا بعد البحث : أن هذين العنوانين هما لكتاب واحد ، يروى فيه « فاضل بن ناطق » قصة المدعو « كامل » ، فهو يذكر كيف خلّق كامل ، وكيف نما وعاش وتعلّم ، بواسطة الخواص ، والقوى المختلفة ، التي أنشأها الله فيه ، ثم كيف توصل إلى معرفة الله سبحانه ، ومعرفة النبوات ، ومعرفة السيرة النبوية الشريفة ، وكذلك معرفة الحياة الأخرى والبعث الجسماني وغير ذلك مما تقول به الشريعة الإسلامية .

ويقصد ابن النفيس من وراء تسمية راوى القصة باسم : « فاضل ابن ناطق » إلى أن هذا الراوية رجل فاضل ومفكر ، ورث التفكير المنطقي عن أبيه « ناطق » . أما تسمية بطل القصة باسم « كامل » فإن

ابن النفيس يرمز بذلك إلى أنه إنسان كَمَّله الله بالصفات الحميدة ،
والعقل الراجح ، وليس في هذه الرسالة غير ذلك شيء آخر من الرمز
ولا شيء من المصطلحات الصوفية .

ونلاحظ أن ابن النفيس يؤمن أن « التكوين الذاتي » لأعضاء جسم
الإنسان لا يمكن أن يخلق إنسانًا ، ولكن الله - سبحانه - هو الذى خلق
من تلك الأجزاء إنسانا هو « كامل » بطل هذه القصة ، ولذلك نرى أن
« ابن النفيس » يقول : « ولذلك كانت هذه الأجزاء [التى تكونت
بالتكوين الذاتي]^(١) مستعدة لأن يتكون منها أعضاء إنسان . والله تعالى
لكرمه لا يمنع مستحقًا مستحقه ، ويعطى كل مستعد ما يستعد له ،
فلذلك خلق من تلك الأجزاء أعضاء إنسان » .

المفاجأة السابعة : انتهر « ابن النفيس » فرصة كتابته رسالة عن
خاتم الأنبياء والمرسلين - صلى الله عليه وسلم - وما كان يرجوه لها من
ذبوع بين الناس ، وكتب شرحا للدورة الدموية الرئوية ، ضمن الفن
الأول من هذه الرسالة ، فما هو المنهج الذى يسر له ذلك حتى جعله يبدو
طبيعيًا ؟

وبعد : فإنه ليسعدنى أن أنوه بفضل الإمام الأكبر الشيخ جاد الحق
على جاد الحق شيخ الأزهر الذى تفضل بتوجيهاته نحو نشر هذه الرسالة
ضمن مطبوعات المؤتمر العالمى الرابع للسيرة والسنة النبوية الكريمة ،
الذى سيعقد فى القاهرة فى ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٥ م كما يسرنى أن أقدم
شكرى وتقديرى لفضيلة الدكتور الحسينى هاشم وكيل الأزهر على

(١) ما بين المعقوفين زيادة لتوضيح المعنى .

تشجيعه الطيب لإخراج هذه الرسالة إلى حيز الوجود ، وأشكر كل من أسهم في التصحيح والمراجعة وأخص بالذكر فضيلة الأستاذ الشيخ عبد المعز عبد الحميد الجزار ، وفضيلة الأستاذ الشيخ فتح الله يس جزر .. سائلاً المولى أن يجرى الجميع خير الجزاء .

« رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ »

٢٠ من المحرم سنة ١٤٠٦ هـ الموافق ٥ من أكتوبر سنة ١٩٨٥ م

عبد المنعم محمد عمر

المبحث الأول

ابن النفيس

والعصر الذى عاش فيه وإنتاجه الفكرى

حياة ابن النفيس

هو علاء الدين بن أبى الحزم^(١) القرشى^(٢) الملقب بابن النفيس ، عالم جليل ضرب بسهم وافر في كثير من العلوم ، وطبيب من أكبر أطباء العرب المسلمين ، في القرن السابع الهجري ، الموافق للقرن الثالث عشر الميلادي . ولد في دمشق ، أو بالقرب منها حوالى سنة ٦٠٧ هـ / ١٢٠٧ م وانتقل الى القاهرة حيث طبّبت له الإقامة حتى بلغ الثمانين من عمره ، وتوفي بها سنة ٦٨٧ هـ / ١٢٨٨ م .

ويؤسفنا أن نقرر : أننا لم نجد في كتب التراجم ما يهدينا الى الاحاطة بأخبار حياته الخاصة ، ولا أخبار الأسرة التى نشأ فيها ، ولا موعد انتقاله للإقامة بالقاهرة ، ولكنها كلها عنيت بوصف المستوى الثقافى والعلمى الرفيع ، الذى وصل إليه ، والإشادة بأفضاله العلمية ، وبمؤلفاته مع ذكر نبذة قصيرة عن حياته الخاصة . وأهم المصادر التى يمكن أن نستقى منها أخباره هى :

١ - ترجمة قصيرة لابن النفيس فى مخطوطة من كتاب « عيون الأنبياء فى طبقات الأطباء » تأليف زميله ومعاصره الطبيب المؤرخ ابن أبى أصيبعة^(٣) ويرجع الفضل فى الكشف عنها إلى عالم سورى تخصص فى علوم

(١) ذكر اسمه فى بعض المراجع « ابن أبى الحرم » براء مهملة كما فى النجوم الزاهرة فى وفيات سنة ٦٨٧ هـ وقد أخذنا برأى ابن فضل الله العمري والسيوطى فى حسن المخاضرة وغيرهما .

(٢) نسبة الى قریش ، وقد أخذنا برأى العمري حيث وصف نسبه بقوله : إلى حسب غير مرعوس ، وحسب مثل جناح الطاووس .

(٣) عاش ٦٠٠ - ٦٦٨ هـ / ١٢٠٣ - ١٢٧٠ وهو زميل ابن النفيس فى تعلم الطب على أستاذ واحد . والنسخة المطبوعة من هذا الكتاب ليس فيها ذكر لابن النفيس .

المكتبات هو : الأستاذ يوسف العث^(١) فقد اكتشف وجودها بين المخطوطات المجهولة الأصل في دار الكتب الظاهرية بدمشق ، برقم (٤٨٨٣) وقد أثبت نصها الدكتور بول غليونجي في كتابه « ابن النفيس » بفضل مساعدة الأستاذ سامي حمارنه^(٢) . ولعل سبب قصر هذه الترجمة يرجع الى أن المؤلف توفي قبل زميله ابن النفيس بحوالى ثمانية عشر عاما ، أنتج فيها ابن النفيس الكثير من مؤلفاته ، وبخاصة الطبية ، لأنه تعلم الطب واشتغل به على كبر .

وقد وصف ابن أبى أصيبعة زميله بقوله : « كان شيخا فاضلاً كالبحر الخضم ، والطود الأشم للعلوم ، ولم يكن منفردا بفن من الفنون ، ولو لم يكن له غير شرح غوامض « القانون » لكفى دليلاً على غزارة فضله ، ونزارة مثله ، وله كذلك تصانيف كثيرة في جميع الأنواع ، مقيولة عند المحققين في أكثر البقاع ، مشتملة على حقائق الأنظار ، ودقائق الأفكار ، ولطائف الإشارات ، وطرائف العبارات » ومن المهم أن نلاحظ أن هذه الترجمة كانت مصدرا من المصادر التى استقى منها ابن فضل الله العمرى بعض ما ذكره عن ابن النفيس .

٢ - ومن أهم المصادر التى ترجمت له كتاب « تاريخ الإسلام » للمؤرخ الكبير شمس الدين الذهبى (٦٧٣ - ٧٤٨ هـ = ١٢٧٤ - ١٣٤٨ م) ، وترجع أهمية هذه الترجمة إلى أن الذهبى ولد قبل وفاة ابن النفيس بحوالى أربعة عشر عاما ، وقد استقى معلوماته من العلماء الذين

(١) أحد أمناء المكتبة الظاهرية ، وقد تعاون مع نظرائه في دار الكتب بالقاهرة على إنشاء الإدارة العامة للثقافة ، ومعهد المخطوطات في جامعة الدول العربية .

(٢) هو الآن أستاذ بجامعة الملك عبد العزيز بمكة .

عاصروا ابن النفيس وكانت تربطهم به روابط علمية وصداقة شخصية مثل أبي حيان الأندلسي الذي زار مصر وعاش فيها فترة طويلة بعد وفاة ابن النفيس وكان صديقاً حميماً له وتلقى عنه بعض العلوم^(١) . ونحن نقتبس ما يأتي من ترجمة الذهبي له : « على بن أبي الحرم العلامة علاء الدين بن النفيس القرشي الدمشقي الطبيب شيخ الأطباء في عصره ... انتهت إليه رئاسة الطب بالديار المصرية ... ولم يخلف بعده مثله . وقد كتب إلينا الإمام أبو حيان الأندلسي أن العلاء بن النفيس كان إماماً في علم الطب أوحد ، لا يضاهي في ذلك ولا يبارى ، ولا يداني ، استحضاراً واستنباطاً ... ولشيخنا علاء الدين معرفة بالمنطق وقد صنف فيه مختصراً ، وقرأت عليه من كتاب الهداية لابن سينا في المنطق جملة . » وقد عاصر الذهبي القاضي جمال الدين بن واصل ، أبو عبد الله بن عمر (٦٠٤ - ٦٩٧ هـ) = (١٢٠٧ - ١٢٩٨ م) وكان صديقاً حميماً لابن النفيس ، وهو مؤلف كتاب « مفرج الكروب في أخبار بني أيوب » .

وقد كتب عن ابن النفيس كذلك لفيف من المؤرخين الذين ولدوا بعد موته بزمن قصير وتلقوا معلوماتهم من العلماء والمؤرخين الذين عاصروا ابن النفيس وهم :

٣ - الصفدي ؛ أبو الصفا صلاح الدين خليل بن أيبك (٦٩٦ - ٧٦٤ هـ) = (١٢٩٧ - ١٣٦٣ م) المولود بعد وفاة ابن النفيس بتسعة أعوام ، وكان معاصراً للذهبي وصديقاً له ، وقد ترجم لابن النفيس في كتابه : « الوافي بالوفيات » .

٤ - ابن كثير ؛ اسماعيل بن عمر (٧٠٢ - ٧٧٤ هـ) = ١٣٠١ - ١٣٧٣ م) المولود بعد وفاة ابن النفيس بحوالي أربعة عشر عاماً ، وقد كتب نبذة قصيرة عن ابن النفيس في كتابه : « البداية والنهاية » .

(١) كان من أعلم أهل عصره في النحو (٦٥٤ - ٧٤٥ هـ = ١٢٥٦ - ١٣٤٤ م)

٥ - ابن فضل الله العمرى ؛ شهاب الدين أحمد (٧٠٠ -
٧٤٩ هـ = ١٣٠٠ - ١٣٨٤ م) المولود بعد وفاة ابن النفيس بحوالى اثنى
عشر عاما ، وقد ذكر عن ابن النفيس ترجمة طويلة تعتبر أوفى المصادر
الموثوق بها ونقل جلها عن الصفدى ، وقد أثبتنا كاملة الدكتور أحمد بك
عيسى المتوفى سنة ١٩٤٦ فى كتابه : « معجم الأطباء » ؛ ذيل عيون الأنباء
فى طبقات الأطباء ، ص ٢٩٢ - ٢٩٦ » (١) .

وقد استقى كتاب التراجم الذين أتوا بعد هؤلاء الخمسة
معلوماتهم عن ابن النفيس من المصادر السابق ذكرها ، ومن أهم المراجع
التي كتبت عنه : طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ، وحسن المحاضرة فى
أخبار مصر والقاهرة للسيوطى ، وشذرات الذهب لابن العماد الحنبلى ،
وروضات الجنات للخوانسارى . أما الكتاب المعاصرون فقد كتب عن
ابن النفيس الكثيرون نذكر من بينهم : كتاب « طبقات الأطباء » لأحمد
بك عيسى وكتاب « ابن النفيس » للدكتور الطبيب بول غليونجى
و« أعلام الطب العربى » بقلم أنى الفتوح التوانسى ، و« فضل علماء
المسلمين على الحضارة الأوروبية » تأليف دكتور عز الدين فراج ، دار
الفكر العربى ، ١٩٧٨ .

وتجمع كل هذه المصادر على أن ابن النفيس نشأ فى دمشق وتعلم
فى صباه أكثر علوم عصره ، وتعلم الطب على كبر ، ثم انتقل الى القاهرة
حيث طابت له الإقامة ، وعاش فى كنف النهضة الحضارية الإسلامية
العربية الثانية ، التى ألمنا إمامة سريعة ومختصرة ببعض نواحيها ، وعاصر
طوال حياته المديدة المباركة الكثير من شيوخ علماء مصر والشام الذين
نبغوا فى مختلف العلوم والفنون . ويصفه المؤرخون بالذكاء المفرط ،

(١) كذلك ذيل بول غليونجى كتابه « ابن النفيس » بنص هذه الترجمة . ص ٧٣ - ٧٤

والذاكرة القوية والاطلاع الواسع ، والطاقة الكبيرة على الاستيعاب والنقد البناء ، ولاشك أنه تعلم الكثير من العلماء الذين عاصروه ، واستفاد من مؤلفاتهم التي اقتناها بالقاهرة في مكتبته الخاصة العامة بذخائر المخطوطات ، كما استفادوا من مؤلفاته .

وكان ابن النفيس ذا مروءة لا يحجب نفسه عن الإفادة ليلاً ولا نهاراً ، فأصبحت له في المجتمع مكانة مرموقة ، ومنزلة اجتماعية كبيرة ، ولذلك فقد كان يفد على مجلسه — في داره التي أنشأها بالقاهرة ، وفرشها بالرخام حتى إيوانها — نخبة ممتازة من معاصريه يتقدمهم جماعة من أمراء المماليك ، وكبار العلماء والأطباء ، ونخبة من تلاميذه ومن أعيان مصر ، وكان الناس يجلسون في طبقاتهم ، وكان من بينهم لفيف من أصدقائه من أقباط مصر .

وقد كان لنشأة ابن النفيس ، وللبيئة التي عاش فيها أثر كبير في تنوع إنتاجه الفكري حتى شمل الكثير من العلوم والفنون ، ولذلك يصفه التاج السبكي^(١) صاحب طبقات الشافعية الكبرى بقوله : « علاء الدين ابن النفيس الطبيب المصري صاحب التصانيف الفائقة كان فقيهاً على مذهب الشافعي صنف في أصول الفقه ، والمنطق ، وبالجملة كان مشاركا في فنون » وقال ابن العماد في شذرات الذهب : « ابن النفيس شيخ الطب في الديار المصرية ، وصاحب التصانيف ، ومن انتهت إليه معرفة الطب مع الذكاء المفرط ، والذهن الخارق ، والمشار إليه في الفقه والأصول والحديث والعربية والمنطق » وعن الأسنوي : « إمام وقته في فنه شرقا وغربا بلا موافقة ، أعجوبة دهره ، صنف في الفقه وأصوله ، وفي العربية والجدل والبيان ، وانتشرت عنه التلامذة »^(٢) .

(١) ٧٢٧ - ٧٧١ هـ = ٣٢٩ - ١٣٦٩ . وقد تلمذ على المؤرخ الإسلامي الكبير «الذهبي» .

(٢) «شذرات الذهب»

وجاء في الوافي بالوفيات أن السيد الديماطي الحكيم بالقاهرة، وهو من تلاميذ ابن النفيس، روى أن أستاذه ظل يتباحث مع القاضي جمال الدين بن واصل^(١) ليلة بطولها في مختلف العلوم والفنون، فلما أصبح الصباح قال ابن واصل: «نحن عندنا مسائل ونكت، وأما أنت يا شيخ علاء فعندك خزائن علوم»، وجاء أيضا في مسالك الأبصار أن أحد معاصري ابن النفيس من العلماء وهو بهاء الدين بن النحاس كان يقول «لا أرضى بكلام أحد في القاهرة في النحو غير كلام ابن النفيس»^(٢).

وقد جلس ابن النفيس في المدرسة المسروورية يدرس الفقه الشافعي وشرح أول كتاب التنبيه إلى باب السهو.

وقد شهد أصحاب كتب التراجم أن علاء الدين بن النفيس كان ورعاً يخشى الله «حتى إنه في علته الأخيرة التي توفي فيها أشار عليه بعض أصدقائه الأطباء أن يتناول شيئا من الخمر، إذ كانت علته تناسب أن يتداوى بها — على ما زعموا — فأبى أن يتناول شيئا من ذلك وقال: لا ألقى الله تعالى وفي باطني شيء من الخمر»^(٣).

ولم يتزوج ابن النفيس طوال حياته، ومات سنة ٦٨٧ هـ بالقاهرة^(٤) بعد أن أوقف داره وأمواله الطائلة ومكتبته على البيمارستان المنصوري، وقال الصنفدي نقلاً عن أبي حيان: «أنشدني أبو الفتح بن يوحنا بن موهوب النصراني لنفسه. يرثي علاء الدين بن النفيس:

ومسائل هل عالم أو فاضل أو ذو محل في العلى بعد العلا؟
فأجبت والنيران تضرم في الحشا أقصر فمذ مات العلامات العلى

(١) مؤلف كتاب: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب وصل فيه إلى سنة ١٢٦٢ م.

(٢) نقلاً عن الوافي بالوفيات ومسائل الأبصار.

(٣) مسالك الأبصار، وروضات الجنات، ومعجم الأطباء.

(٤) مسالك الأبصار، ورقة رقم ٢٢٥ - ٢٢٦. وقد أثبتها أحمد بك عيسى في كتابه «معجم الأطباء ص ٢٩٢ - ٢٩٦. وانظر أيضاً البداية والنهاية لابن كثير ص ٣١٣ وكذلك روضات الجنات للخوانساري، باب العين. ودائرة المعارف الإسلامية، ج ١.

الحياة السياسية والاجتماعية

زمن ابن النفيس

كان الشرق الأدنى قد ابتلى بالحروب الصليبية قبل مولد ابن النفيس بأكثر من قرن ، وامتد الكفاح ضدها دون هوادة طول حياته ، فقد بدأت هذه الحروب المضنية بتحريض من البابا إيريان سنة ١٠٩٥ م بحجة تخليص القبر المقدس من المسلمين ، وانتَهز ملوك الفرنجة وأمراؤهم وغيرهم من المغامرين الفرصة ظمعا في الإستيلاء على نصيب في الشرق الأدنى ولتنشيط التجارة ، وتمكنت الحملة الصليبية الأولى من هزيمة السلاجقة ، واستولت على نيقية ، وانطاكية ، وعسقلان ، وعلى بيت المقدس سنة ١٠٩٩ م حيث أسسوا مملكة القدس اللاتينية بعد أن خربوا المدن ونهبوها ، وقتلوا الآلاف من غير المحاربين من الرجال والنساء والأطفال .

وتوالى موجات من الحملات الصليبية على فلسطين وسوريا ومصر والمغرب ، وجاهد المسلمون بقيادة عماد الدين زنكى وابنه نور الدين ومن بعدهما صلاح الدين الأيوبي في صراع مرير الى أن انتصر صلاح الدين في موقعة حطين سنة ١١٨٧ م ثم استعاد بيت المقدس ، وطرد الصليبيين من أكثر المواقع التي سبق لهم احتلالها ، ولم يبق لهم إلا شريط على الساحل الشرقى للبحر المتوسط .

وقاد الإمبراطور فردريك الحملة الصليبية السادسة ، وتمكن من عقد صلح مع السلطان الكامل الأيوبي صاحب مصر والشام ، استعاد بمقتضاه بيت المقدس ، وبيت لحم ، والناصرية ، وصيدا دون قتال بل أخذها لقمة سائغة دون عناء ، ثم دخل بيت المقدس ، وتوج نفسه

امبراطوراً في كنيسة القيامة في سنة ٦٢٦ هـ / مارس / سنة ١٢٢٨ م ،
وضاع بذلك كل ما بذله صلاح الدين ورجاله من جهود ، وضاعت
دماء الضحايا والمجاهدين .

وهبت موجة من التدمير والسخط في الشرق الأوسط كله ، وبدأ
صراع عنيف من جديد لاسترداد بيت المقدس وطرد الصليبيين من البلاد
المحتلة بقيادة الأيوبيين ومن بعدهم المماليك ، وكان ابن النفيس في بداية
هذه الفترة الحزينة شاباً يتعلم في دمشق علوم عصره ومن بينها الطب ،
ويعمل في البيمارستان النوري ، واستمرت الحروب الطاحنة حتى
استعاد المسلمون بيت المقدس للمرة الثانية سنة ٦٤٢ هـ / ١٢٤٤ م
(١١ يولييه) ، وكان ابن النفيس يعمل في ذلك الوقت طبيباً في
البيمارستان المنصوري بالقاهرة .

ورأى لويس التاسع ملك فرنسا أن الصليبيين لن ينجحوا مادامت
مهمر تقود النضال ضدهم ، فهاجمها على رأس الحملة الصليبية السابعة ،
واستولى على دمياط سنة ٦٤٧ هـ / يونية ١٢٤٩ م . وحاصر المنصورة
ثم زحف إلى القاهرة ، وتوفي أثناء ذلك الملك الصالح نجم الدين أيوب ،
فأخفت زوجته شجرة الدر خبر موته حفاظاً على الروح المعنوية للجيش
المناضل ، واستدعت ابنه توران شاه من سوريا على عجل ، وحملت هي
عبء رئاسة الدفاع إلى أن عاد توران شاه ، وبرز في هذه الحرب الأمير
بيبرس البندقداري بانتصاره في المنصورة ثم هزمت الجيوش الصليبية أثناء
تقهقرها شر هزيمة فلم ينج من القتل منهم إلا من وقع في الأسر ، وكان
الملك لويس التاسع أحد أولئك الأسرى .

وأثناء عودة توران شاه منتصراً للقاهرة قتله المماليك . وبذلك
عاصر ابن النفيس نهاية دولة الأيوبيين ، ودسائس شجرة الدر ، وتوليها

عرش مصر ثمانين يوماً ، ثم تنازلها عن الحكم لزوجها المعزّ أليك التركمانى سنة ٦٤٨ هـ / ١١٥٠ م ، وبقي حاكماً الى أن قتله زوجته شجرة الدر سنة ٦٥٥ هـ / ١٢٥٧ م ، فهجم عليها مماليكه وقتلوها .

وكان المغول قبيل هذه الحوادث قد داهموا المشرق الإسلامى بقيادة «هولاكو» واجتاح طوفانهم البلاد المعروفة الآن باسم أفغانستان ، وإيران ، وخربوا المدن ، وقتلوا الآلاف من الرجال والنساء والأطفال ، ثم اجتاحتوا العراق ، واستولوا على بغداد ، ودمروا الكثير من معالمها ، ونهبوا ما وصلت إليه أيديهم ، وقتلوا الخليفة العباسى «المعتصم بالله» هو والكثير من رجاله ، سنة ٦٥٦ هـ / ١٢٥٨ م ، ثم زحفوا إلى الشام ، وأخذوا يدمرون كل ما كان يقابلهم ، واستولوا بسرعة على حلب ، ودمشق ، وعاثوا فى الأرض والبلاد فساداً ونهباً وقتلاً وتخريباً .

وعمّ الفرع الشرق الأوسط كله ، وتخاذل بعض حكام بنى أيوب فى الشام وبعض أمراء المماليك هناك ، وتمكن قطز من الاستيلاء على السلطة ، وجمع بعد جهد كلمة أمراء ممالك مصر فعينوه سلطاناً ولقب بسيف الدين سنة ٦٥٧ هـ ، فاستعد على الفور لحرب المغول ، وقد عاصره ابن النفيس وهو يزحف بجيش كبير من مصر إلى الشام حيث انتصر نصراً عزيزاً فى موقعة «عين جالوت» سنة ٦٥٨ هـ / ١٢٦٠ م ، وأنقذ هذا النصر الكبير مصر والشام من خطر المغول واضطروهم إلى التقهقر إلى حدود العراق الغربية بعد أن استرد قطز منهم دمشق وحلب وسائر بلاد الشام .

وتنفس الناس الصعداء ، وعمّ الفرح بلاد الشرق الأوسط ، ولكنها فرحة لم تدم طويلاً ، فقد قتل الممالك البحرية السلطان قطز أثناء عودته لمصر سنة ٦٥٨ هـ = أكتوبر سنة ١٢٦٠ م ، وتولى قتاله الظاهر بيبرس السلطنة ، وقد عاصره ابن النفيس وهو يخضع مصر والشام لحكمه

بالخيلة تارة ، وبالمؤامرات حيناً ، وبالجبروت والعنف أحياناً أخرى ، واستمر قابضاً على السلطة بيد من حديد حوالى سبعة عشر عاماً استطاع فيها أن يحمى الشام من توغل الصليبيين ، فقد استولى منهم على أنطاكية فى مايو سنة ١٢٦٨ م ، وعلى عكا وكذلك حصن الأكراد والقرين سنة ٦٦٩ هـ / ١٢٧١ م ، كما قضى على الحشيشية حلفاء الصليبيين واستولى على حصونهم ؛ واستطاع أن يهزم المغول وأنصارهم سلاجقة الروم فى موقعة « ابلستين » ، ٦٧٤ هـ / ١٢٧٦ م ، وتمكن من تأمين حدود مصر الجنوبية فأخضع ملك النوبة المسيحي ، وقبل منه الجزية سنة ١٢٧٦ م . ولذلك نجد أن ابن النفيس يخصص فى الفن الرابع من « الرسالة الكاملة فى السيرة النبوية » فصلين كاملين للحديث عن السلطان بيبرس يتحدث فيهما عنه وعن أخلاقه ، فيقول فى الفصل السابع بعنوان : « فى كيفية تعرف كامل بحال سلطان البلاد التى تبقى لهذه الملة مجاورة لما ينتهى إليه ملك أولئك الكفار » يقول : « لو لم يكن هذا السلطان شديد البأس جدا حتى يكون وحده فى مقاتلة جيش كثير لم يتمكن من مقاومة هؤلاء الكفار ومنعهم من الإستيلاء على بلاده ... ولا يكفى أن يكون كذلك فى نفسه فقط بل لابد وأن يكون عند الناس كذلك بهذه الصفة ، وإنما يكون ذلك إذا كان قد اشتهر عنه أنه جرىء مقدام شجاع سمى الأخلاق ، وإنما يكون ذلك إذا عرفت منه جرأة شديدة جدا كالجرأة على الملوك والاقدام على قتل أكابرهم ... » ويصف فى هذا الفصل أيضا بعض أوصافه الجسمانية ، ونحن نقبس منها قوله : « ولا بد وأن يكون مزاجه إلى حرارة وإلا لم يكن شديد الجرأة فلا بد وأن يكون لونه أحمر إلى السمرة ، وشعره ليس بقليل جدا بل يكثر شعره ، ولا يحدث له صلح ... » ونحن نقبس أيضا وصف ابن النفيس لبيبرس فى

الفصل الثامن من الفن الرابع قوله عن هذا الملك : « إنه لابد وأن يكون عند الناس مشهورا بالشهامة والسطوة والقدرة ، فلا بد وأن يكون عند جميع الناس مهيبا مخوفا ، فلذلك لابد وأن يكون جميع هؤلاء حسنى الطاعة له ، والانقياد لأوامره ، خائفين من سطوته ، فلذلك لابد وأن تكون معاملتهم فى الظاهر على أجود الوجوه وأتمها » .

ويشعر الباحث الذى يمعن فى فهم هذين الفصلين أن ابن النفيس كان هو الطبيب الخاص الذى يشرف على علاج هذا الملك ولذلك أتاحت له الفرصة لمعرفته عن قرب ، أما علمه بأخلاق كبار أمراءه فإن الجملة الأخيرة من الفقرة التى اقتبسناها هنا توضح معرفته الوثيقة بهم وبأخلاقهم .

وقد امتد الأجل بابن النفيس بعد وفاة الملك الظاهر بيبرس سنة ٦٧٦ هـ / ١٢٧٧ م فعاصر تنازع كبار أمراء المماليك ودسائسهم للإستيلاء على الملك من أسرة بيبرس ، ذلك النزاع الذى استمر عامين استطاع فى نهايتهما الأمير قلاوون أن يكبح جماح هؤلاء الأمراء . ويستولى على الملك بيد من حديد ، ويلقب نفسه بالملك المنصور سيف الدين قلاوون سنة ٦٧٨ هـ / ١٢٧٩ م ثم أخذ يستعد إلى لقاء المغول الذين انتهزوا فرصة هذا النزاع الداخلى فأخذوا يغيرون على الشام « بجيوش جرارة لم يطرق الشام قبل ذلك مثلها »^(١) وقد تمكن من هزيمتهم هم وحلفاؤهم من الصليبيين فى موقعة حمص ٦٨٠ هـ / ١٢٨١ م ثم استولى على حصن المرقب من الصليبيين ٦٨٤ هـ / ١٢٨٥ م ، و « كان حصنا منيعا لم يجسر أحد من سلاطين المسلمين قبله مثل صلاح الدين على

(١) كتاب المختصر فى أخبار البشر تأليف أبى الفدا ، عماد الدين إسماعيل وهو المؤرخ الذى عاصر تلك الحروب ، ج ٤ ص ٢٣ - ٢٤

التعرض له»^(١) واستولى بعده على اللاذقية ٦٨٦ هـ / ١٢٨٧ م . وكان هذا آخر نصر أحرزه قلاوون في حياة ابن النفيس ؛ وقد فرح المسلمون بذلك فرحا عظيما .

ولابد لنا أن نذكر أن ابن النفيس رأى في أخلاق قلاوون وصفاته الكثير من أخلاق بيبرس ، ولذلك يدرك الباحث أن كثيرا من الصفات والعادات والأخلاق التي وصف بها الظاهر بيبرس في الفصلين السابع والثامن من الفن الرابع في « الرسالة الكاملة في السيرة النبوية » تنطبق أيضا على الملك المنصور سيف الدين قلاوون .

ولعله من المفيد أن نذكر هنا أيضا أن الحروب الصليبية التي تحدثنا عنها في هذا البحث استمرت على ضراوتها ضد مصر والشام حتى استطاع المسلمون طرد الصليبيين من بلادهم بقيادة السلطان الأشرف خليل بن قلاوون سنة ٦٩١ هـ / ١٢٩١ م ، وكان ذلك بعد وفاة الفقيه المتطبب ابن النفيس بحوالى ثلاث سنوات .

(١) المرجع السابق .

مراجع هذه الفترة :

- ١ - النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى ج ٦ - ٧ .
- ٢ - مفرج الكروب لابن واصل ج ٢ .
- ٣ - السلوك للمقرئى ج ١ .
- ٤ - المختصر في أخبار البشر لأبى الفدا ج ٢ - ٣ .
- ٥ - تاريخ الخلفاء للسيوطى .
- ٦ - المواعظ والاعتبار في الخطط والآثار للمقرئى .
- ٧ - النهج السعيد لمفضل بن أبى الفضائل .
- ٨ - بدائع الزهور لابن اياس ج ١ .
- ٩ - الأيوبيون والمماليك في مصر والشام لسعيد عبد الفتاح عاشور .
- ١٠ - دولة بنى قلاوون في مصر تأليف محمد جمال الدين سرور .

الحياة العلمية والثقافية

أيام ابن النفيس

بالرغم من الحروب الطاحنة ، والفتن والقلقل التى عانت منها مصر والشام فى عصر سلاطين المماليك الذين ورثوا ملك البطل العظيم صلاح الدين ومن جاء بعدهم من المماليك البحرية ، إلا أنه كان لهذا العهد نواح أخرى مشرقة ، مما كان له أكبر الأثر فى تكوين العلاء بن النفيس وغيره من علماء ذلك العصر ، وذلك لأنه كان امتدادا للعصر الفاطمى من الناحية الحضارية ، فقد عنوا جميعا بتشجيع العلم والعلماء والأدباء ، ولم يدخروا وسعا فى ذلك ، وكما بنى الفاطميون الأزهر وغيره من المساجد لنشر التعاليم الفاطمية وغيرها من العلوم ، فقد عنى الأيوبيون والمماليك ببناء البيمارستانات والمساجد التى لا تزال شاهدة على ما بذل بسخاء فى تشييدها وعلى النهضة المعمارية والذوق الفنى الرائع ، وأقاموا المدارس التى كانت تشبه الجامعات فى عصرنا هذا ، وكان يقوم بالتدريس فيها صفوة المتخصصين من الشيوخ فى العلوم الدينية وغير الدينية ، وكان بعضها يقتصر على تدريس أحد مذاهب أهل السنة ومن أمثلتها المدرسة المسروية التى جلس فيها العلاء بن النفيس يدرس الفقه الشافعى ، وكانت المذاهب الأربعة لأهل السنة تدرس فى بعض المدارس الأخرى مثل المدرسة الصالحية التى افتتحها نجم الدين أيوب بالقاهرة (٦٣٩ هـ / ١٢٤١ م) ، وكانوا يوقفون الأوقاف الكثيرة على كل هذه المساجد والمعاهد العلمية حتى يضمنوا لها الاستمرار فى أداء رسالتها ، وكانت كلها بما فيها الأزهر ، تبذل أقصى الجهود للقضاء على التشيع والتعاليم الفاطمية ، ونشطت لذلك كله الحياة الفكرية والأدبية

والعلمية ، وقامت في القاهرة ودمشق وغيرهما من المدن نهضة عظيمة هي
النهضة الثانية في تاريخ الحضارة العربية الإسلامية .

وكانت الحروب والكوارث التي ابتليت بها البلاد الإسلامية في
هذين القرنين على أيدي الصليبيين، في سوريا وفلسطين ومصر وشمال
أفريقية ، وما كان منها على أيدي المغول شرق بلاد المسلمين ، كانت تلك
الحروب والكوارث سببا في شعور كثيرين من علماء المسلمين وأتقيائهم
بعقدة الذنب ، ولذلك اعتقد الكثيرون منهم ، ومن بينهم ابن النفيس أن
ما خلل بالمسلمين من ذلك كان بسبب غضب الله سبحانه عليهم لعدم
تمسكهم بالدين الإسلامي الحنيف ، وعدم التزامهم بشريعته التي تحض
على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإغراقهم في الملذات التي نهى
الله عنها ، وقد خصص ابن النفيس لشرح هذا الشعور الفصل الثالث من
الفن الرابع من « الرسالة الكاملية في السيرة النبوية » تحت عنوان « في كيفية
تعرف كامل المعاصي التي لا بد وأن تقع لملة هذا النبي عليه الصلاة
والسلام » ، كما خصص الفصل الرابع من هذا الفن لبيان : « كيفية تعرف
كامل لما يحدث لملة هذا النبي لأجل عصيانهم من العقوبة » .

وانتشر الشعور بعقدة الذنب أيضا في هذين القرنين بين جميع
الناس من جميع الطبقات في جميع البلاد الإسلامية ، وكان لنشاط دعاة
المتصوفين أثره الكبير في ذلك ، وقد اكتسب الكثيرون من هؤلاء الدعاة
شعبية كبيرة ، ولكن بعض غلاة هؤلاء الدعاة أسرفوا في الدعوة لنظريات
بعيدة عن ظاهر الشرع الحنيف والسنة^(١) ، فقد دعا بعضهم إلى نبذ الحياة
الدنيوية ، والتفرغ للعبادة والإنصراف عن العمل لكسب الرزق وقد
تصدى لهم الكثيرون من الفقهاء والحفاظ الذين عارضوا هذه الدعاوى ،

(١) ضربنا أمثلة لذلك عند مقارنة رسالة « حى بن يقطان » بالرسالة الكاملية في السيرة النبوية .

التي تؤدي إلى خراب العالم الإسلامي إذا انتشرت بين الناس ، وكان من الذين عارضوا ذلك ابن النفيس فهو يقرر أن الإنسان مدني بطبعه ، ويجب أن يعيش في جماعة يتعاون أفرادها كما يذكر أن « كامل » « علم أن الإنسان لأجل فقدانه السلاح الطبيعي واحتياجه إلى غذاء صناعي ، وملبس صناعي ليست تجود عيشته إذا انفرد بنفسه بل لابد وأن يكون مدنيا حتى يكون مع جماعة يكون لبعضهم أن يزرع ، وللآخر أن يخبز ، وللآخر أن ينقل المادة وللآخر أن يخطط الثوب ونحو ذلك »^(١) ، وعندما يتكلم ابن النفيس عن : « المعاملات التي يشرعها النبي صلى الله عليه وسلم » يدافع عن مبدأ العمل لكسب الرزق ، وأن النبي يجب أن يفرض ذلك فيقول إن النبي : « يجب أن ينهي عن الظلم وأخذ المال بغير حق وبالباطل ، ويأمر بالمعروف ، وينهي عن المنكر ، [وعن] كل أمر يؤدي إلى الاستغناء عن نفع الناس وإلى القناعة بالبطالة ، فيجب أن يكون اجتماع الناس على وجه يكون لكل واحد نفع ، فلا يكون فيهم من لا نفع له إلا أن يكون عاجزا بمرض ... »^(٢) .

ومن الجدير بالذكر أن الصوفية التي انتشرت في مصر ابتعدت عن العناصر غير الإسلامية التي اختلطت بالتصوف في البلاد الإسلامية الأخرى ، فلم تنتشر فيها نظرية وحدة الوجود ولا مبدأ الحلول أو الاتحاد ، فقد عني التصوف المصري بالجانب العملي الخلقى ، ولم يرض المصريون عن المتصوفين الذين غالوا في تصوفهم وأسرفوا في الدعوة لنظريات أثير حولها بعض الشبهات^(٣) ، ولذلك أعرضوا عن محيي الدين بن عربي^(٤)

(١) الفصل الثالث من الفن الأول من « الرسالة الكاملة في السيرة النبوية » .

(٢) الفصل الثاني من الباب الثاني من الفن الثالث من الرسالة الكاملة في السيرة النبوية .

(٣) انظر ابن عطاء الله السكندري تأليف أبي الوفا التفتازاني ص ٦٣ - ٦٤ .

(٤) القاموس الإسلامي ج ١ ، ص ٤٩٥ .

(ت ٦٣٨ هـ = ١٢٤٠ م) وعن عفيف الدين سليمان التلمساني^(١)
(ت ٦٩٠ هـ = ١٢٩١ م) الذى دعا إلى طريقة شيخه جلال الدين
قونوى المشهور باسم جلال الدين الرومى (٦٧٢ هـ = ١٢٧٣ م) .

وقد عاصر ابن النفيس الكثير من كبار المتصوفين وأقطابهم الذين
وفدوا على مصر أو نشأوا بها ، وكان لهم أثرهم الكبير فى تطوير التصوف
ونشره فى مصر ، ففى عصره وفد على مصر السيد أحمد البدوى^(٢)
(ت ٦٧٥ هـ = ١٢٧٦ م) صاحب الطريقة الأحمدية ، ونشأ فى مصر
فى زمنه السيد ابراهيم الدسوقى القرشى (ت ٦٧٦ هـ = ١٢٧٧ م)
صاحب الطريقة البرهامية ، وكذلك وفد على مصر فى مستهل القرن
السابع الهجرى الشيخ أبو الفتح الواسطى ودعا إلى الطريقة الرفاعية ،
والشيخ أبو الحسن الشاذلى^(٣) (ت ٦٥٦ هـ = ١٢٥٨ م) صاحب
الطريقة الشاذلية ومريده أبو العباس المرسى^(٤) الذى أذاع الطريقة الشاذلية
بمصر ، وابن عطاء الله السكندرى^(٥) الذى ألّف الكتب فى آداب الطريقة
الشاذلية . وقد انتشرت طرق هؤلاء الأقطاب ودخل فيها بعض سلاطين
الممالك وأمراءهم وكثير من الأعيان والأثرياء .

وقد كان من أثر محاولة نشر الآراء المسرفة فى الدعوة لنظريات
فلسفية تصوفية مبنية على أسس ومبادئ غير إسلامية خارج مصر
وبخاصة فى الشام حيث أقبل عليها كثير من الشباب هناك ، — كان من أثر

(١) فوات الوفيات للكاتب ج ١ ص ١٧٨ والقاموس الإسلامى ج ١ ص ٦٢١ ، ومفتاح السعادة ج ٢ ص ٢٨٥ .

(٢) سعيد عاشور : السيد أحمد البدوى .

(٣) القاموس الإسلامى ج ٤ ص ٥ - ٧ ، وعبد الحليم محمود : أبو الحسن الشاذلى .

(٤) القاموس الإسلامى ج ٥ ص ٦٦ - ٦٨ وانظر أبو الوفا التفتازانى : ابن عطاء الله السكندرى ص ٦٣ .

(٥) القاموس الإسلامى ج ٥ ص ٤٠٥ ، وانظر أبو الوفا التفتازانى : ابن عطاء الله السكندرى .

ذلك — أن هبّ كثير من الفقهاء والمحدثين فتصدوا لأصحاب تلك الآراء ، وهاجموهم هجوما يتسم بعضه بالعنف الشديد ، ويمتاز بعضه بالهدوء والمنطق الذى يتحلى به الشيوخ الراسخون فى العلم ، وكان ابن تيمية^(١) (٦٦١ - ٧٢٨ هـ = ١٢٦٣ - ١٣٢٨ م) على رأس الذين اتخذوا العنف فى مهاجمة غلاة المتصوفين وشطحات بعض أصحاب الطرق الصوفية وتعاليمهم ، ولاقى فى سبيل ذلك الكثير من الاضطهاد ، فقد بدأ يدافع عن السنة وآراء السلف الصالح منذ باكورة شبابه بأدلة لم يسبق إليها ، ومن أمثلة عنفه تلك الخصومة بينه وبين عطاء الله السكندرى مع ما هو معروف عن هذا المتصوف من الالتزام بالشرع الحنيف^(٢) .

وكان من الفقهاء الذين دعوا للتمسك بالدين الإسلامى وشريعته فى سماحة ، « المزى ، يوسف بن عبد الرحمن الكلبى^(٣) (٦٥٤ - ٧٤٢ هـ) إمام الحُفَاط وحامل راية السنة والجماعة وشيخه النابلسى ، عبد المنعم بن يحيى مفتى وخطيب المسجد الأقصى (ت ٦٨٧ هـ) ، وكان على رأس الفريق الداعى إلى اتباع الشريعة الإسلامية وتطبيقها فى الحياة الاجتماعية الإمام الناسك سلطان العلماء العز بن عبد السلام (٥٧٨ - ٦٦٠ هـ = ١٢٨٨ م) « شيخ الإسلام علما وعملا ، وورعا وزهدا ، وتصانيف وتلاميذ^(٤) » وقد « بلغ مرتبة الاجتهاد وقصده الطلبة من البلاد ، وتخرج به أئمة ، وله الفتاوى السديدة^(٥) » وقد عاصر

(١) تقى الدين أبو العباس ، انظر ابن شاکر الكتبی : فوات الوفيات ط بولاق ج ١ ص ٣٥ ، والسبکی : الطبقات ط القاهرة ١٣٢٤ هـ ج ٥ ص ١٨١ - ٢١٢ ، ودائرة المعارف الإسلامية .

(٢) أبو الوفا التفتازانى : ابن عطاء الله ص ٦٧ - ٦٩ .

(٣) مفتاح السعادة ج ٢ ص ٣٦٧ - ٣٦٨ .

(٤) طبقات الشافعية تأليف جمال الدين عبد الرحيم الأسنوى ت ٧٧٢ هـ تحقيق عبد الله الجبورى ص ١٩٧ - ١٩٩ .

(٥) فوات الوفيات .

هذا الإمام أواخر الدولة الأيوبية وحُكم أربعة من سلاطين المماليك كان آخرهم الظاهر بيبرس ، وكان لا يخشى في فتاواه السلاطين والأمراء ولذلك كانت له مواقفه في دفع الظلم ومحاربتة ، ومن أمثلة ذلك ثورته على الصالح اسماعيل الأيوبي حاكم دمشق عندما تحالف مع الصليبيين ضد أخيه الملك الصالح أيوب وتنازل لهم سنة ٦٣٨ هـ = ١٢٤٠ م عن القدس وطبرية وعسقلان ، فقد اعتلى سلطان العلماء منبر المسجد الأموي وشرح هذه الخيانة التي أملاها الحقد والطمع ، وكان نصيبه السجن ، ولما أفرج عنه ذهب إلى القاهرة فرحب به الملك الصالح أيوب وأكرمه ، وولاه الخطابة في المسجد العتيق والقضاء بمصر والوجه القبلي فقام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولم يمنعه هذا الإكرام لشخصه من أن يغلظ للسلطان عندما كثرت ظلم ممالكه للشعب « فلما خرج من عنده قيل له ألم تخف من أذاه لك ؟ فقال : استحضرت عظمة الله تعالى فصار قدامى أحقر من قط »^(١) .

عاصر ابن النفيس سلطان العلماء نحوًا من ٢٨ عاما عاشها شيخ الإسلام في القاهرة ، وراه عندما تغالى أمراء المماليك في جمع الأموال من الشعب لمحاربة التتار (سنة ٦٥٧ هـ = ١٢٥٨ م) زمن السلطان « قطز » فقد تصدى لهم شيخ الإسلام وأفتى أنه لا يجوز لهم أن يجمعوا المال من الشعب إلا إذا نفذ كل ما هو موجود في بيت المال ، وأن يبيع أمراء المماليك كل ما يملكون من آلات الزينة الذهبية التي يحلون بها أنفسهم وآلاتهم وخيولهم ويقتصر كل واحد منهم على ما يلزمه من سلاح وما يركب من دابة ، وبذلك يتساوى عامة الشعب مع السلطان والأمراء في الإنفاق لدفع خطر الغزاة عن بلاد المسلمين »^(٢) .

(١) الأنسوى : طبقات الشافعية السابق ذكره .

(٢) القاموس الإسلامي لأحمد عطية الله ج ٥ ص ٣٦٤ - ٣٦٦ .

وعاصر ابن النفيس سلطان العلماء وهو « يدافع عن احكام الشريعة بالنسبة للشروط الواجب توافرها في تولية أولى الأمر ، فقد امتنع عن مبايعة الظاهر بيبرس سنة ٦٥٨ هـ = ١٢٦٠ م لأنه رقيق من ممالك الأمير علاء الدين أيدكين البندقدارى ، فمن ثم لا تجوز ولايته ، ولم يبايع حتى ثبت له أن البندقدارى باع بيبرس إلى الملك الصالح نجم الدين أيوب الذى أعتقه بعد ذلك » (١) .

ومع شدته مع السلاطين وأمراء الممالك كان شيخ فقهاء عصر ابن النفيس متواضعا للعلماء والمتصوفين الذين يلتزمون باتباع تعاليم الإسلام ، ومن ذلك أنه عندما عاد الشيخ أبو الحسن الشاذلى من الحجاز قابله العزيز بن عبد السلام « فى موضع يقال له البركة يبعد عن القاهرة بستة أميال » (٢) . ولهذا الإمام الناسك عدة مؤلفات طبع بعضها فى الفقه والتصوف وعلوم القرآن .

ولا شك أن ابن النفيس تأثر كثيرا بسلطان العلماء ، فقد كان لابن النفيس من الطب رزق وفير ، ومركز مرموق ، ولكنه لم يكتف بذلك وجلس لتدريس الفقه الشافعى بنفس الهمة والغيرة التى يعلم الناس بها الطب ، ثم كتب « الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية » دفاعا عن العقيدة الإسلامية وما تدعو إليه من المبادئ معارضا فى ذلك شيخ فلاسفة المسلمين « ابن سينا » ، والفيلسوف المتصوف « ابن طفيل » والمتصوف المغربي فى تصوفه السهروردى المقتول ، وكل من سار على دربهم من فلاسفة والمتصوفين .

(١) المرجع السابق .

(٢) عبد الحليم محمود : أبو الحسن الشاذلى ص ٤٣ .

وأكثر الوعاظ والمتصوفون من توجيه اللوم إلى الشعب ، وغالوا في بيان غضب الله على المسلمين لإبتعادهم عن تعاليم الدين الإسلامى ، وبالغوا في تصوير إسراف الأغنياء في اللهو والترف ، وكان لذلك أثره في الحياة الاجتماعية فقد أقبل الناس من مختلف طبقات الشعب على الانضمام إلى الطرق الصوفية المختلفة ، وقد كان الفاطميون عندما أرادوا أن يتقربوا إلى الشعب قد أكثروا من الاحتفالات والمواكب في المناسبات الدينية فكانوا يمدون الموائد ويقدمون فيها أنواعا كثيرة من الحلوى في مناسبات كثيرة مثل رأس السنة الهجرية ، ويوم عاشوراء ، وفي ذكرى المولد النبوى ، وقد حذا ملوك بنى أيوب حذوهم في إحياء هذه الحفلات ، وورث ذلك عنهم سلاطين المماليك وقلدهم أمراؤهم وكثير من كبار الحكام ومن الأثرياء ، واشترك رجال الطرق الصوفية اشتراكا فعلا فيها ، فكانوا يقيمون حلقات الذكر ، وكان الأغنياء يتبرعون لهم بالذبائح التى تنحر في تلك المناسبات حتى أصبح الشعب يعتقد أن ذلك لازم لظاهر محبتهم وولائهم للرسول صلى الله عليه وسلم وآل بيته .

وكان لهذا التطور في الحياة الاجتماعية أثره الكبير على الأدب العربى شعره ونثره ، وتألق كثير من الشعراء في نظم القصائد الغراء في مدح الرسول الكريم ، نذكر منهم على سبيل المثال : « ابن دحية » . الذى ألف سنة ٦٠٤ هـ لمظهر الدين كوكبرى صاحب مدينة إربل كتاب « التنوير فى مولد السراج المنير » وختمه بقصيدة عصماء فى مولد المصطفى صلى الله عليه وسلم ، فأجازه مظهر الدين بألف دينار ذهباً^(١) ، وعاصر « ابن النفيس » من هؤلاء الشعراء المجيدين الكثيرين ، نذكر من بينهم

(١) نفع الطيب ج ١ ص ٥٢٩ ، « والمدائح النبوية فى الأدب العربى لركى مبارك » ص ٢٤٤ .

« علم الدين على بن محمد الهمذاني السخاوي النحوي »^(١)
 (ت ٦٤٣ هـ = ١٢٤٥ م) صاحب القصائد السبع في مدح الرسول
 صلى الله عليه وسلم ، والشاعر الكبير البوصيري^(٢) (ت ٦٩٤ هـ =
 ١٢٩٦ م) صاحب قصيدة « الكواكب الدرية في مدح خير البرية »
 المشهورة باسم البردة لأنها تعارض قصيدة كعب بن زهير ، كما انتشر في
 ذلك العصر شعر الزاهد الرقيق « عمر بن الفارض »^(٣) (ت ٦٣٢ هـ =
 ١٢٣٥ م) وكذلك انتشر شعر صديقه الزاهد ابن الخيمي^(٤) ، محمد عبد
 المنعم الأنصاري (٦٨٥ هـ = ١٢٨٥ م) ، وبلغ من حب المتصوفين
 لشعر ابن الفارض أن أقبلوا على شرح قصائده ، وكان من بين الشارحين
 المتصوف المشهور ابن عربي (ت ٦٣٨ هـ) الذي قام بشرح تائية ابن
 الفارض^(٥) .

وازدان عصر ابن النفيس بنخبة ممتازة من اللغويين من أمثال
 « الجياني ، جمال الدين محمد بن مالك الطائي »^(٦) . (٦٠٠ - ٦٧٢ هـ =
 ١٢٠٣ - ١٢٧٤ م) إمام اللغويين في عصره ، وابن الحاجب جمال الدين
 أبو عمر^(٧) الفقيه اللغوي الذي تجرأ وامتنع عن ذكر إسماعيل الصالح
 الأيوبي في الخطبة في الجامع الكبير بدمشق عندما تنازل للصليبيين عن

(١) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ج ٥ ص ١٢٦ ، وتاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان .
 (٢) فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٠٥ - ٢٠٩ وبروكلمان ج ٥ ص ٨١ - وحسن المحاضرة للسيوطي ج ١
 ص ٣٦٠ .
 (٣) شذرات الذهب لابن العماد ج ٥ ص ١٤٩ - ١٥٣ ، وبروكلمان ج ٥ ص ٦٧ - ٧٧ .
 (٤) فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٣٠ .
 (٥) بروكلمان ج ٥ ص ٧١ .
 (٦) فوات الوفيات ج ٢ ص ٢٢٧ وطبقات الشافعية الكبرى ج ٥ ص ٢٨ .
 (٧) حسن المحاضرة ج ١ ص ٣٠٧ ، وبغية الوعاة ٣٣٣ .

صفد وقلعة شقيف (ت ٦٤٦هـ = ١٢٤٩م) ؛ كما عاصر اللغوى والأديب الكبير ابن منظور المصرى^(١) ، محمد بن مكرم (ت ٧١١هـ = ١٣١١م) صاحب أكبر المعاجم العربية ، وهو الذى اختصر كثيرا من أمهات كتب الأدب مثل كتاب الأغاني وكتاب العقد الفريد ؛ وكذلك عاصر الشاعر الرقيق « بهاء الدين زهير »^(٢) (ت ٦٥٦هـ = ١٢٥٦م) الذى تعلق بحب مصر ، وله قصائد غنائية رقيقة وأخرى فى المزاح وقد تحرر شعره من كثير من قيود الشعر القديم .

وعاصر ابن النفيس الكثير من كبار المؤرخين وكتاب التراجم نذكر من بينهم : سبط ابن الجوزى ،^(٣) (ت ٦٥٤هـ = ١٢٥٦م) شمس الدين ، وقد توفر على التاريخ والسير . ومن أشهر مؤلفاته « مرآة الزمان فى تاريخ الأعيان » وكتاب « منتهى السؤل فى تاريخ الرسول » . أما الفقيه المؤرخ « شهاب الدين أبو شامة »^(٤) (ت ٦٦٥هـ = ١٢٦٧م) فهو صاحب كتاب « الروضتين فى أخبار الدولتين » وكتاب « الذيل على الروضتين »^(٥) ، والأديب المؤرخ القفطى ، على بن يوسف الشيبانى^(٥) (ت ٦٤٨هـ = ١٢٤٨م) وهو الذى تولى الوزارة زمن الملكين : العزيز والناصر ، وقد ألف عدة كتب نذكر منها فى تراجم العلماء « إخبار العلماء بأخبار الحكماء » وكذلك كتاب « إنباه الرواة على أنباه النحاة » وله أيضا « أخبار مصر من ابتدائها إلى أيام صلاح الدين » ، وعاصر

(١) الموسوعة العربية الميسرة والمدخل للدراسات العربية ج ٢ ص ١١٤ - ١١٥ ، ودائرة المعارف الإسلامية .

(٢) وفيات الأعيان ج ١ ص ١٩٤ - ١٩٥ .

(٣) القاموس الإسلامى ج ١ ص ٦٥٨ - كتاب الروضتين مطبوع وكذلك ذيل الروضتين ، وانظر الموسوعة العربية الميسرة .

(٤) المرجع السابق ج ٤ ص ٢٥ .

(٥) انظر مقدمة إنباه الرواة طبع دار الكتب ، وكذلك الموسوعة العربية الميسرة .

كذلك القاضي ابن خلكان^(١) قاضي قضاة دمشق (ت ٦٨١ هـ = ١٢٨١ م) صاحب كتاب «وفيات الأعيان» ، والقاضي المؤرخ ابن واصل^(٢) مؤلف كتاب «مفرج الكروب في أخبار بني أيوب» وهو جمال الدين محمد بن بيلم (ت ٦٩٧ هـ = ١٢٩٨ م) وله أيضا كتاب «تجريد الأغاني من ذكر المثلث والمثلثان» ، وكذلك مؤلف كتاب «تحرير الأحكام في تدبير الإسلام» وهو ابن جماعة^(٣) ، بدر الدين الكناني الحموي (ت ٦٣٩ - ٧٣٣ هـ = ١٢٤١ - ١٣٣٠ م) .

(١) انظر مقدمة وفيات الأعيان ، ودائرة المعارف الإسلامية والموسوعة العربية الميسرة .

(٢) الموسوعة العربية ، ودائرة المعارف الإسلامية .

(٣) القاموس الإسلامي ج ١ ص ٦٢٧ ، ودائرة المعارف الإسلامية .

ما وصل إلينا من مؤلفات ابن النفيس في العلوم والفنون ما عدا الطب

١ - كتاب «الرسالة الكاملية في السيرة النبوية» في سيرة المصطفى صلى الله عليه وسلم ، وهو هذا الكتاب الذى نقدمه بين يديك محققاً ومعلقاً عليه ، وكما سنبين فيما بعد ، فإن الكتاب عرف بعنوان آخر هو «فاضل بن ناطق» . والكتاب يشبه أن يكون رسالة في علم الكلام قال عنها المؤرخ الصفدى : «وقد رأيت له كتاباً صغيراً عارض به رسالة «حى بن يقظان لابن سينا» ووسمه بكتاب «فاضل بن ناطق» انتصر فيه لمذهب أهل الإسلام وآرائهم في النبوات والشرائع والبعث الجسماني وخراب العالم . ولعمري لقد أبدع فيها ودل على قدرته وصحة ذهنه وتمكنه في العلوم العقلية»^(١) ولعل هذا الدفاع عن مذهب أهل الإسلام هو السبب الذى جعل بعض المستشرقين يقدحون في هذه الرسالة وفي مؤلفها ، حتى وصفه «سارتون» في كتابه : الشرق الأوسط في مؤلفات الأمريكيين بقوله : «وننتج عن ذلك أن بعض هؤلاء ظلوا يقبلون على علاقتها قصة خيالية كتبها على بن أبى الحزم بن النفيس وجعل عنوانها : «فاضل بن ناطق» تقليداً لقصة «حى بن يقظان لابن طفيل» . وكتب ابن طفيل قصته المعقولة في وقت كان الإسلام لا يزال سائداً سياسياً أما ابن النفيس الذى توفى بعد قرن من وفاة ابن طفيل ، فإنه كان طليعة من طلائع التقهقر حين بدأت مآثر المسلمين بالنقصان وأخذ غرورهم

(١) نقلا عن ترجمة ابن النفيس في مسالك الأبصار للعمري (ت ١٣٨٤ م) .

بالتو...»^(١) ثم قال في نهاية هذا النقد أن المستشرق يوسف شاخنت عثر على نسخة من هذا الكتاب في مكتبة خاصة في استانبول ، وأنه يعمل في طبعه مع ترجمة موجزة له بالانجليزية .

٢ - كتاب في أصول الحديث بعنوان : « مختصر في علم أصول الحديث » وهو مخطوط ، برقم ٢٠٩ مجاميع في دار الكتب بالقاهرة ..

وهناك كتب أخرى ورسائل ذكرتها بعض كتاب التراجم ، ولكنها لم تصل إلينا ، ولعل العناية بالبحث عن المخطوطات العربية وإعادة دراسة الموجود منها يمهّد لنا سبيل العثور على بعضها ، ونحن نذكر منها على سبيل المثال :

(أ) ذكرت بعض المصادر أن ابن النفيس ألف كتابا في الفقه شرحا على أول كتاب « التنبيه في الفقه الشافعي للشيرازي » ولكنه لم يصل إلينا .

(ب) ذكرت بعض المصادر أنه صنف في الفلسفة شرحا لكتاب : « الإشارات » وكتابا آخر شرح فيه كتاب « الهداية في الحكمة » وكلاهما من تأليف ابن سينا ، ولكننا لم نهتد إليهما بعد .

(ج) كتاب « طريق الفصاحة » ذكره البغدادي في كتاب « هدية العارفين في أسماء المؤلفين » كما ذكر كتاب التنبيه ، ولعله رآهما في استانبول .

(١) ص ٤٩ من الترجمة العربية وانظر ابن النفيس لبول غليونجي ص ١٠٦ .

الطب في عصر ابن النفيس

كان للنهضة الحضارية العربية الاسلامية الثانية التى تكلمنا عنها ، وهى التى ورثها الأيوبيون والمماليك عن العصر الفاطمى ، كان لها أثرها الكبير فى ازدهار الطب فى مصر والشام ونبوغ الكثيرين من الأطباء وبخاصة فى القاهرة ودمشق ، وكان من مظاهرها إنشاء البيمارستانات مثل البيمارستان « النورى » الذى أنشأه نور الدين محمود بدمشق فى القرن السادس الهجرى والمكتبة العامرة التى ألحقها به ، والبيمارستان الناصرى الذى أنشأه صلاح الدين الأيوبي فى القاهرة سنة ١١٨١ م ، وكانت هذه البيمارستانات مستشفيات يعالج فيها المرضى ، وتصرف لهم الأدوية ، وتجرى عليهم الأرزاق ، وكان بعضها يصرف لهم الثياب ، كما كانت أماكن لتعليم الطب وتدريب الأطباء .

وكان فى دمشق عند نشأة ابن النفيس نخبة ممتازة من الأطباء نذكر من بينهم الرحبى ، رضى الدين (ت ٦٣٠ هـ / ١٢٣٣ م) صاحب كتاب « خلق الانسان وهىئة أعضائه (١) .

وتلميذه الدخوار ، مهذب الدين عبد الرحيم بن على (٥٦٥ - ٦٢٨ هـ / ١١٧٠ - ١٢٣٠ م) الذى انتهت إليه صناعة الطب ومعرفتها فى زمانه ، وولاه السلطان الملك العادل سيف الدين أخو صلاح الدين رئاسة أطباء مصر بأسرها وأطباء الشام (٢) ، وكانت له رئاسة البيمارستان النورى بدمشق وينسب إليه شرح كتاب : « تقدمة المعرفة فى

(١) القاموس الاسلامى لأحمد عطية الله ، ج ٢ ص ٥٠٦ وكتاب ابن النفيس لغليونجى ص ٧٩ - ٨٠

(٢) ابن أبى أصيبعة ج ٣ ، ص ٣٩٠ .

الطب» من كتب أبوقراط المنقولة الى العربية ، وله مختصر كتاب «الحاوى
فى الطب لأبى زكريا الرازى»^(١) .

ونبغ فى الشام أيضا «عمران الإسرائيلى» الذى كان يزاول مع
الدخوار العمل فى البيمارستان النورى (٥٦١ - ٦٣٧ هـ = ١١٦٥ -
١٢٣٩ م) ، وكان من أبرع أطباء عصره ، وشفى على يديه كثير من
الأمراء والمرضى الذين أصيبوا بأمراض مستعصية^(٢) .

تعلم ابن النفيس الطب على كبر على يد هؤلاء الفحول من
الأطباء ، ومارس الطب تحت إشرافهم فى البيمارستان النورى ، وكان
أكثرهم تأثيرا فيه أستاذه «ابن الدخوار» ، ثم انتقل الى مصر هو وبعض
معاصريه من الأطباء السوريين نذكر من بينهم زميله ومعاصره ابن أبى
أصيبعة . وفى القاهرة عمل فى البيمارستان الناصرى الذى كان قد
أنشأه صلاح الدين الأيوبي سنة ١٢٧١ م ، واستمر يعمل فيه حتى أسس
«ابن قلاوون» البيمارستان المنصورى سنة ٦٨٢ هـ / ١٢٨٤ م
وأدخل فيه كل مبتكر ، وقد وصفه المقرئى وصفاً رائعا ، كما وصفه ابن
بطوطة وبقي قائما الى أيام حملة نابليون على مصر سنة ١٧٩٨ م^(٣) ، وقد
رأى المنصور قلاوون أن يسند رئاسة هذا البيمارستان الى ابن النفيس ثقة
منه فى كفايته وقدرته على النهوض به ، فقام بتأدية هذه المهمة على خير
وجه وأوقف عليه مكتبته العظيمة وقصره الكبير .

وعاصر ابن النفيس فى مصر الكثيرين من الأطباء المشهورين نذكر
من بينهم شيخ العشابين ابن البيطار ، أبو محمد ضياء الدين عبد الله

(١) القاموس الإسلامى ج ٢ ص ٣٥ .

(٢) ابن النفيس تأليف د. بول غليونجى ص ٧٩ - ٨٣ .

(٣) الموسوعة العربية الميسرة ، مادة بيمارستان .

(٥٧٥ - ١٤٦ هـ / ١١٩٧ - ١٢٤٨ م) الذى بنى طريقته فى ممارسة الطب على دراسة أعشاب شمال أفريقية ومصر وسوريا وآسيا الصغرى ومعرفة خواصها ، وتجربة استعمالها فى مداواة جميع أنواع الأمراض وتغذية المرضى^(١) ، وقد توجه إلى القاهرة فى خدمة الملك الصالح نجم الدين أيوب (١٢٤٠ - ١٢٤٩ م) وعينه رئيسا لجميع العشابين ، وقد ألف ابن البيطار كتابه : «جامع مفردات الأدوية والأغذية» المعروف أيضا باسم «الجامع الكبير» وأهداه إلى الملك الصالح ، وهو مجموعة من العلاجات البسيطة المستخلصة من النباتات والحيوانات أو المعادن^(٢) ؛ وقد بقى هذا الكتاب مرجعا هاما اعتمد عليه العشابون والأطباء وامتدحوه ، وطبع أكثر من مرة من بينها طبعة بولاق سنة ١٢٩١ هـ ، وقد اختُصر هذا الكتاب وعلق عليه وترجم إلى اللاتينية فكان له أثره فى تقدم الطب وطرق المعالجة فى أوروبا فى نهاية العصور الوسطى^(٣) ، كما ترجم بعد ذلك فى العصر الحديث إلى التركية والألمانية والفرنسية ، وقد عمل ابن البيطار فى بیمارستان الناصرى بالقاهرة زميلا لابن النفيس .

وكذلك عاصر ابن النفيس «كوهين العطار الاسرائيلى الهارونى» الذى ألف سنة ٦٥٨ هـ = ١٢٦٠ م فى القاهرة كتاب : «منهاج الدكان ودستور الأعيان» قدم فيه إلى الصيادلة كتابا أوسع من الدستور بیمارستانى لداود بن البيان الذى كان يستعمل فى مستشفيات مصر والشام والعراق ، وقد طبع فى القاهرة مرارا ، ولا يزال متداولاً لدى عطاري الشرق الأوسط^(٤) .

(١) موجز تاريخ الصيدلة إدارة الثقافة بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ج ٢ ص ٤١٤ - ٤١٧ .

(٢) تاريخ الصيدلة والطب العربى منذ نشأته حتى العصور الحديثة لسامى خلف حمارة القاهرة ١٩٦٧ ،

ج ١ ص ٣٨ - ٤١ ج ١

(٣) د. سامى خلف حمارة : المرجع السابق .

^١ (٤) الموجز فى تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ، ج ٢ ص ٤١٨ .

وعاصر كذلك السيد الإسرائيلي : سيد الدين أبو الفضل داود
ابن سليمان بن إسرائيل (٥٥٦ - ٦٣٦ هـ / ١١٦٠ - ١٢٣٨ م)
الذى برع فى تركيب الأدوية ومعرفة مقاديرها وأوزانها ، ودخل فى
خدمة السلطان العادل وله كتاب : « الأقرباذين فى الأدوية المركبة »^(١)
وقد خدم مع ابن النفيس فى بیمارستان الناصرى .

وعاصر ابن النفيس فى القاهرة من أصدقائه وزملائه الكثير من
الأطباء النابهين نذكر من بينهم الميهدب رشيد الدين بن أبى حليقة أحد
رؤساء الأطباء بمصر (٥٩١ - ٦٦٠ هـ / ١١٩٥ - ١٢٦٢ م) مؤلف
كتاب : « المختار فى ألف عقار »^(١) ، وكذلك عاصر شرف الدين بن
صغير^(٢) .

(١) القاموس الإسلامى : ج ٣ ص ٢٨٦ (١) المرجع السابق ج ٢ ص ١٤١ .
(٢) ذيل عيون الأنباء فى طبقات الأطباء المعروف باسم معجم الأطباء لأحمد بك عيسى ص ٢٩٥ .

فضل العلاء بن النفيس فى تطوير الطب وطرق العلاج

كان للبيئة العلمية التى أظلت ابن النفيس ، ولأساتذته وزملائه من الأطباء النابهين الذين كانوا يذبلون أقصى ما يستطيعون لمداواة المرضى والحدّ مما يعانونه من آلام وأوجاع عن طريق البحث فى تركيب الأدوية ، وتقديم الأغذية ، واستعمال الأعشاب فى تطبيب المرضى ، ومحاولة الوصول إلى أحسن طرق العلاج والتغذية ، كان لذلك أثره الواضح فى ابن النفيس ، ولكن أكثر أطباء عصره كانوا يحصرّون بحوثهم ومحاولاتهم فى دائرة محدودة لا يتخطونها وهى آراء الطبيب اليونانى القديم جالينوس صاحب المؤلفات العديدة^(١) وكذلك آراء كبار الأطباء المسلمين الذين اتبعوه بعد ترجمة مؤلفاته إلى العربية وعلى رأسهم الرئيس الفيلسوف ابن سينا . أما ابن النفيس فقد كان واسع الاطلاع ، قوى الذاكرة ، يهتم بنقد ما يقرأ من كتب الأقدمين ، ولذلك كان مستقل التفكير ، وكان يعتمد فى ممارسة الطب على بحث ما خلفه الأقدمون بعد نقده نقدا مبنيا على التجربة العملية والملاحظة المباشرة لمرضاه ، وعلى علم التشريح الذى كان يباشره سرا ، ولذلك توصل إلى آراء ونظريات سديدة خالف فيها آراء جالينوس حتى وصفه بالعمى والاسهاب الذى ليس تحته طائل ، وكان فى الوقت نفسه يحترم آراء بقراط^(٢) ولذلك اهتم بشرح كتبه كلها وعمل

(١) طبيب يونانى (١٣٠ - ٢٠٠ م) درس فى بلاد اليونان ، وآسيا الصغرى والاسكندرية وينسب إليه حوالى ٥٠٠ مؤلف فى الطب والفلسفة ، وبقي منها ثلاثة وثمانون فى الطب ، وظل حتى القرن السادس عشر الميلادى مرجعا مسلما به لا يجرؤ أحد على مخالفته مما أعاق تقدم الطب (الموسوعة العربية الميسرة) وكان ابن النفيس من أوائل الذين خالفوه فى القرن الثالث عشر الميلادى .

(٢) طبيب يونانى (٤٦٠ - ٣٧٠ ق.م) فصل الطب عن الغيبات والخرافات ، وأقامه على أساس علمى ولذلك يعرف بأبى الطب . تُرجمت كتبه إلى شتى اللغات . ونُقل كثير منها إلى اللغة العربية وأضافوا إليها شروحا وتفسيرات فى بداية عصر الترجمة (الموسوعة العربية الميسرة) .

لأكثرها شرحين مطول ومختصر^(١) ولعله كان متأثراً في ذلك برأى أستاذه عبد الرحيم الدخوار فقد عنى ابن النفيس بشرح كتاب «تقدمة المعرفة في الطب من كتب بقراط» وكان هذا شرحاً لشرح الدخوار ، ويتضح موقف ابن النفيس في هذا المجال إذا قارنّا بين مسلكه وبين مسلك زميل آخر له كان من أكبر أطباء عصره وهو العماد النابلسي وعلى يديه هو وابن النفيس تخرج أكثر أطباء مصر والقاهرة ، فقد كان العماد النابلسي ، على عكس زميله ابن النفيس ، يعظم جالينوس ويحث تلاميذه على قراءة مؤلفاته والعمل بما جاء فيها^(٢) .

وقد نبغ الكثيرون من تلاميذ ابن النفيس نذكر من بينهم بدر الدين حسن أحمدرؤساء الأطباء بمصر ، وأمين الدولة ابن القف صاحب كتاب في الجراحة^(٣) وكذلك الطبيب السديدرالدمياطي الحكيم ، ألى الفرّج السكندري ، وألى الفرّج ومن تلاميذه كذلك أبو الفرّج بن صغير^(٤) .

وقد عنى ابن النفيس بشرح كتاب في الطب من تأليف حنين بن اسحق فأحصى بذلك تراث طبيب من أوائل العرب النساطرة الذين حذقوا الطب والفلسفة فألف فيهما الكتب والمقالات ، وترجم الكثير من الكتب اليونانية القديمة ، وكانت له مدرسة عين له فيها الخليفة المتوكل مترجمين يترجمون من اليونانية ، وكان حنين يراجع ترجماتهم^(٥) .

واهتم ابن النفيس بشرح الكثير من مؤلفات الرئيس ابن سينا واعتبرها أحسن كتب الطب «وكان لا يشير على مشغل بغير كتاب

(١) مسالك الأبصار ، وروضات الجنات للخوانساري .

(٢) مسالك الأبصار للعمرى .

(٣) دائرة المعارف الإسلامية مادة ابن النفيس .

(٤) مسالك الأبصار ، وذيل عيون الأنباء السابق ذكرهما .

(٥) حنين بن اسحق ١٩٤ - ٢٦٠ هـ / ٨١٠ - ٨٧٦ م في بداية عصر الترجمة .

القانون ، وهو الذى جسّر الناس على هذا الكتاب . وقالت بعض المصادر إنه شرحه فى عشرين مجلدة شرحا حل فيه المواضع الحكمية ، ورتب فيه القياسات المنطقية ، والاشكالات الطبية ، ولم يسبق إلى هذا الشرح^(١) ولكن لم يمنعه هذا الاكبار والتعظيم من نقد هذه المؤلفات ، وتصحيح ما جاء بها من أخطاء نشأت عن اتباعه لآراء جالينوس ، وكان نقده مبنيا على ملاحظاته أثناء ممارسة الطب ومدواة المرضى أكثر من أربعين عاما ، وعلى ما اكتشفه أثناء اهتمامه بتشرح جسم الحيوان والإنسان سرا^(٢) .

لقد انفق ابن النفيس جزءا كبيرا من حياته فى شرح كثير من أمهات الكتب بلغة واضحة وأسلوب هو السهل الممتنع ، وأعانه على ذلك اتقانه لكثير من العلوم ، وإجادته لفنون اللغة العربية ، وقد ذكرنا من قبل بعض ما قام بشرحه فى العلوم غير الطبية ، وقد ضرب بسهم وافر فى إتقان شرح كتب الطب شرحا بسّط فيه الآراء والنظريات العلمية بحيث أصبحت واضحة ألمم زملائه من الأطباء ، كما قرّبها إلى الأطباء الناشئين ، وبذلك أعانهم على مزاولة مهنة الطب حيث أصبحت خير مرشد لهم وبخاصة بعد قيامه بتصحيح ما جاء بها من أخطاء ، ولذلك انتشر الانتفاع بالكثير منها وامتد إلى عصرنا هذا ، إذ اهتم الممارسون بطبع بعضها وعم نفعها فى الشرق والغرب ، وكان ابن النفيس يدرك القيمة العلمية لمؤلفاته ، ولذلك أثر عنه قوله : « لو لم أعلم أن تصانيفى تبقى بعدى عشرة آلاف سنة ما وضعتها »^(٣) ولعل هذا أحد الأسباب

(١) مسالك الأبصار ، وروضات الجنات للخوانسارى ، وذيل عيون الأنباء لأحمد بك عيسى .

(٢) دائرة المعارف الإسلامية « مادة ابن النفيس ، وكتاب » ابن النفيس تأليف بول غليونجى .

(٣) مسالك الأبصار للعمرى ، وروضات الجنات للخوانسارى ، وذيل عيون الأخبار لأحمد عيسى .

التي جعلت مؤلفي كتب التراجم وجامعي البيليوغرافيا يذكرون : « أنه لم يكن على وجه الأرض مثله ، قيل ولا جاء بعد ابن سينا مثله ، وقالوا : كان في العلاج أعظم من ابن سينا » (١) .

وقدم ابن النفيس للطب خدمة جليلة أخرى ، فقد كان أحد الأطباء الأفاضل الذين هدتهم مطالعاتهم وتجاربهم إلى أن تنظم غذاء المرضى أفيد لهم من الاعتماد فقط على تعاطى الأدوية ، ولذلك فقد كان من المعروف عنه أنه كان « لا يصف لمرضاه دواء ما استطاع أن يصف غذاء ، ولعله كان في ذلك متأثراً بأحد أعلام أطباء المسلمين الذين قدموا للإنسانية أجل الخدمات وهو : أبو بكر محمد بن زكريا الرازي (٢٤٠ - ٣٢٠ هـ / ٨٥٤ - ٩٣٢ م) صاحب كتاب « منافع الأغذية ودفع مضارها » (٢) فقد كان يعالج بعض الأمراض بالأغذية دون الأدوية اعتقاداً منه أن نقصها كان السبب في حدوث الأمراض (٣) كما يؤثر عنه قوله :

« إن استطاع الحكيم أن يعالج بالأغذية دون الأدوية فقد وافق السعادة (٤) » .

وهذه الطريقة في علاج المرضى ومداوتهم بتنظيم تغذيتهم والاقبال من تعاطيهم الأدوية كلما أمكن ذلك ، فإنها ، وإن قبلها وارتاح إليها العلماء والمثقفون ، إلا أنها كانت لا تزال غريبة على عامة الناس في عهد

(١) المراجع السابقة ، وكتاب طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ج ٥ ، وكذلك كتاب : مفتاح السعادة ، ومصباح السيادة لطاش كبرى زاده ، طبعة القاهرة ، ج ١ ، ص ٣٢٩ .

(٢) القاموس الإسلامي لأحمد عطية الله ، ج ٢ ، ص ٤٦٥ .

(٣) الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ، الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية ، ج ٢ ، ص ٣٩٨

(٤) المرجع السابق ج ٢ ، ص ٣٩٩ .

بن النفيس ، كما كانت سببا في ثورة العشائين^(١) عليه وعداوتهم له ، فقد كانوا هم الذين يحضرون الأدوية التي يصفها الأطباء ، وكان في انتشار هذه الطريقة خطر كبير على أرباحهم الطائلة ولذلك نشطوا في محاربته ، وأشاعوا عنه أنه بالرغم من علمه الوافر فإنه لا يحسن طرق العلاج ولا مداواة المرضى ، وانتشرت هذه الدعاية ضده حتى اعتقد بها بعض المتعلمين الذين كانوا قد اعتادوا تعاطي الكثير من الأدوية ، ويؤمنون بأثرها الفعال في علاج الأمراض ، ولذلك رددوا هذه الشائعات ووردت في بعض المراجع^(٢) ولكن المؤرخين أنصفوه فقد وصفه صاحب كتاب حسن المحاضرة^(٣) بقوله : العلامة علاء الدين علي بن أبي الحزم القرشي ، شيخ الطب بالديار المصرية ، وصاحب التصانيف الموجزة ... وأحد من انتهت إليه معرفة الطب مع الذكاء المفرط ، والذهن الحاذق بالمشاركة في الفقه والأصول والحديث والعربية والمنطق » .

وجاء عنه في النجوم الزاهرة : « الشيخ الطبيب علاء الدين المعروف بابن النفيس الحكيم الفاضل العلامة في فنه ، لم يكن في عصره من يضاهيه في الطب والعلاج ... وانتهت إليه رياسته فنه في زمانه ، وهو صاحب التصانيف المفيدة »^(٤) .

(١) العشايون هم المعروفون في زماننا بالطيارين .

(٢) مسالك الأبصار ، وروضات الجنات ، وذيل عيون الأنباء .

(٣) السيوطي .

(٤) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة في وفيات سنة ٦٨٧ هـ .

مؤلفات ابن النفيس في الطب

ما وصل إلينا منها وأماكن وجودها

١ - رسالة في منافع الأعضاء ، مخطوطة محفوظة بدار الكتب بالقاهرة ضمن مجموعة برقم ٢١٧٣٣ ل .

٢ - كتاب « الشامل في الطب » أجمعت كل مصادر البحث على أن ابن النفيس كان يعتزم تأليف كتاب شامل في الطب في ٣٠٠ سفر ، ولكنه لم يبيض منها سوى ٨٠ سفرا فقط أودعها في مكتبته الخاصة التي أهداها للبيمارستان المنصوري بالقاهرة ، ولكننا لم نعثر عليها ، ويقول الزركلي في كتاب الأعلام أنها موجودة الآن في المكتبة الظاهرية بدمشق ، ولا يوجد منها بدار الكتب بالقاهرة سوى قطع مخطوطة ، الأولى منها برقم ٦٨١ طب في ١٣٨ ورقة ، والثانية برقم ٦٠٥٧ ل في ١٩٢ ورقة ، والثالثة برقم ٢٠٩ طب ، والرابعة مصورة برقم ٤٢٣ طب تيمور في ١٣٩ لوحة . وتوجد منه أجزاء في مكتبة البودليانا برقم ٥٣٦ - ٥٣٩ .

٣ - « المذهب في الكحل » وهو كتاب في أمراض العين لا يزال مخطوطا ، وتوجد منه نسخة في مكتبة الفاتيكان (Arabo 307) .

٤ - « شرح لمبادئ أبقرات » ويوجد مخطوطا في كثير من مكاتب العالم ، كما توجد منه نسخة مطبوعة في بلاد فارس سنة ١٢٩٨ هـ / ١٨٨١ م .

٥ - « شرح مقدمة المعرفة لأبقرات » وتوجد منه نسخة مخطوطة بدار الكتب بالقاهرة برقم ٤٩٦ طب .

٦ - « شرح فصول أبقرات » توجد منه نسخة مخطوطة بدار الكتب بالقاهرة برقم ٥٦٥ طب .

٧ - الشروح الموسعة «لقانون ابن سينا فى الطب» مخطوط فى مكتبة المتحف البريطانى .

٨ - «شرح تشريح القانون لابن سينا» وهو الكتاب الذى شرح فيه «ابن النفيس» الدورة الدموية الرئوية المسماة بالدورة الدموية الصغرى ، وكان بذلك أول من اهتدى إلى اكتشاف هذه الدورة الدموية .

٩ - «فصول مختارة من شرح تشريح القانون لابن سينا» وهو مطبوع وتوجد منه نسخة بدار الكتب برقم ١٨٧٠ طب .

١٠ - «موجز القانون لابن سينا» وهو أشهر كتب ابن النفيس وأكثرها تداولاً وتمتد تأليفه ، فقد انتشر الانتفاع به فى بلاد المشرق كلها ، ولذلك عنى الكثيرون بكتابة شروح له أو حواش عليه ، وظل الأطباء فى الهند يعتمدون عليه إلى عهد قريب فطبع أول مرة سنة ١٨٢٨ ، وتوجد منه عدة نسخ مخطوطة فى شتى مكتبات العالم ، وتوجد منه فى دار الكتب بالقاهرة ثمانى نسخ مخطوطة ، ونسختان مطبوعتان برقم ١١٣٥ - ١١٣٦ طب ، وقامت لجنة احياء التراث بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بنشره نشرة علمية محققة ، وقد صدر هذا عام ١٤٠٦ هـ / ١٩٨٦ م . وقد وصفه حاجى خليفة فى كشف الظنون بقوله : «كتاب معتبر مفيد ، هو خير ما صنف من المختصرات والمطولات ، إذ هو موجز فى الصورة لكنه كامل فى الصناعة ، منهاج للدراسة ، حاو للذخائر النفسية ، شامل للقوانين الكلية والفوائد الجزئية جامع لأصول المسائل العملية والعلمية»^(١) .

(١) كشف الظنون ج ٢ طبع الآستانة سنة ١٩٤٣ .

١١ - « شرح أوبئة أبقرات » مخطوط بمكتبة ايا صوفيا باستانبول
برقم ٣٦٤٢ .^١

١٢ - شرح لكتاب « مسائل في الطب » لحنين بن اسحق ،
مخطوط محفوظ بمكتبة ليدن برقم ١٢٩٦ .

١٣ - رسالة في منافع الأعضاء الإنسانية « مشتملة على معارف
حقيقية ، ومعاني حكمية في منافع الأعضاء الإنسانية ومواضعها ،
وأوصاف بعضها من بعض ، وما يختص به الإنسان دون باقي ذوات
الأنفس منها »^(١) وهي مخطوطة في ٢٨ ورقة مجموعة محفوظة بدار الكتب
بالقاهرة برقم ٢٠٩ مجاميع ..

(١) وجه الورقة الأولى من المخطوطة .

ابن النفيس واكتشافه للدورة الدموية الرئوية

ذكرنا من قبل أن ابن النفيس كان يؤمن أن مؤلفات «الرئيس ابن سينا» هي أحسن كتب الطب ، وأنه كان لا يشير على ممارس الطب بغير كتاب «القانون» ، وأنه هو الذى جسّر الناس على الانتفاع به فقد كان أكبر موسوعة طبية في عصرها ، ولذلك أقبل «ابن النفيس» على كتابة علة شروح لهذه الموسوعة ، منها شرح موسع نعرف أنه محفوظ بين مخطوطات مكتبة المتحف البريطانى بلندن . ولم يخصص «الرئيس ابن سينا» في هذه الموسوعة قسما خاصا للتشريح ، ولذلك قام ابن النفيس بجمع الأجزاء التى تكلم فيها الشيخ الرئيس بن سينا عن التشريح في كتاب واحد عنوانه «شرح تشريح القانون» وقال في مقدمة هذا الشرح : «إن قصدنا الآن إبراز ما تيسر لنا من المباحث على كلام الشيخ الرئيس أبى الحسن على بن عبد الله بن سينا ، رحمه الله في التشريح في جملة كتاب القانون ، وذلك بأن جمعنا ما قاله في الكتاب الأول من كتاب القانون الى ما قاله في الكتاب الثالث من هذه الكتب ، وذلك ليكون الكلام في التشريح جميعه منظوما»^(١) .

وكان كتاب القانون يحوى الكثير من آراء جالينوس وتعاليمه في التشريح ، وكان الأطباء المسلمون حتى أيام «ابن النفيس» ينظرون الى آراء جالينوس التى أقرها الشيخ الرئيس ابن سينا على أنها مرجع أساسى لا يمكن أن يتطرق إليه الشك ولا تجوز مناقشته ، كما أن تعاليم جالينوس ظلت كذلك تعتبر في أوروبا حتى القرن ١٦ الميلادى مرجعا مسلما به لا يجوز الشك فيما جاء فيه ، وقد أعاقت هذه النظرة تقدم الطب .

(١) كتاب ابن النفيس لبول غليونجى ص ١١٣ وكتاب «من أعلام الطب العربى لأبى الفتح التوانسى ص ١٣٥

وصف الرئيس «ابن سينا» القلب ، كما وصفه من قبل جالينوس بأنه مكون من ثلاثة بطون بطنان كبيران وبطن كالوسط ليكون له مستودع غذاء يتغذى به ... ومعدن روح يتولد به ... ومعدن روح يتولد فيه ... ومجرى بينهما ، وذلك المجرى يتسع فيه عند تعرض القلب ، وينضم عند تطوله»^(١) ثم يقول : «إن الدم يتولد في الكبد ، ثم ينتقل منه إلى البطين الأيمن في القلب ، ثم يسرى الدم في العروق حتى يصل إلى مختلف أعضاء الجسم ليمدها بالغذاء والحياة ، فهما يقولان : إن بعض الدم يدخل في البطين الأيسر عن طريق مسام موجودة في الحجاب الحاجز حيث يمتزج بالهواء الذي يأتي من الرئتين ، ويطلقان على هذا المزيج «الروح الحيوى» الذى ينساب في الشرايين إلى مختلف أجزاء الجسم ، ويؤيدان هذا ببعض الحقائق المشاهدة وهى عروق الموتى ترى عادة مملوءة بالدم في حين أن الشرايين تكون خالية منه»^(١) .

وكان ابن النفيس ، كما سبق أن ذكرنا ، يرفض التقليد ، ويهتم بنقد التعاليم والنظريات التى قررها من سبقه من الأطباء نقداً بناءً يرمى إلى الوصول إلى المعلومات الصحيحة ، وكان يبنى هذا النقد على تجاربه في ممارسة الطب ، والملاحظة الدقيقة لمرضاه ومبلغ تأثرهم بطرق العلاج ، وما يقف عليه من نتائج عن طريق ممارسته للتشريح خفية ، فكان أن توصل بدقته النادرة في البحث والتجربة والملاحظة ، وبعلمه الوافر ، وذكائه النادر إلى النظريات التالية :

أولاً : «أخطأ ابن سينا في قوله «إن عضلة القلب تتغذى من الدم الموجود في تجويفه ، فقوله «ابن سينا» : ليكون له مستودع غذاء يتغذى به ، وجعله الدم الذى في البطين الأيمن منه يتغذى

(١) الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، ج ١ / ٨٩

القلب لا يصبح ألبته ، فإن غذاء القلب إنما هو من الدم المار فيه من العروق المارة في جرمه»^(١) وواضح أن ابن النفيس يشير بذلك إلى الشرايين الاكليلية «التاجية» وبذلك يكون ابن النفيس أول من فطن إلى وجود أوعية داخل عضلة القلب تغذيها^(٢) .

ثانيا : أن للقلب بطنين فقط ، أحدهما مملوء من الدم وهو الأيمن ، والآخر مملوء من الروح وهو الأيسر ، ولا منفذ بين هذين البطينين ألبته ، وإلا كان الدم ينفذ إلى موضع الروح فيفسد جوهرها ، والتشريح يكذب ما قالوه»^(٣) «والحاجز بينهما أشد كثافة من غيره ، لئلا ينفذ منه شيء من الدم أو الروح ، فقول من قال إن ذلك الموضع كثير التخلخل باطل لأن نفوذ الدم إلى البطين الأيسر إنما هو من الرئة بعد تسخينه وتصعبه من البطين الأيمن كما قررنا أولا»^(٤) .

ثالثا : وزاد ابن النفيس المعاني السابقة توضيحا بقوله : «إن الحاجز البطيني خال من المسام غير نضّاح ، وأن القلب لا يتغذى من الدم الذى تحويه تجاويفه بل من الأوعية الصغيرة المنبثة في جوهره ، وأن الدم إذا لطف نفذ في الوريد الشرياني إلى الرئة لينبث في جرمها ويخالط الهواء ويتصفى وينفذ إلى الشريان الوريدي ليصل إلى التجويف الأيسر من تجاويف القلب»^(٥) .

(١) المرجع السابق ، ج ١ ص ٩١

(٢) غليونجي : «ابن النفيس» ص ١٢٨ .

(٣) الموجز في تاريخ الطب السابق : ج ١ ص ٩٠ - ٩١ .

(٤) كتاب «من أعلام الطب العربى» لأبى الفتوح التوانسى ص ١٣٤ .

(٥) الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم : الادارة الثقافية ج ١ ص ٢٤٦ .

رابعاً: ويتضح مما سبق أن ابن النفيس قد وصل إلى : « أن الدم ينساب من البطين الأيمن إلى الرئة حيث يمتزج بالهواء ، ثم ينتقل إلى البطين الأيسر » وبذلك أثبت أن الدم ينقى في الرئتين ؛ وتلك هى الدورة الدموية الصغرى . وهذا الكشف العظيم الذى وصل إليه واستنبطه واضح فى كلامه عن تشريح الرئة والقلب ، فهو يقول فى تشريح الرئة : « وأما الرئة فهى مؤلفة من أجزاء أولها شعب القصبة ، الثانى شعب الشريان الوريدي ، والثالث شعب الوريد الشرياني » (١) .

وهكذا يذكر تاريخ الطب العربى لابن النفيس بالفخر والاعجاب ، كشفه للدورة الدموية الصغرى (الرئوية) ، فقد فطن ابن النفيس إلى أن اتجاه الدم ثابت ، وأن حركته ليست حركة مد وجزر كما كان يظن سابقا ، وقال بأن الدم يمر فى تجويف القلب الأيمن إلى الرئة حيث يخالط الهواء ، ثم يعود من الرئة عن طريق الوريد الرئوى إلى التجويف الأيسر للقلب (٢) ، وهذا هو أعظم اكتشاف فى فن التشريح أهده العلماء العرب للحضارة الإنسانية .

وقد فوجئت الهيئات العلمية فى أوروبا بما اثبتته الطبيب المصرى الشاب ابراهيم التطاوى فى الرسالة التى قدمها لجامعة هايدلبرج بألمانيا ونال بها درجة الدكتوراه فى الطب سنة ١٩٢٤ ، فقد أثبت فضل ابن النفيس فى اكتشاف الدورة الدموية الرئوية فى القرن السابع الهجرى

(١) من أعلام الطب العربى لأبى الفتح التوانسى ص ١٣٢ .

(٢) الموجز فى تاريخ الطب والصيدلة عند العرب ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، إدارة الثقافة ، ج ١ ص ٢٤٦ .

الموافق للقرن الثالث عشر الميلادى ، وذلك فى مؤلف بعنوان « شرح
تشرىح القانون » وأوضح أن هذا الكتاب موجود منه نسخ فى أكثر
المكتبات الأوروبية الكبرى وفى كثير من المكتبات الكبرى المنتشرة فى
أرجاء العالم ؛ ولكن بعض المستشرقين ، وكان أولهم الطبيب
مايرهوف^(١) ، الذى كان قد استوطن القاهرة ، نفوا علم الأطباء
الأوربيين بما جاء فى الكتاب ، بدعوى أنه مخطوط مؤلف باللغة العربية ،
وأنه لم يترجم إلى اللاتينية فى عصر النهضة الأوروبية ، ورتبوا على ذلك أن
ما وصل إليه الأطباء الأوروبيون فى القرن السادس عشر الميلادى كان
نتيجة للبحوث التى قاموا بها دون اطلاع على مخطوطة « شرح تشرىح
القانون » وعن غير استرشاد بآراء الطبيب العربى المسلم « ابن
النفيس »^(٢) .

وقد تقدمت البحوث فى تاريخ الطب تقدما يسمح لنا أن نذكر أن
ادعاء « مايرهوف » ومن تبعه من المستشرقين ليس صحيحا ، ونحن نوضح
ذلك فيما يلى :

أولا : ثبت أن « أندريا ألباغو » *Andrea Alpgo* (١٤٥٠ -
١٥٢٢ م) طاف فى الشرق الأدنى حوالى ثلاثين عاما ، أتقن فيها
اللغة العربية وبعض العلوم الإسلامية ، وجمع بعض مخطوطات

(١) نلاحظ مع الأسف أن « مايرهوف » لم يكتف بنفى فضل ابن النفيس على الأوربيين فى اكتشاف الدورة
الدموية الرئوية ، ولكنه نزل عن المستوى الخلقى والعلمى الذى كان من الواجب أن يلتزم به ، فقد اخترع من
خياله قصة حاول بها أن يحط من كرامة ابن النفيس ، فادعى أن « ابن النفيس » دس لزميله ومعاصره الطبيب
« ابن أبى أصيبعة » حتى اضطره للهجرة من القاهرة ، ولذلك تعتمد ابن أبى أصيبعة أن لا يذكره فى كتابه
« عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » ، وقد ثبت أن ذلك كان من خيال مايرهوف ، وأن ابن أبى أصيبعة ذكر
لزميله « ابن النفيس » فى نسخة مخطوطة غير النسخة التى طبع منها الكتاب بكل احترام واجلال . راجع كتاب
« ابن النفيس لبول غليونجى » ص ٧٠ - ٧٤

(٢) شرح د. غليونجى ذلك شرحا وافيا فى المرجع السابق وبخاصة فى الباب الثامن ص ١٤١ - ١٦١

التراث الإسلامى ، ولما عاد إلى إيطاليا قام بتدريس العلوم العربية بصفة عامة ، وفلسفة «ابن سينا» بصفة خاصة فى جامعة «بادوا» وقام بترجمة وتصحيح ما ترجم من قبل من أعمال «ابن سينا» إلى اللاتينية^(١) ومن أهم ما ترجم من ذلك وقد نشر فى البندقية بعد وفاته :

١ - ترجمة مقالة «ابن سينا» فى النفس وتقاسيم الحكمة والعلوم ، ونشرت فى البندقية سنة ١٥٤٦^(٢) .

٢ - ترجم إلى اللاتينية كتاب «القانون لابن سينا» ونشر مطبوعات فى البندقية سنة ١٥٤٧ ، وتكرر طبع هذا الكتاب ونشره بعد أن أهملت ترجمة جيراردى تريونا لهذا الكتاب^(٣) وفى سنة ١٩٦٤ نشر hucpette ترجمة لحياة «الباغو» يقول الدكتور سامى حمارة إنه : «يبدولى من قراءة هذه الترجمة أن «الباغو» كان عارفا بكتابات وشروح ابن النفيس ومعجبا بها ، ولا شك أنه نقلها معه إلى إيطاليا ، وإلى نفس الجامعة التى تعلم فيها «وليم هارفى» قبل إعلانه المشهور عن الدورة الدموية سنة ١٦٢٢ م^(٤) .

ثانيا : بعد ست سنوات فقط من نشر الترجمة اللاتينية لكتاب «القانون لابن سينا» نشر «ميجيل سرفتوس» سنة ١٥٥٣ فى مجلة دينية

(١) اللغة اللاتينية هى اللغة التى ترجم إليها الكثير من الانتاج الفكرى الإسلامى مما كان سببا فى قيام النهضة الأوربية فى القرون الحديثة .

(٢) كتاب «المستشرقون» لتجيب العقيدى ، ج ١ ص ٣٠٦ .

(٣) المرجع السابق

(٤) تاريخ الصيدلة والطب العربى منذ نشأته حتى العصور الحديثة لسامى حمارة ، القاهرة ١٩٦٧ ، ج ٢ ص ١٤ .

عن وجود مجار للدم بين القلب والرئتين^(١) حيث ذكر أن
« الشريان الرئوى يحمل الدم من بطين القلب الأيمن إلى الرئتين :
والوريد الرئوى يحمله من الرئتين إلى أذين القلب الأيسر »^(٢).

ثالثا : فى سنة ١٥٤٠ عين «ريالدو كولومبو» أستاذًا للجراحة فى
جامعة بادوا^(٣) وهى نفس الجامعة التى كان يدرس فيها من قبل
«أندريا الباجو» ، ثم كلف بتدريس التشريح فى هذه الجامعة ،
وقام بعد ذلك بتدريس التشريح فى جامعة بيزا بإيطاليا
(١٥٤٦ م) ، وانتقل منها إلى روما ، ونشر مؤلفه فى
«التشريح» سنة ١٥٥٩ م ، أى بعد نشر ترجمة «الباجو»
اللاتينية لكتاب «القانون لابن سينا» بثنى عشر عاما ، وقد
وصف «كولومبو» فى كتابه ، وظيفة الصمامات وهى من دعائم
نظرية الدورة الدموية ، كما وصف الدورة الرئوية وصفا
صحيحاً^(٤) .

رابعا : فى سنة ١٥٩٧ رحل الطبيب الانجليزى هارفى *Harvey, W.* إلى
«جامعة بادوا» حيث ظل يتعلم الطب حتى سنة ١٦٠٢ ، فلما
عاد إلى انجلترا ألف كتابه عن حركة القلب والدم سنة ١٦٢٢ ،
وادعى فيه أنه اكتشف الدورة الدموية .

يتضح من دراسة هؤلاء الثلاثة ، وهم أهم من تكلم عن الدورة
الدموية الرئوية من ناحية أو أكثر ، يتضح أن هناك تسلسلا متصل
الحلقات بين قيام «ألباجو» بالتدريس عن «ابن سينا» بعد عودته من

(١) الموجز فى تاريخ الطب والصيدلة ، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، إدارة الثقافة ج ١ ص ٢٤٦ .

(٢) المرجع السابق ..

(٣) أنشئت حوالى سنة ١٢٢٢ . وكان بها كلية للطب والجراحة .

(٤) كتاب «ابن النفيس» د. بول غليونجى .

الشرق الأدنى في جامعة بادوا وتصحيحه لما ترجم قبله من مؤلفات ابن
سينا إلى اللغة اللاتينية ، ونشر ترجمة «ألباجو» لكتاب «القانون لابن
سينا» في عدة طبعات ابتداء من سنة ١٥٤٧ م بعد إهمال الترجمة السابقة
التي قام بها ؛ «جيرارد دي تريونا» ، وما ظهر حديثا من أن «ألباجو» كان
عارفا بكتابات وشرح ابن النفيس ومعجبا بها ، وهناك تسلسل متصل
الحلقات بين ذلك كله وبين اشتغال «ريالدو كولومبو» أستاذا للجراحة
في جامعة بادوا نفسها سنة ١٥٤٠ م ، ثم قيامه بتدريس التشريح فيها ، ثم
تأليفه بعد ذلك كتاب «التشريح» وذلك بعد صدور الطبعة الأولى من
ترجمة «الباجو» لكتاب القانون باثني عشر عاما : كما توجد صلة وثيقة
بين ارتباط الطبيب الإنجليزي «هارفي» ليتعلم في جامعة بادوا نفسها
حيث تلقى الطب على أيدي الطبقة الثانية أو الثالثة من تلاميذ كل من
«ألباجو» و «كولومبو» ، مما يدل دلالة قاطعة على أن كتابه عن «دراسة
لحركة القلب والدم» لم يكن ما جاء فيه من اكتشافه وحده ، ولكنه كان
مدينا لمن سبقه من هؤلاء وغيرهم ولأبحاثهم جميعا وعلى رأسهم المكتشف
الأول للدورة الدموية الرئوية «العلاء بن النفيس» في القرن السابع
الهجري = الثالث عشر الميلادي .

اكتشاف أن ابن النفيس عنى بشرح الدورة الدموية الرئوية في مخطوطة عن السيرة النبوية الشريفة

عنيت لجنة إحياء التراث بالمجلس الأعلى للشئون الإسلامية بتحقيق كتاب «موجز القانون لابن سينا» وبينما كنت أعد لكتابة تقديم لهذا التحقيق ، رأيت أن أطلع على قائمة بعناوين الموجود في دار الكتب بالقاهرة من مؤلفات «ابن النفيس» ، فوجدت من بينها مخطوطة عن السيرة النبوية الشريفة بعنوان : «الرسالة الكاملة في السيرة النبوية» فتاقت نفسي إلى الاطلاع على أسلوب «ابن النفيس» ومنهجه في كتابة السيرة النبوية وبخاصة لأنى أصدرت سنة ١٩٨٢ كتابا يؤرخ لفترة من حياة الرسول الكريم بعنوان «السيدة خديجة أم المؤمنين رضى الله عنها : نظرات في إشراق فجر الإسلام»^(١) وقد اتضح لى بعد البحث أن «ابن النفيس» تخيل في كتابه هذا أن إنسانا خلق في جزيرة منعزلة عن العالم ، وقد أطلق عليه اسم : «كامل» ، فلما شب هذا الإنسان أخذ يتعرف على البيئة التى حوله ثم شرع فى دراستها ، فأدرك عن طريق حواسه المختلفة ما فيها من مناظر وعناصر ، ثم عرف أعضاء جسمه الخارجية وخواص كل منها ومنافعها ، ثم تاقت نفسه إلى معرفة ما فى داخل البطن والصدر من الأعضاء عن طريق تشريح ما أمسك به من الطير والحيوان أو تشريح جثث الحيوان الذى لم يستطع اقتناصه ، فعرف المعدة ، والأمعاء ، والكبد

(١) نشرته الهيئة العامة للكتاب سنة ١٩٨٢ م = سنة ١٤٠٢ هـ

ووظيفة كل منها ، وكيف يؤدي كل واحد منها هذه الوظيفة ، ثم عرف القلب في الصدر وتكوينه من بُطَيْئَيْن ، وعرف الرئتين وكيف تعملان بالتعاون مع القلب ، وكيف يصل الهواء إليهما ، وكيف ينتقل منهما الدم إلى القلب ، ووصف ذلك كله بأسلوب هو السهل الممتنع ، وبدقة علمية ولكنها مبسطة تبسيطاً كبيراً بحيث يستطيع متوسط الثقافة فهمه بيسر ، فهو يتحدث عن الرئتين وعملهما مع القلب بانسجام في الدورة الدموية الرئوية بقوله :-

« وشاهد [كامل] القلب في الصدر ، وبطنه الأيمن مملوء بالدم ، وبطنه الأيسر مملوء من الروح ، وهذا البطن ينقبض فتنفذ تلك الروح في الشرايين إلى الأعضاء ، ثم ينبسط فترجع تلك الروح فيه وحيث جذب إليه الهواء من الرئة وهي تجذب الهواء من خارج ، فينفذ بها من الأنف والفم ماراً في الحنجرة وقصبه الرئة إلى تجاويف الرئة وذلك إذا انقبضت الرئة . وانقباضها وانبساطها بسبب تحريك الحجاب وعضلات الصدر لها ، وذلك بأن ينقبض لذلك الصدر وينبسط وبذلك يتم النفس والصوت فعلم أن هذه هي منافع هذه الأعضاء » (١)

وهكذا عرف « كامل » أجزاء جسمه الخارجية والداخلية ، كما عرف خواص كل منها .

(١) مقتبس من الفصل الأول من الفن الأول من « الرسالة الكاملة في السيرة النبوية »

المبحث الثاني

التعليق على

«الرسالة الكاملة في السيرة النبوية»

عنى الفلاسفة منذ القدم بالبحث فى العلاقة بين الفكر الفلسفى والدين ، وكان « أفلاطون » من أوائل الذين بذلوا فى هذا السبيل الكثير من الجهود ، وشغل هذا الموضوع تفكير الكثيرين من الفلاسفة المسلمين ، فقد بذل الكندى [ت ٢٥٦ هـ] والفارابى [ت ٣٣٩ هـ] و « ابن سينا » [ت ٣٧٠ هـ = ٩٨٠ م] وابن طفيل [ت ٥٨١ هـ = ١١٨٥ م] جهودا عظيمة فى هذا السبيل ، وكان لكل منهم تفكيره ومنهجه ، والكلام عن جهود أى واحد منهم يحتاج إلى دراسات عميقة وطويلة ، وإلى ميادين أرحب من ميداننا الذى نحن بصدده ، إذ الحديث فى هذا البحث مقصور على تصدى ابن النفيس [ت ٦٨٧ هـ] . لمعارضة بعض الآراء الفلسفية والأفكار التصوفية التى كتبها الرئيس ابن سينا فى رسالته الصغيرة التى أسماها « حى بن يقظان » ، وكان الغرض من هذه المعارضة هو الدفاع عن تعاليم الإسلام بصفة عامة ، وعن النبوة ، والوحى وعن مسألة الحشر والنشور وحدث العالم بصفة خاصة ؛ وقد ضمّن ابن النفيس هذا الدفاع فى رسالة صغيرة موجزة بعنوان : « الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية » .

كتب الرئيس ابن سينا رسالة قصيرة بعنوان « حى بن يقظان » وهو سجين فى القلعة بالقرب من همدان بأمر « تاج الملك »^(١) وقد سلك الشيخ فى كتابتها منهجا جديدا لم يسبقه إليه أحد من الفلاسفة المسلمين ، إذا اتخذ المنهاج القصصى وسيلة للتعبير عن بعض أرائه الفلسفية ، وعن تفكيره فى التصوف ؛ وقد اتبع فى كتابتها أسلوب الرمز^(٢) ، وأغرق

(١) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ص ٢

(٢) نشرت هذه الرسالة فى مصر عدة مرات كان من بينها كتاب أحمد أمين بعنوان : حى بن يقظان لابن سينا وابن طفيل والسهورردى ، القاهرة ، دار المعارف .

فى ذلك حتى أصبح حل رموزها وإدراك معانيها الفلسفية عسيراً على تلاميذه أنفسهم ، فطلبوا منه أن يشرحها لهم ، وما زالوا به حتى استجاب لهم قائلاً : « إن إصراركم معشر إخوانى على اقتضائى شرح قصة حى بن يقظان هزم لجأجى فى الامتناع ، وحل عقدة عزمى فى الماطلة والدفاع ، فانقدت لمساعدتكم وبالله التوفيق (١) .

وقد رأينا أن نقتبس من مقدمة هذا التمهيد فقرة قصيرة كمثال نضربه للغموض والرمز والتعمق الذى التزمه الرئيس ابن سينا عند كتابته لهذه القصة القصيرة ، وسنضع المتن بين قوسين ثم نتبعه بشرح الشيخ لهذا المتن (٢) .

«إنه قد تيسرت لى حين مقامى ببلادى برزة برفقائى إلى بعض المنتزهات المكتنفة لتلك البقعة» .

جاء فى الشرح : قوله (تيسرت) : دليل على أن الأمور كلها متعلقة بتيسير الله تعالى إياها ، وأنه ما لم يتيسر من الجنة العالية شىء لم يخرج إلى الوجود . وقوله : (حين مقامى ببلادى) : أى وقت إقامتى ، وبلاده بدنه وأعضاؤه التى هى محل قواه ، ودل بذلك على الوقت الذى كان فيه مباشراً لأحوال البدن ، مقتصرًا عليه لم ينبعث فيه إلى ملاحظة الأمور العقلية . وقوله : (برزة) أى نهضة وانبعث نحو ما يذكره . وقوله : (برفقائى) : يريد بهم قواه التى هى له فى البدن ، وأراد ههنا ما يحتاج إلى الاستعانة به من جملة خاصة فيما هو بصدد ذلك كالتخييل والوهم وما قبلهما من القوى المدركة من الحواس الظاهرة والحس

(١) مقدمة الشرح وهو من تحقيق الأستاذ : «محمد صغير حسن المعصومى» الأستاذ بقسم العلوم العربية والإسلامية ؛ نشر بمجلة المجمع العلمى بدمشق .

(٢) مجلة المجمع العلمى بدمشق ص ٤١٦

المشترك . وقوله : (والمنتزهات) هى الأمور البعيدة عن الأحوال التى كانت فيها من قبل ، وهى مع ذلك تستلذ تأملها والنظر إليها وفيها ، وهى من المتعلقات . وقوله : (المكتنفة لتلك البقعة) أراد قربها مع ذلك لقوة العقل ومتاخمتها إياها إذ المتعلقات مكتنفة بوجه بقوة .

وقد حظيت رسالة « حى بن يقظان » هذه بعناية الفلاسفة المسلمين ، فأقبلوا على دراستها ، وكتب لها بعضهم شرحا مثل : « ابن زبلة » تلميذ الشيخ الرئيس الذى كتب لها شرحين أحدهما مختصر والثانى مبسوط ، وأعجب بها بعض الفلاسفة المتصوفين مثل : « أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل » (ت ٥٨١ هـ = ١١٨٥ م) فكتب هو الآخر قصة أطول من قصة الرئيس ابن سينا بعنوان « حى بن يقظان » وهى قصة أدبية رائعة بأسلوب ومنهج آخر يختلفان عن منهج الشيخ الرئيسى وأسلوبه وقد ذاع صيتها بين المسلمين والفرنجة ولقيت إقبالا عظيما من حيث أنها تحوى جميع مقومات القصة المكتملة ، وأنها تُعنى بشرح الكثير من الآراء الفلسفية والأفكار الصوفية ، ولأنه كتبها بأسلوب يقل فيه الرمز واللجوء إلى تعمق المتصوفين والفلاسفة وحبهم للأسلوب الغامض .

وكذلك أقبل شهاب الدين يحيى بن حبش المعروف بالسهروردي المقتول ، وهو من زعماء المتصوفين الإشراقيين [ت ٥٨٧ هـ] ، أقبل على كتابة رسالة قصيرة بعنوان « قصة الغريبة الغريبة » قال أنه كتبها بعد الاطلاع على « حى بن يقظان » للشيخ الرئيس ، وقد شرح السهروردي فى رسالته بأسلوب غامض أشد الغموض أسرف فيه بالاستعانة بالرمز حتى فاق فى ذلك غموض أسلوب الشيخ الرئيس وإسرافه فى

ستعمال الرمز ، وقد تغالى فى بيان رأيه فى نظرية الإشراق حتى كاد أن يصل إلى ما وصل إليه «الحلاج» من قبل وهو القول بنظرية الحلول وإن العالم والله شيء واحد ، تلك النظرية^(١) التى كانت سبباً فى إفتاء فقهاء المسلمين بقتله كما قتل الحلاج من قبل .

(١) سبحانه الله عما يصفون

معارضة ابن النفيس قصة «حى بن يقظان» للشيخ الرئيس «على بن سينا»^(١)

خرج راوية هذه القصة إلى أحد المتنزهات القريبة في برزة في نفر من رفاقه ، فقابلوا هناك شيخا وقورا ، يرمز به ابن سينا إلى العقل الإنسانى ، فأخذوا يحاورونه ، ويوجهون إليه أسئلتهم ، والسؤال في عرف الفلاسفة هو الطريق الموصل إلى العلم ، واستمروا في جداله محاولين : « معرفة كنه حقيقته الذاتية »^(٢) فأجابهم : إنه مشغوف بزيارة الأقاليم ، وتطواف الأرضين لتحصيل العلم ، ووجهه إلى أبيه الذى هو حى ، وسبحان الحى ، الذى لا يموت^(٣) وهذا السؤال وذلك الجدل الذى دار بينه وبين هؤلاء الرفاق إنما يرمز به ابن سينا إلى الصراع والجدال الذى يدور عادة بين عقل الإنسان وغرائزه وشهواته التى رُكبت فيه ؛ وقد استمرت تلك المحاورة الرمزية حتى انتهى ذلك الشيخ إلى شرح بعض آراء ابن سينا وتعاليمه الفلسفية ودراساته في التصوف .

ولا يتسع المجال فى بحثنا هذا لمناقشة الآراء الفلسفية والتصوفية التى نادى بها الرئيس بن سينا فى قصة «حى بن يقظان» فمجال البحث عندنا محدود بمناقشة أهم الآراء الفلسفية والتصوفية التى عارضها الفقيه المتطبيب ابن النفيس فى « الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية » .

وخلاصة تعاليم الرئيس ابن سينا فى قصة «حى بن يقظان» هى ما يمكن أن نطلق عليه شرح « فلسفته الصوفية » ، وأهم ما جاء بها أنها تقوم على مبدأين :

(١) يلاحظ ما سبق اقتباسه من شرح ابن سينا ص ٧٦ .

(٢) مقتبس من شرح ابن سينا .

(٣) المرجع السابق . .

المبدأ الأول : هو إيمانه بنظرية المعرفة الإشرافية التي تقرر أن العقل الإنساني يستطيع أن يصل وحده إلى حضرة الحق سبحانه ، لأنه موهبة من الله ، الذى أفاضها على الأرواح الإنسانية ، ولذلك فإن العقل البشرى يستطيع وحده أن يصل إلى ما دعا إليه الأنبياء والمرسلون ، فهو يستطيع أن يصل إلى معرفة الله سبحانه وما يتصف به من الكمال . فهل يستطيع العقل الإنساني أن يصل وحده إلى ذلك كله ؟ وهل العقل هو المصدر الوحيد الذى يؤدى إلى معرفة الله سبحانه ؟

وإذا كان الرئيس « ابن سينا » يرمز بذلك إلى القول أن الأنبياء هم فريق من عباقرة المفكرين الذين توصلوا إلى ما يدعون إليه عن طريق العلم الذى أوصلهم إليه العقل ، ألا يهدم نظريته تلك أن خاتم الأنبياء محمدا صلى الله عليه وسلم نشأ أميا بين شعب أمى لم يتعلم منهم القراءة والكتابة إلا نفر قليل ، ولم تكن لديهم مثل ما كان لدى جيرانهم من الفرس والروم مدارس ولا معاهد يتلقون فيها العلم ، ولم تنشأ فى بلادهم علوم فلسفية أو اجتماعية ، ولم يكن بينهم من يدعى العلم بشيء من ذلك ، ولم تكن عندهم كتب يدرسونها مثل ما كان موجودا عند اليهود والنصارى ؛ كما أنه صلى الله عليه وسلم لبث بين قومه الأميين أربعين عاما قبل أن تأتبه النبوة لم تتح له فيها فرصة للدراسة العلمية أو الفلسفية ، وصدق الله العظيم الذى وصفه بقوله : ﴿ وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَأَزْتَابُ الْمُبْطِلُونَ ﴾ ^(١) كما بين الله حقيقة النبوة بقوله : ﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِلَيْكَ لَنَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ ﴾ ^(٢) .

(٢) الشورى ٥٢ - ٥٣

(١) العنكبوت ٤٨

وكذلك ألا يؤكد فساد تلك النظرية التي قال بها الرئيس «ابن سينا» وغيره من الفلاسفة أن محمداً المصطفى صلى الله عليه وسلم لم يكن داعية إلى أفكار أو نظريات استنبطها ، ولا إلى حقائق وصل إليها عن طريق التفكير العقلي ، ولا إلى خبرة اكتسبها عن طريق السياحة والتجربة ؛ ولكنه كان يدعو إلى تعاليم سامية أنزلت إليه في كتاب من رب العالمين ، وأمر أن يتبعها وأن يبلغها للناس كافة ، فكان رسولا شاهداً ومبشراً ونذيراً بما جاء في هذا الكتاب : ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَزَكَاةً وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ (١) . وقد أبلغ أن هذا الكتاب الذي أنزل إليه كتاب مقدس لا يجوز له ولا لغيره أن يُبدل ما أنزل الله فيه : ﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أُتِيعَ إِلَّا مَا يُوْحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمَ عَظِيمٍ﴾ (٢) وذلك لأنه : ﴿لَا تُبْدِلْ لِكَلِمَةٍ اللَّهُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (٣) .

كانت هذه النظرية التي قال بها «الرئيس ابن سينا» مما عارضه الفقيه المتطبيب «ابن النفيس» .

المبدأ الثاني : هو النظرية «الصوفية الفلسفية» التي قال بها «الرئيس ابن سينا» في قصة «حَيَّ بن يقظان» ومفادها أن العقل إذا سيطر على الشهوات والغرائز والملكات الانسانية الأخرى ، فالزم الانسان أن يتوغل في الرياضة الروحية ومجاهدة النفس ، استطاع (العقل) وحده أن يرى المعارف ، واستطاع الكشف عن معميات ما وراء الطبيعة ، وتجلت على نفسه المعاني التي تشرق عليها ، وذلك على أساس القول بنظرية

(١) آل عمران ١٦٤

(٢) يونس ١٥

(٣) يونس ٦٤

الاتصال بين النفس والعقل الفعّال ، وهو آخر العقول العشرة الذى ينتهى عنده الفيض .

وهذا «التصوف الفلسفى» المبنى على إيمان «الرئيس ابن سينا» بنظرية الفيض ، لم ينسهِ إيمانه الراسخ بنظرية المعرفة الاشراقية التى آمن بها ، واعتنقها مثله الكثيرون من الفلاسفة ، وذلك لأنه لم يكن فى مقدور «الرئيس ابن سينا» أن ينسى أنه فيلسوف لحما ودما ، وأن صفته الفلسفية تلازمه بحيث تطفئ على أية صفة أخرى حتى ولو كانت تلك الصفة تصوفية^(١) .

وقد نتج عن مزج هاتين النظريتين عند «الرئيس ابن سينا» أن قال إن النبوة والولاية كلاهما مرتبتان يمكن أن يصل إليهما ويكتسبهما من يستطيع أن يطوّر نفسه عن طريق المجاهدة والرياضة الروحية حتى يرتقى بها إلى أفق الملائكة ؛ وكان «الرئيس ابن سينا» يرمز بذلك إلى أن أية مرتبة من هاتين المرتبتين ليست اختيارا ولا اصطفاء من الله كما تقرر الأديان السماوية ، وكما عبر عنها القرآن الكريم بقوله : ﴿اللَّهُ صَاطِفِي مِّنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾^(٢) ويرسلهم إلى من يشاء من عباده مبشرين ومنذرين .

وقد عارض ابن النفيس هذه النظرية إيمانا بالله وبرسله وبمحمد المصطفى خاتم الأنبياء والمرسلين .

وقد قاد هذا «التصوف الفلسفى» الرئيس ابن سينا إلى القول بأن الوحي ضرب من ضروب التخيل ، وأهم هذه الضروب عنده ثلاثة :

(١) عبد الحليم محمود : فلسفة ابن طفيل وقصة حى بن يقظان
(٢) الحج ٧٥

- ١ - التخيل الطبيعي كما هو الحال عند الأنبياء والأولياء .
- ٢ - التخيل المرضي كما هو الحال عند المجانين وغيرهم من المرضى كالمصروعين .
- ٣ - التخيل الصناعي كما هو الحال عند الكُهان .

وبذلك يكون هذا «التصوف الفلسفي» عند الشيخ الرئيس ابن سينا قد جعله يساوي بين الأنبياء والأولياء والمجانين والمصروعين والمرضى والكهان وذلك في المصدر الذي يستقون منه العلم بما يدعون إليه أو بما يقول به كل فريق منهم ، وهذا هو بعض ما عارضه ابن النفيس .

وقد كفانا الله سبحانه مثونة الرد على هذا الاغراق في «التصوف الفلسفي» فأنزل في محكم التنزيل أن الأمم البائدة سبق أن قالت بمثل هذا القول ، قال تعالى : ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ﴾^(١) وكذلك كذبت شعوب أخرى الأنبياء الذين أرسلوا هدايتهم : ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مُجْنُونٌ﴾^(٢) ، وأوحى الله الى محمد المصطفى بقوله : ﴿فَدَكَّرَ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾^(٣) ، ونفى الله عن خاتم الأنبياء سبب الجنون التي ادعاها المشركون في عدة آيات من القرآن الكريم : ﴿أَوْ لَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾^(٤) وقال تعالى : ﴿مَا بِصَاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَكُمْ﴾^(٥) وبين في عدة آيات مباركات : ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾^(٦) قال

(٢) الذاريات ٥٢
(٤) الاعراف ١٨٤
(٦) الشعراء ١٩٢ - ١٩٤

(١) القمر ٩
(٣) الطور ٢٩
(٥) سبأ ٤٦

تعالى يصف الوحى الذى أرسله للأنبياء : ﴿يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ تُبَيِّنُوا لَهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ﴾ (١) . وقال تعالى يصف تأييده لعيسى بن مريم عليه السلام : ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ﴾ (٢) .

* * *

وقد ذهب الشيخ «الرئيس ابن سينا» وبعض الفلاسفة الآخرين إلى أن الحياة الآخرة لا تكون يبعث الأبدان حيث يجد المحسنون الثواب نعيما مقيما في جنات تجري من تحتهم الأنهار ، ولا تكون بحيث يجد الكفار والمنافقون عذابا مقيما في نار جهنم ، فقد ذهبوا إلى استحالة بعث الأجساد التى بليت وعدمت ، وقادتهم عقولهم إلى القول أن البعث لا يكون إلا روحانيا ، وقد ورد ذكر الجزاء في الدار الآخرة في كثير من الآيات القرآنية الكريمة مثل قوله تعالى : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَارًا كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا . وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾ (٣) .

ومن قبل هؤلاء الفلاسفة لم تستطع عقول مشركى قريش ، أن تصور لهم كيف يبعث الله من فى القبور بعد أن بليت أجسامهم

(١) النحل ٢

(٢) البقرة ٢٥٣ .

(٣) النساء ٥٦ - ٥٧

وعظامهم ، ولم يطق «أبي بن كعب» ، وهو أحد ساداتهم ، على ذلك صبرا ، فذهب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد أمسك بيده قطعة هشة من العظام البالية ، وأشار إليه وهو يقول «يا محمد ، أنت تزعم أن الله يبعث هذا بعد ما أرم؟» ثم فرك العظم بين أصابعه فتفتت وأصبح رمادا فنفخه في الريح نحو رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له الرسول الكريم في ثقة وإيمان : «نعم . أنا أقول ذلك ، يبعثه الله وإياك بعد ما تكونان هكذا ، ثم يدخلك النار»^(١) . وقد أشار الله سبحانه إلى هذا الجدل بقوله : ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ . وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظْمَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُخَبِّئُهَا الَّذِينَ أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ . أَلَيْدَى جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ . أَوَلَيْسَ الَّذِينَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَدِيرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ - إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ . فَسُبْحَنَ الَّذِينَ بِيَدِهِ - مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(٢) .

وقد استعان الشيخ «محمود شلتوت» في بيان آراء هذه الطائفة من الفلاسفة برأى ابن تيمية فقال^(٣) : حكى «ابن تيمية» أن من جماعة الفلاسفة فرقة جعلت ما رآته بعقولها أصلاً لما جاءت به الأنبياء ، فما وافق قانونهم هذا قبلوه ، وما خالفه رفضوه ، قال [ابن تيمية]^(٤) : «ومنهم أهل الوهم والتخيل الذين يقولون إن الأنبياء أخبروا عن الله واليوم الآخر ، وعن الجنة والنار والملائكة بأمور غير مطابقة للأمر في نفسه ؛

(١) الاقتباس من كتابنا «خديجة أم المؤمنين : نظرات في إشراق فجر الإسلام» ، الطبعة الأولى ص ٢٣٣ .

(٢) يس ٧٧ - ٨٣ .

(٣) كتاب «تفسير القرآن الكريم» تأليف الشيخ محمود شلتوت ص ٤٦ - ٤٧ .

(٤) أول كتاب «بيان موافقة صريح العقول الصحيح المقول» تأليف ابن تيمية .

لكنهم خاطبوهم بما يتخيلون ويتوهمون^(١) من أن الأبدان تعاد ، وأن لهم نعيما محسوسا وعقابا محسوسا ، وإن كان الأمر ليس كذلك في نفس الأمر ، لأن من مصلحة الجمهور أن يخاطبوا بما يتوهمون ويتخيلون من أن الأمر هكذا^(٢) ، وإن كان هذا كذبا فهو كذب لمصلحة الجمهور ، إذا كانت دعوتهم ومصلحتهم لا تمكن إلا بهذه الطريقة .

وهكذا فإن هذه الجماعة من الفلاسفة لم تكتف بإنكار أن الأبدان يحياها الله في الآخرة كما أخبر الله بذلك ، ولكنهم رموا الأنبياء بالكذب والاحتيال على جمهور الشعب ، ثم التمسوا للأنبياء عذرا بأنهم أرادوا أن يرشدوا الجمهور إلى ما فيه مصلحتهم وخيرهم ؛ ولذلك فقد عارض «ابن النفيس» هذه الآراء دفاعا عن العقيدة الإسلامية الصحيحة ، مبينا أن الناس في حاجة ماسة إلى النبي الذي يقوم بتبليغهم شرع الله عز وجل وأركان العقيدة ، كما يعرفهم بجلال الله تعالى وبسائر صفاته ، ويعرفهم حال المعاد وما هو معد لهم في الدار الآخرة من السعادة والشقاوة^(٣) مؤمنا بقوله سبحانه : ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُوا وَجُوهَكُمْ قَبْلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾^(٤) وكذلك قوله تعالى : ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَلَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَلَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَأَنَّ السَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ﴾^(٥) .

(١) أي أن الأنبياء خاطبوا جمهور الشعب بوزنوا لهم أشياء غير صحيحة توهمها الجمهور وتخيلوا وجودها مثل الاعتقاد بأن الأبدان تعاد في الآخرة حيث تجد نعيما محسوسا أو عقابا محسوسا ، ولكن الحقيقة كما يراها هذا الفريق من الفلاسفة ليست كذلك .

(٢) الفصل الثالث من الفن الأول من الرسالة الكاملة في السيرة النبوية، ص ١١١ - ١١٥

(٣) البقرة ١٧٧

(٤) الحج ٦ - ٧

« بحث مقارن بين «حى بن يقظان لابن طفيل» و «الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية لابن النفيس»

هناك تشابه كبير بين بداية قصة «حى بن يقظان» للفيلسوف الأندلسى المتصوف ابن طفيل ، وبداية «الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية» للفيقيه المتطبيب ابن النفيس ، فقد تولد كل من بطلى هذين الكتابين : «حى» و «كامل» تولداً ذاتياً بالنشوء الطبيعى^(١) فى جزيرة منعزلة عن الناس ، وكان التولد من طين من مختلف العناصر والطبائع الترابية ، وقد تخمر هذا الطين فأصبح خائراً قابلاً لأن تتكون منه أجزاء تشبه أجزاء جسم الإنسان : «فلذلك كانت هذه الأجزاء مستعدة لأن يتكون منها أعضاء إنسان ، والله تعالى لكرمه لا يمنع مستحقاً مستحقه ، ويعطى كل مستعد ما يستعد له»^(٢) وانتهت هذه المرحلة من الخلق : «فتعلق به عند ذلك (الروح) الذى هو من أمر الله تعالى ، وتشبث به تشبثاً يعسر انفصاله عنه عند الحس وعند العقل»^(٣) .

وخلق آدم أبى البشرية من طين قالت به الرسالات السماوية الثلاثة : اليهودية ، والمسيحية والإسلام : ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَكَةِ إِنِّى خَلِّقُ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ . فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُّوحِى فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾^(٤) ولذلك فإن خلق «حى بن يقظان» عند «ابن طفيل»

(١) فرض ابن طفيل أن «حى بن يقظان» إما أن يكون قد تولد بصفة طبيعية من أب وأم ، وأن أمه القت به فى اليم خوفاً من أخيها لأنها تزوجت سراً بغير إذنه ، فجرفه التيار إلى جزيرة منعزلة ، إما أن يكون ، كما شرحنا ، قد تولد تولداً ذاتياً من طين خائر .

(٢) الرسالة الكاملية : الفصل الأول من الفن الأول .

(٣) حى بن يقظان : بداية القصة .

(٤) سورة (ص) ٧١ - ٧٢ .

ونشأة «كامل» عند «ابن النفيس» ما هو إلا تصوير أدنى فنى يجمع بين عقيدة دينية سماوية وبين ما يتطلبه الابداع الفنى الأدنى عند تصوير كل منهما للقصة ، وإن كان «حى بن يقظان» من الناحية الفنية الأدبية أكثر لباقة وأحسن أسلوباً. وأدق فى الحبكة القصصية وذلك لأن الغرض من تأليف القصتين مختلف ، فقد كان «ابن طفيل» حريصاً على أن يذكر فى قصته الكثير مما كان معروفاً فى زمانه من الأفكار الفلسفية والتصوفية وغير ذلك من العلوم ، وأنثى يعنى فيها يبحث ما وراء الطبيعة وما كان يدور حولها من آراء ونظريات فلسفية ، وأنه مزج ذلك ببعض آراء الصوفية ؛ أما «الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية» التى كتبها «ابن النفيس» فقد كان الغرض من تأليفها كما نقل المؤرخ الكبير الصفدى : «الانتصار لمذهب أهل الإسلام وآرائهم فى النبوات والشرائع والبعث الجسماني وخراب العالم وذلك بمعارضته لقصة حى بن يقظان التى ألفها الشيخ الرئيس بن سينا ولعمري لقد أبدع فيه ودل ذلك على قدرته وصحة ذهنه وتمكنه من العلوم العقلية»^(١) .

ويعتمد كل من «ابن طفيل» و «ابن النفيس» فى مبدأ قصتهما على سرد الأفكار وتحليلها تحليلًا منطقيًا ، ولما كان البطلان «حى» و «كامل» قد شبأ فى جزيرة مهجورة منعزلين عن الإنسان الذى يستطيع أن يعلمهما وأن يرعاهما ، لذلك كان عليهما أن يتعلما من البيئة التى عاشا فيها بواسطة الحواس التى أودعها الله فى كليهما ، فقد شاهد كل منهما : «الفضاء والضوء ، وأشجار تلك الجزيرة ، وسمع أصوات الطيور وخرير ماء البحر والأنهار ، وحفيف الرياح ، وشم روائح الزهور والنبات ، وأكل من الثمار التى تساقطت من الأشجار فأحس بطعومها ، وأدرك حرّ الهواء

(١) اقتباس من ترجمة ابن النفيس فى مسالك الأبصار للعمري .

وبرده ، فكثير تعجبه من ذلك ، وصار إذا غمض عينيه تغيب عنه المرئيات ، وإذا فتحها أدركها ، وكذلك إذا سدَّ أذنيه بإصبعه غابت عنه الأصوات ، وإذا فتحها أدركها ، وإذا حصلت الطعوم من فيه أدرك طعومها ، وإذا أبعداها من فيه لم يدرك ذلك ، وكذلك اعتبر الأنف في الروائح ، وملاقة الملموسات للبشرة في اللمس ، وتكرر له ذلك فعلم أن هذه الأعضاء هي آلات لهذه الإدراكات ، وأن هذه الإدراكات هي منافع هذه الأعضاء^(١) ، وهكذا تعرف « كامل » على بداية الطريق الذى يوصله إلى العلوم ، كما تعرف مثله « حنّ بن طفيل » على بداية الطريق الذى سلكه للوصول إلى المعرفة ، فقد اعتمد الإثنان على الملاحظة أو المراقبة ، والمحاكاة أو التقليد ، وعلى التجربة التى دعت إليها الحاجة وما نتج عنها من اكتشافات ، ودفعتهما الحاجة إلى التفكير فاستعان كلاهما بالحدس وبالمقارنة وبالقياس ثم بالاستنتاج ، ولذلك فإن المعرفة فى هذه المرحلة كانت مكتسبة وليست مخلوقة ، فتعلما فيها الكثير عن النبات والحيوان^(٢) .

ثم اهتديا إلى استعمال الآلات الحادة الصلبة من الحجارة أو العظام ، وتعلما تشريح الحيوان فعلما أعضاء جسم الحيوان الداخلية ووظيفة كل منها ، وعلما بطريق الحدس والتخمين أنه يوجد عند كل منهما أعضاء مثلها .

وكانت القصتان فى هذه المرحلة متأثرتين بقوله سبحانه إنه هو ﴿ الَّذِى أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ . ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سَائِلَةٍ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ . ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ - وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾^(٣) .

(١) الرسالة الكاملية : الفصل الثانى من الفن الأول .

(٢) لم يكن فى جزيرة حنّ بن يقطان لابن طفيل حيوان مفترس .

(٣) السجدة ٧ - ٩ .

تم بقوله سبحانه : ﴿لَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ (١) .

وكانت المرحلة الثانية في القصتين أن انتقل البطلان «حى بن يقظان» و«كامل» إلى «تأمل أحوال الأجسام العلوية كالمنظر والبرد والثلج ، وإلى تفكر في الرعد والبرق ونحوهما ، ثم انتقلا بعد ذلك إلى الأجسام السماوية وشاهدا حركاتها ونظام بعضها مع بعض ودورانها» (٢) .

وكان كل واحد منهما «قد تعدى مدة الحلم ، وقوى عقله ، وجاد فكره ، ففكر في أن هذه الموجودات هل هي مع اتقان وجودها وإحكامه موجودة بذواتها أو بموجد آخر ؟ وإذا كانت لموجد آخر فما ذلك الموجد ؟ وكيف حاله ؟ فتشوف إلى معرفة ذلك» (٣) .

وقد انتهى تفكير كل واحد منهما في عزلته إلى أنه : «لا بد وأن يكون لهذه الموجودات موجد هو واجب الوجود ، وذلك هو الله سبحانه وتعالى ، ولا بد أن يكون عالما بكل شيء ، وإلا لم يكن فعله متقنا ، ولا بد وأن يكون في غاية الاعتناء بكل شيء ، وإلا لم يجب أن يكون كل شيء على أفضل الأحوال الممكنة له ، فظهر لكامل إذا أن لهذه الموجودات موجدا واجب الوجود ، عالما بكل شيء ، ومعنيا بكل شيء» (٤) .

وإلى هذه المرحلة من مراحل نمو «حى بن يقظان» عند «ابن طفيل» ، والمدعو «كامل» عند «ابن النفيس» كان منهج البطلين في

(١) البلد ٩ .

(٢) الرسالة الكاملية ، الفصل الثاني من الفن الأول مع تصرف يناسب المعنى .

(٣) المرجع السابق .

(٤) آخر الفصل الثاني من الفن الأول من الرسالة الكاملية .

اكتساب المعرفة واحدا ، مع اختلاف في أسلوب التفكير ، وفي الحوادث التي مرت بكل واحد منهما ، وفي أنواع التجارب وعمق الملاحظة ، ولكن كان من الواضح ان المؤلفين قررا أن الوصول إلى المعرفة يكون أولا عن طريق الحواس التي وهبها الله للإنسان ، ثم عن طريق التفكير واستعمال العقل الناضج بوصف أن العقل هو إحدى القوى التي وهبها الله للإنسان ، وأن البطلين وصلا عن هذين الطريقين إلى معرفة الله سبحانه ، ومعرفة صفاته ، ولا شك أن ذلك يذكرنا بما قصه الله علينا من كيفية وصول ابراهيم إلى الانبياء إلى معرفة الله الواحد الأحد خالق كل شيء ؛ ولكن حدث بعد ذلك أن سلك كل مؤلف منهما طريقه الخاص لإتمام قصته .

أما « ابن النفيس » فقد كان بجوار دراسته للطب ونبوغه فيه فقيها على المذهب الشافعي ، وكان يشار إليه في علوم الدين وبخاصة في الفقه والأصول والحديث ، وكان يجلس لتدريس الفقه الشافعي في المدرسة المسروية كما كان أستاذا في الطب ، وكان يجيد العربية والنحو والمنطق^(١) ، ولذلك نراه يسلك في إتمام قصته مسلك الفقهاء المتبحرين ، فما إن وصل إلى معرفة أن الوجود لا بد وأن يكون له خالق عظيم حتى أراد أن يعلم ما حق هذا الخالق على عباده ؟ وهل هو سبحانه مما ينبغي أن يعبد وأن يطاع ؟ وما الطريق إلى تعرف العبادة اللائقة بجلاله ؟ وبقي يفكر في ذلك مدة^(٢) .

وأرادت العناية الالهية بع خيرا ، فألقت الريح بسفينة للتجار على الجزيرة التي يسكنها « كامل » ، وهناك أقاموا فترة ليصلحوا سفينتهم ، فعرفوا « بكامل » : « وأطعموه من طعامهم ، وألبسوه من لباسهم »

(١) طبقات الشافعية الكبرى للسبكي ، وشذرات الذهب لابن العماد .

(٢) أول الفصل الثالث من الفن الأول من الرسالة الكاملة .

وعلموه اللغة ، وحملوه معهم عند العودة إلى بلدهم حيث عاش بينهم ، فعلم إن الإنسان لأجل فقدانه السلاح الطبيعي ، واحتياجه إلى غذاء صناعي ، وملبس صناعي ليست تجود عيشته إذا انفرد بنفسه ، بل لابد أن يكون الإنسان مدنيا حتى يكون مع جماعة يكون لبعضهم أن يزرع ، وللآخر أن يحرق ، وللآخر أن يخبز ، وللآخر أن ينقل المادة ، وللآخر أن يخطط الثوب ونحو ذلك .

وهكذا يكون « ابن النفيس » قد توصل في « الرسالة الكاملية » إلى أهم المبادئ التي يقوم عليها علم الاجتماع وذلك قبل مولد « ابن خلدون » بأكثر من أربعين عاما^(١) . وقد زار ابن خلدون مصر والشام وعاصر الذهبي والصفدي وابن فضل الله العمرى الذين كتبوا عن ابن النفيس ومؤلفاته .

والإنسان يحتاج في جودة معيشته إلى وقوع معاملة كبيع وإجارة ونحوهما ، وهذه المعاملة تؤدي إلى المنازعة ، فلا بد وأن يكون بينهم شرع محفوظ تنقطع به المنازعة ، وإنما يمكن أن يكون ذلك الشرع مما يتلقى بالطاعة والقبول ، وإنما يكون ذلك إذا كان وروده من شخص يصدقه الناس في إخباره أنه من الله تعالى : ولا بد وأن يكون هذا الشخص ذا معجز يشعر الإنسان معه أن ما جاء به ليس بزور ولا باطل بل هو حق من عند الله تعالى^(٢) وبهذا التفكير المنطقي وصل كامل إلى معرفة أمر النبوات .

أما ابن طفيل فكان فيلسوفا متطبيا ، ولكنه كان بطبعه متصوفا ، وكان بجانب إمامه بكثير من علوم عصره مثل الفلك أدباً ممتازاً

(١) توفي ابن النفيس سنة ٦٨٧ هـ وولد ابن خلدون مؤسس علم الاجتماع سنة ٧٣٢ هـ وانظر الرسالة الكاملية : الفصل الثالث من الفن الأول .

(٢) نفس المرجع .

واسع الاطلاع ، وشاعراً رقيقاً ، ولذلك نراه قد طوع اللغة لأفكاره فأدى المعنى الذى فى نفسه فى دقة كاملة ، وبأسلوب بارع^(١) هو السهل الممتنع ، وقد غلب عليه تصوفه ، ولذلك نرى أن « حى بن يقظان » عندما عرف الله بهرته صفات كماله فهو « الموجود المحض الواجب الوجود بذاته ، المعطى لكل ذى وجود وجوده ، فلا وجود إلا هو : فهو الوجود ، وهو الكمال ، وهو التمام ، وهو الحسن ، وهو البهاء ، وهو القدرة ، وهو العلم ، وهو هو »^(٢) ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾^(٣) .

★ ★ ★

لقد قاد التصوف « ابن طفيل » إلى أن جعل الحّد الذى وصل إليه « حى بن يقظان » فى طلب المعرفة هو الإيمان بنظرية الفيض والوصول إلى مقام أولى الصدق ، فقد تبين له : « أن كمال ذاته ولذتها إنما هو بمشاهدة ذلك الموجود الواجب الوجود على الدوام ، مشاهدة بالفعل أبداً ، حتى لا يعرض عنه طرفة عين لكى توافيه منيته وهو فى حال المشاهدة بالفعل ، فتتصل لذته دون أن يتخللها ألم ، وإليه أشار الجنيد ، شيخ الصوفية وإمامهم عند موته بقوله لأصحابه : هذا وقت يؤخذ منه : الله أكبر ، وأحرم للصلاة^(٤) .

وهكذا فإنه بعد الرياضة ومجاهدة النفس ، والاستغراق المحض ، والفناء التام فإن « حى بن يقظان » : « شاهد ما لا عين رأت ، ولا أذن

(١) فلسفة ابن طفيل لعبد الحليم محمود ص ١٤ .

(٢) المرجع السابق ص ١٥٦ .

(٣) القصص ٨٨ .

(٤) متن قصة حى بن يقظان : راجع كتاب فلسفة ابن طفيل لعبد الحليم محمود ص ١٦٢ ، نشر الدار المصرية للطباعة سنة ١٩٧٨ ، وانظر أيضا : حى بن يقظان لأحمد امين ص ١٠٢ نشر دار المعارف سنة ١٩٥٩ .

سمعت ، ولا خطر على قلب بشر»^(١) ، ولما عاد من هذا الاستغراق إلى العالم المحسوس ، وذلك «بعد جولانه حيث جال ، سئم تكاليف الحياة الدنيا ، واشتد شوقه إلى الحياة القصوى ، فجعل يطلب العود إلى ذلك المقام بالنحو الذى طلبه أولاً حتى وصل إليه بأيسر من السعى الذى وصل به أولاً ، ودام فيه ثانياً أطول من الأولى ، ثم عاد إلى عالم الحس»^(٢) ، وهكذا «فقد كان كلما تكلف الوصول إلى ذلك المقام ، كان ذلك أيسر عليه ، وكان دوامه أطول حتى صار بحيث يصل إليه متى شاء ، ولا ينفصل عنه إلا متى شاء»^(٣) .

وهكذا وصل ابن طفيل بحى بن يقظان إلى الإيمان بنظرية الخلول كما قال بها الجنيد من قبل ، وكما شرحها ودعا إليها «شهاب الدين ابن حبش السهروردي» المعروف باسم «السهروردي المقتول» عندما أمر السلطان صلاح الدين الأيوبي بتنفيذ حكم الشرع فيه سنة ٥٨٧ هـ^(٤) ، وذلك بعد ما تفشت مبادئه بين الشباب وبخاصة في حلب ، فأخذوا يوغلون في الرياضة ومجاهدة النفس بغية الوصول إلى الفناء التام حتى يتصلوا باللذة الدائمة ، والسعادة التى تريهم «ملا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر» ، فقد رأى صلاح الدين أن انتشار هذه البدعة يؤدى إلى أن تخلو المزارع من الزراع ، والمصانع من الصناع ، وساحات القتال والدفاع عن الوطن والعرض والدين من المجاهدين في سبيل الله ، وبذلك يكون هذا النوع من التصوف سبباً في خراب العالم

(١) المرجع السابق لعبد الحليم محمود ، ص ١٨٠ .

(٢) المرجع السابق ص ١٩٠ .

(٣) المرجع نفسه ص ١٩٠ .

(٤) أحمد أمين : حى بن يقظان ..

العربي والعالم الإسلامي ؛ تلك هي الآراء التي عارضها بن النفيس ، وهي آراء لا تختلف عن الآراء التي وصل إليها الشيخ الرئيس ابن سينا عن طريق فلسفته التصوفية التي تقول إن العقل هو وسيلة صادقة لمعرفة ما وراء الطبيعة ، وذلك بعد أن درس التصوف دراسة موضوعية نظرية ثم وصف بذلك الخارق مراتب التصوف وصفا دقيقا وإن لم يكن قد تذوقه قط ،^(١) أما ابن طفيل فقد رأيناه ، في بداية نشأه «حي بن يقظان» يرى أن العقل هو إحدى القوى الإنسانية اللازمة لاكتساب المعرفة ولكننا نراه في هذه المرحلة الأخيرة يطرح العقل جانبا ، ويرى أن التصوف والرياضة ومجاهدة النفس هما الوسيلة للوصول إلى ما لا يستطيع العقل أن يصل إليه ، وفي ذلك ، بلا شك ، نوع من أنواع المعارضة لآراء الشيخ الرئيس ابن سينا ومن سار على هذا المنهج من الفلاسفة قبله أو بعده .

وحدث بعد أن وصل «حي بن يقظان» إلى هذا المقام ، أن وفد على جزيرته رجل من جزيرة أخرى اسمه «أبسال» كان هو وأهل جزيرته يعيشون على ملة صحيحة مأخوذة عن بعض الأنبياء المتقدمين ، وكان له صديق يحكم تلك الجزيرة اسمه «سلامان» وكان هذا الحاكم يعمل بمقتضى ظاهر تعاليم تلك الملة ، ولا يحب اللجوء إلى التأويل ، فكان يلزم ظاهر التعاليم التي تؤمن بها الجماعة ، أما «أبسال» فقد كان يحب أن يغوص في تلك التعاليم ، ويطلع في تأويلها حتى يعثر على المعاني الروحية ، ولذلك أثر العزلة وارتحل إلى الجزيرة التي كان يسكن بها «حي بن يقظان» وبقي فيها مدة يعبد الله عز وجل ويعظمه ، ويفكر في أسمائه الحسنى وصفاته العليا ، فصفت نفسه ، وعاش في غبطة وأنس بمناجاة ربه ، وكان يتغذى

(١) فلسفة ابن طفيل لعبد الحليم محمود ص ١٣ .

من ثمرات الجزيرة وصيدها ، حتى رآه «حَيّ بن يقظان» وهو يتعبد
ويصلى ويدعو ويتضرع فأعجب به ، ودنا منه وصار يتقرب إليه حتى
اطمأن كل منهما الآخر .

واكتشف «أبسال» ان هذا الزميل لا يتكلم ، فعلمه الأسماء كلها
وتكلم «حَيّ بن يقظان» في أقصر مدة ، فجعل «أبسال» يسأله عن
شأنه ، وما زال به حتى عرف منه كل الحقائق التي مرت به ، وكيف أنه
ترقى بالمعرفة حتى انتهى إلى «درجة الوصول»^(١) «ووصف له ذات الحق
بأوصافه الحسنى ، ولم يشك «أبسال» في أن جميع الأشياء التي وردت في
شريعتنا من : أمر الله عز وجل ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم
الآخر ، وجنته وناره»^(٢) ، هي أمثلة هذه التي شاهدها «حَيّ بن
يقظان» ... وتطابق عنده المعقول والمنقول ، وقربت عليه طرق
التأويل ... وعند ذلك نظر إلى «حَيّ بن يقظان» بعين التعظيم والتوقير ،
وتحقق عنده أنه من أولياء الله الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ،
فالتزم خدمته ، والأخذ بأشاراته فيما تعارض عنده من الأعمال الشرعية
التي كان قد تعلمها في ملته»^(٣) .

وهذا هو المنهج الذي أراد ابن طفيل أن يثبت به أنه لا تعارض بين
حقائق الدين وحقائق المشاهدة ، ولكنه صرح في وضوح أن من حق من
يصل إلى مرتبة المشاهدة أن يفسر تعاليم الملة ، وعلى العلماء من أمثال
«أبسال» أن يحترموا هذه التفاسير .

(١) ابن طفيل «حَيّ بن يقظان» ص ١٩٦ .

(٢) المرجع السابق ص ١٩٧ .

(٣) حَيّ بن يقظان لابن طفيل ص ١٩٩ .

وكذلك ذكر «أبسال» لزميله تعاليم ملته ، فأمن «حىّ ابن يقظان» أن النبى الذى جاء بها صادق فى قوله ، وأنه رسول من عند ربه ؛ ولكنه تعجب : «لم اقتصر هذا النبى على هذه الفرائض ووظائف العبادة ، وأباح الاقتناء للأموال والتوسع فى المآكل حتى يفرغ الناس للاشتغال بالباطل ، والإعراض عن الحق !!»^(١) .

وكان رأى حىّ بن يقظان هو أن لا يتناول أحد شيئا إلا ما يقيم به الرقى ، وأما الأموال فلم تكن لها عنده معنى . وكان يرى ما فى الشرع من الأحكام فى أمر الأموال : كالزكاة وتشعبها ، والبيع والربا ، والحدود والعقوبات فكان يستغرب ذلك كله ، ويراه تطويلاً ، ويقول : «أن الناس لو فهموا الأمر على حقيقته لأعرضوا عن هذه البواطل ، وأقبلوا على الحق واستغنوا عن هذا كله ، ولم يكن لأحد اختصاص بمال يُسأل عن زكاته ، أو تقطع الأيدي على سرقة ، أو تذهب النفوس على أخذه مجاهرة»^(٢) ؛ ولذلك رحل هو وزميله إلى الجزيرة العامرة بالسكان ؛ وقد عقد العزم على أن يخلصهم من الضلال الذى اعتقد أنهم يعيشون فيه ، فيدعوهم إلى الاكتفاء بالقليل من المآكل مما لاغنى عنه لسد رمقهم ، وبالرضا من اللباس بما يستر عوراتهم ويقمهم شر البرد والحر ، وأن يتجنبوا الكد والكدح فى سبيل جمع الأموال واكتنازها ، وبذلك يصبحون غير محتاجين إلى ما جاء فى شريعتهم من أنواع العقاب الزاجر ، وأن يصرفوا الوقت فى مجاهدة النفس والرياضة حتى يرتقوا إلى مرتبة المقربين ، فتتكشف لهم الحقيقة كما تكشفت له من قبل ، ويتصلوا بالحق الخلاق العظيم ، وتغمرهم السعادة الأبدية^(٣) ؛ وهذا هو نفس مادعا

(١) المرجع السابق ص ١٩٨ - ١٩٩ .

(٢) المرجع السابق ص ١٩٩ .

(٣) المرجع السابق ص ١٩٩ .

إليه شهاب الدين يحيى بن حبش السهروردي مما الب عليه فقهاء المسلمين فطالبوا بردعه حتى لا يفسد المجتمع ، وهو ما قُتل بسببه سنة ٥٨٧ هـ ، وهذا هو ما عارضه « ابن النفيس » على لسان كامل في « الرسالة الكاملية في السيرة النبوية » : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةٌ يَوْمَ الْقِيَمَةِ كَذَلِكَ تُفَصَّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ (١) .

وقد رحّب أهل الجزيرة المعمورة بمقدم « حيّ بن يقظان » وزميله « أبسال » في بداية عودتهما ، فلما شرع « حيّ بن يقظان » في نشر تعاليمه جعلوا ينقبضون منه ، وتشمئز نفوسهم مما يأتي به (٢) ولكنه لم ييأس « وما زال يستلطفهم ليلاً ونهاراً ، ويبين لهم الحق سراً وجهاراً ، فلا يزيدهم ذلك إلا نبوا ونفاراً » (٣) فعلم أنه قد « ألهاهم عن ذكر الله التجارة والبيع » (٤) ولذلك يئس من إصلاحهم وانقطع رجاءه في قبولهم « وبأن له وتحقق على القطع أن مخاطبتهم بطريق المكاشفة لا تمكن ، وأن تكليفهم من العمل فوق هذا القدر لا يتفق ، وأن حظ أكثر الجمهور من الانتفاع بالشرعية إنما هو في حياتهم الدنيا ليستقيم له معاشه ولا يتعدى عليه سواه فيما اختص هو به » (٥) .

فلما فهم « حيّ بن يقظان » أحوال الناس ، وأن أكثرهم بمنزلة الحيوان غير الناطق ، علم أن الحكمة كلها ، والهداية والتوفيق فيما نطقت به الرسل ، ووردت به الشريعة ، لا يمكن غير ذلك ، ولا يحتمل

(١) الأعراف ٣٢ .

(٢) من قصة حيّ بن يقظان ص ٢٠١ .

(٣) المرجع السابق .

(٤) المرجع السابق ٢٠٢ .

(٥) المرجع السابق .

المزيد عليه ، فلكل عمل رجال وكل ميسر لما خلق له ، ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي
 الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾^(١) وهكذا أعاد «ابن
 طفيل» بطله «حى بن يقظان» إلى الدعوة إلى العمل بمقتضى الشرع
 والتزام حدوده فانصرف «حى بن يقظان» إلى حاكم الجزيرة «سلامان»
 واعتذر له عما تكلم به معهم ، وتبرأ إليهم منه وأعلمهم أنه قد رأى مثل
 رأيهم ، واهتدى بمثل هديهم ، وأوصاهم بملازمة ما هم عليه من التزام
 حدود الشرع والأعمال الظاهرة ، وقلة الخوض فيما لا يعينهم ، والإيمان
 بالمتشابهات والتسليم لها ، والإعراض عن البدع والأهواء ، والاعتداء
 بالسلف الصالح ، والترك لمحدثات الأمور ؛ وأمرهم بمجانبة ما عليه
 جمهور العوام من إهمال الشريعة والإقبال على الدنيا ، وحذرهم عنه غاية
 التحذير ، وعلم هو وصاحبه «أبسال» أن هذه الطائفة المريدة القاصرة
 لآنجة لها إلا بهذا الطريق ، وأنها إن رُفعت عنه إلى بقاع الاستبصار اختل
 ما هى عليه ، ولم يمكنها أن تلحق بدرجة السعداء ، وتذبذبت وانتكست
 وساءت عاقبتها ؛ وإن هى دامت على ما هى عليه حتى يوافيها اليقين فازت
 بالأمن ، وكانت من أصحاب اليمين ، وأما السابقون السابقون فأولئك
 المقربون»^(٢) .

ولا شك أن عودة «ابن طفيل» إلى إرشاد بطل قصته «حى ابن
 يقظان» إلى القول بأن الناس فى حاجة ماسة إلى الدين ، وما فيه من عقيدة
 تصفى نفوسهم ، وشريعة تضبط سلوكهم على هذا النحو الذى ذكره ،
 هى عودة إلى الحق ، وهداية إلى الصراط المستقيم الذى عليه عماد هذا
 العالم وصلاح حال البشر ؛ ويمكن فى الوقت ذاته اعتبارها معارضة للآراء
 الفلسفية التى تقول بأن العقل البشرى قادر وحده على الوصول إلى أسرار

(١) المرجع السابق ٢٠٣ وانظر سورة الأحزاب ٦٢ .

(٢) اقتباس من خاتمة «حى بن يقظان» لابن طفيل وفيها إشارة إلى الآيات ٨ ، ١٠ ، ١١ ، من سورة
 الواقعة .

ما وراء الطبيعة وكشف ستر الغيب ، كما أن فيها معارضة لما قال به غلاة المتصوفين الذين دعوا إلى الانقطاع إلى العبادة ، حتى يصلوا إلى مرحلة المكاشفة ، كما دعوا إلى التقشف وحرمان النفس من الطيبات التي أنعم الله بها على عباده .

وخلاصة القول أن « ابن طفيل » اختار المنهج القصصى في كتابه « حى بن يقظان » للتعبير عن آراء في الفلسفة وعلاقتها بالدين والعقيدة ، وليبان آرائه في التصوف وعلاقته بالشرعية ، وفي شرح رأيه في المعرفة وطرق اكتسابها ، وتدرج الإنسان في مدارج كسبها ابتداء من الإلتفات بالحواس لإدراك كُنه ما يحيط به من البيئة ، والإرتقاء في ذلك من المحسوس إلى المعقول ، مسترشدا بالمنهج المنطقي الذى يقود من المعلوم إلى العلة حتى أدرك الحقائق ووصل إلى العلة الأولى ؛ ثم ارتقى من هذا المعقول الفلسفى إلى تذوق الحكمة الإشرافية القائمة على الوجد والتذوق التصوفى ، ثم وصل فى النهاية إلى أن هذه المرتبة لاتصلح إلا للخاصة الخاصة من الناس ، أما عامة الشعب فإنهم فى حاجة ماسة إلى الدين وما فيه من عقيدة تصفى نفوسهم ، وشرعية تضبط سلوكهم وبذلك فقط تصلح دنياهم ، وتسعد حياتهم .

وقد كان هذا المنهج القصصى الذى اختاره « ابن طفيل » فى القرن السادس الهجرى^(١) لشرح آرائه الفلسفية ، وأفكاره الدينية ، سببا فى وضع هذا المفكر المسلم فى مكانة رفيعة بين كبار الفلاسفة والمتصوفين ، كما أن قصة « حى بن يقظان » حققت له مكانة سامية بين كبار الأدباء والمفكرين العالمين ، فقد ترجمت فى القرن السابع عشر الميلادى إلى معظم اللغات الأوروبية الحديثة مثل الإنجليزية والفرنسية والألمانية

(١) يوافق القرن الثالث عشر المسيحى .

والهولندية ، فكان لها تأثير كبير على الأدباء والمفكرين في تلك الشعوب مما أدى إلى نشأة نوع جديد في أدب تلك اللغات في القرن الثامن عشر هو أدب القصة المنشورة الطويلة *Prose fiction* ؛ وقد تطور هذا النوع من الأدب تطوراً سريعاً ، وارتقى في القرون التالية بسرعة حتى وصلت القصة النثرية الطويلة *Novel* إلى مكانة سامية مرموقة في الأدب المكتوب باللغات الأوربية .

وكان من أوائل الذين تأثروا بقصة « حى بن يقظان » الكاتب الإنجليزي دانيال ديفو *Daniel Defoe* فقد كتب سنة ١٧١٩ م قصته المشهورة روبنسن كروزو *Robinson Crusoe* ، واختار لها بطلاً عاش فترة في جزيرة منعزلة ومرّ بظروف مماثلة لتلك التي أحاطت « بحى بن يقظان لابن طفيل » .

وقد اتخذ « ابن النفيس » المنهج القصصى في كتابه « الرسالة الكاملية في السيرة النبوية » في القرن السابع الهجرى^(١) لشرح أفكاره الفلسفية وآرائه الدينية ، واختار لقصته بطلاً هو « كامل » وراويها لهذه القصة هو « فاضل بن ناطق » ، وخلق لبطله هذا من تصوره بيئة في جزيرة منعزلة عن العالم ، فبدأ « كامل » حياته وتفكيره كما بدأ « حى بن يقظان » ، ثم نقل « كامل » إلى مجتمع إنسانى متحضر نابض بالحياة الاجتماعية مما كان له أثره في تطوّر أفكاره ، كما كان له هو تأثيره في تلك البيئة بإبداء آرائه الاجتماعية التى أوضحنا بعضها منها ، وبمعارضاته للتفكير الفلسفى الذى أنكر ما أنكر من مبادئ العقيدة الإسلامية ، كما عارض

(١) يوافق القرن الرابع عشر المسيحى .

سلوك بعض المتصوفين الذين أسرفوا في دعوة الناس لنهذ العمل الذى هو
أساس الحضارة التى استخلفهم الله سبحانه ليقيموها على هذه الأرض ،
فهى قصة أدبية متكاملة جدرة بأن يفرد لها الناقد المنصف مكانة مرموقة
بين الأدب القصصى العربى المنشور الذى أبدعه تفكير الأدباء والمفكرين
باللغة العربية .

سيرة خاتم الأنبياء

عند ابن النفيس.

١ - معرفة خاتم الأنبياء ﷺ^(١)

قاد « ابن النفيس » بطل قصته « كامل » حتى آمن بالنبوات ، وأنها ضرورية لخير بنى البشر ؛ ثم فكر فعرف أنه « كلما جاء نبي زاد على المتقدم حتى يستوفى ما يحتاج إليه من الشرع ، وحيثئذ يكون الناس قد عرفوا الله بوجه ، واشتاقوا إلى تعرف صفاته ، وخصائصه ، فيسهل عليهم قبول ما يرد به الأنبياء المتأخرون من ذلك ، ثم إذا عرف الناس صفات الله تعالى وجلاله ، وتحققوا قدرته التامة لم يعسر عليهم التصديق بأحوال المعاد وما يشتمل عليه من السعادة والشقاوة الأبديتين ، فلذلك يسهل عليهم تصديق من يأتي بعد ذلك من الأنبياء » .

ومن هذا التفكير المنطقي أدرك « كامل » أنه ليس يمكن أن يكمل الغرض من النبوة بنبي واحد ، بل لابد من أنبياء^(٢) يأتي سابقهم بما يدرج الناس إلى معرفة ما يأتي به المتأخر ، ولا بد أن يكون كل متأخر منهم يأتي بما أبان السابق وزيادة حتى تكمل فائدة النبوة عند آخرهم ، فلذلك يحتاج الآخر منهم أن يكون عالماً بجميع ما أبان به السابقون ، ومتمكناً من تبليغ جميع ما بلغه السابقون^(٣) ؛ فلذلك لابد وأن يكون النبي الذي هو

(١) تعليق على الفصل الثالث من الفن الأول .

(٢) ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ﴾ آل عمران ١٤٤ .

(٣) ﴿ ءَامَنَ الرُّسُلُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِاللّهِ وَمَلَكِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفْرِقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ (البقرة ٢٨٥) .

خاتم النبيين أفضل الأنبياء وأقومهم بما يحتاج إليه في أمر النبوة ؛ كذلك ينبغي أن يكون كل متأخر من النبيين أفضل من قبله ؛ وذلك يصح إلا في حالات الكوارث العامة مثل الطوفان أو الوباء مما يؤدي إلى هلاك الكثير من بنى البشر ، فهذا يحتاج إلى إعادة تدرّج الناس إلى سهولة قبول الحق ، فهذا الوجه لم يلزم أن يكون كل نبي أفضل ممن سبقه إلا النبي الأخير ، وهو خاتم النبيين ، فإنه على كل حال يجب أن يكون أفضل ممن سواه ، لأن النبوة بعده تنقطع^(١) ، فلا بد وأن يأتي بجميع ما يحتاج إليه في تكميل فائدة النبوة ، فلذلك يجب أن يكون النبي الذي هو خاتم النبيين أفضل الأنبياء جميعهم .

(١) ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ (الأحزاب : ٤٠)

٢ - نسب خاتم النبيين ﷺ (١)

ولما تبين «كامل» أن هذا النبي الخاتم يجب أن يكون أفضل النبيين وأعلمهم .. قال في نفسه إن هذا يجب أن يكون عند الناس بهذه المنزلة مما يسهل عليهم الإذعان لقبول ما يخبر به من تفاصيل الشريعة ، وجميع صفات الله تعالى ، وبتفاصيل المعاد ، وإنما يكون هذا النبي عند الناس كذلك إذا كان نسبه شريفا جدا ، وأشرف ذلك ما كان إلى العظماء من الأنبياء ، وأفضل ذلك ما كان إلى نبي قد اتفقت الملل على تعظيمه ؛ والنبي الذي هو كذلك هو ابراهيم عليه الصلاة والسلام ، لأنه مع جلالة نفسه اتفقت الملل على تعظيمه ، فلذلك يجب أن يكون خاتم النبيين منسوبا إلى ابراهيم صلوات الله على الجميع (٢) .

ويجب أن يكون هذا النبي الخاتم ﷺ غير منتسب إلى ملة غير ملة ابراهيم عليه السلام ، فلا يكون أولا يهوديا ولا نصرانيا ولا مجوسيا ونحو ذلك ، لأنه لو كان من أهل ملة غير ملة ابراهيم (٣) لكان دعواه النبوة إلى الدين الذي يحدته كافرا عند تلك الملة ، فلذلك يجب أن يكون خاتم النبيين ليس منسوبا في أول أمره إلى ملة أخرى ، فلذلك يجب أن لا يكون من نسل يعقوب أو العيص عليهما السلام ، فلذلك يجب أن يكون خاتم النبيين منسوبا إلى إسماعيل عليه السلام .

(١) تعليق على الفصل الأول من الفن الثاني .

(٢) ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . رَبَّنَا وَآمِنْ فِيهِمْ زَوْجًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (البقرة ١٢٧ - ١٢٩)

(٣) ﴿قُلْ إِنِّي هَدَىٰ رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ خَلِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ (الأنعام ١٦١)

٣ - موطن خاتم الأنبياء ﷺ (١)

تفكر «كامل» في الموضع من الأرض الذى ينبغى أن يكون منها هذا النبي الخاتم ﷺ ، فقال في نفسه : يجب ألا يكون من أهل البرّ كالأعراب ونحوهم ، فلا بد وأن يكون من أهل المدن الأشرف ، وترجح التى تكون لها فضيلة العظمة الدينية فى نفوس الناس كأن تكون مشتملة على معبد عظيم عند الناس ، وأفضل المعابد هو البيت العتيق الذى شرفه الله تعالى فإنه أول بيت وضع للناس ، فلذلك يجب أن يكون خاتم النبيين مولده «مكة المكرمة» .

ثم فكر «كامل» فى هل يقيم هذا النبي بمكة إلى وفاته أو يهاجر عنها إلى مدينة أخرى ؟ فقال فى نفسه ، أنه لما كان هذا النبي خاتم النبيين صلوات الله عليهم فالنبوة لا محالة منقطعة بعده ؛ فلذلك يجب أن تدون شريعته وأن يكثر الإشتغال بها ، ومما لا بد منه فى حفظ عظمته أن تُسنّ الزيارة إلى قبره حتى يرغب الناس فى ذلك ويسافرون إلى قبره من أطراف البلاد ؛ ولذلك وجب أن يكون قبره فى غير مكة ، إذ لو كان بمكة لكانت زيارته تقع كالتبّع لزيارة البيت العتيق فكان يُظن على طول الزمان أن الحج لأجل البيت فقط ، وينسى قبر النبي ﷺ فيؤدى ذلك إلى نسيانه ، ويلزم ذلك بطلان شريعته (٢) .

وفكر «كامل» فى سبب انتقال هذا النبي الخاتم إلى البلد الذى يموت فيه ، فرأى أن ذلك لا يمكن أن يكون لأجل طلب المال ،

(١) تعليق على الفصل الثانى من الفن الثانى من الرسالة الكاملية .

(٢) هذا تعليل لدواعى الهجرة النبوية الشريفة ، أما أسبابها المباشرة وغير المباشرة فمكانها كتب تاريخ السيرة . وانظر : كتابنا : «خديجة أم المؤمنين : نظرات فى إشراق فجر الإسلام» .

ولا لطلب طيب الهواء ؛ أو كثرة الفاكهة ، أو رخاء سعره ؛ أو كثرة المياه فيه ونحو ذلك ، فإن ذلك كله لا يليق قصده بمنصب هذا النبي الخاتم . ولا يجوز أن يكون خروجه من مكة التي شرفها الله تعالى عن اختيار منه وإلا كان مختارا للخروج من الموضع الأفضل إلى ما هو دونه ؛ فلا بد وأن يكون خروجه من مكة اضطرارا ، ولا يمكن أن يكون ذلك على سبيل الهزيمة في القتال ؛ فإن ذلك يحط من منزلته ؛ وإنما يكون خروجه على وجه يدل على عظمته في نفسه ومهانة الكفار ؛ وذلك بأن يجتمع عدد كبير منهم ويتفقون على قتله خفية ، وينجو هو من ذلك ؛ وفي ذلك ذل للكفار ومهانة لهم ، وعظمة شأن للنبي ﷺ إذ لم يجسر عليه واحد أو إثنان ، وكان إطلاع الله سبحانه له على تأمرهم من جملة المعجزات (١) .

وإذا خرج خاتم الأنبياء من مكة فلا بد وأن يعود إليها ، وأن يملكها (٢) ؛ لأنه لا بد وأن يوجب الحج إليها ، فيكون حجها واجبا عليه أيضا ؛ ولا يمكن دخوله فيها وهي في أيدي الكفار . وإلا كان دخوله فيها يكون على وجه يكون كأنه في ذمتهم ؛ وذلك مما لا يليق بمنصبه . ولو لم يحكمها لقال أصحابه : كيف يجب الحج علينا إلى موضع لعله لا يؤذن لنا في الدخول فيه ؟

وفكر « كامل » في المدينة التي ينبغي أن يكون انتقال النبي ﷺ إليها ، فرأى أن الأولى أن تكون مختصة بأمر لأجله يليق بهذا النبي ﷺ أن يكون قبره فيها ، وذلك كما إذا كانت هي المدينة التي مات فيها والده ، وتلك المدينة هي يثرب .

(١) هذه الفقرة تعليل لبعض أسباب اختيار أن تكون الهجرة النبوية الشريفة إلى يثرب ؛ وبيان لنصر الله لنبيه صلى الله عليه وسلم على من تأمر لقتله ؛ « وإذ يكره لك الذين كفروا اليثرب أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » الأنفال ٣٠ .

(٢) ﴿ إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ . وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ﴾ . (سورة النصر) .

٤ - تربية خاتم الأنبياء ﷺ (١)

وفكر «كامل» فقال في نفسه : لما كان هو خاتم النبيين وفاضلهم وسيدهم وبه تكمل الشريعة ، وبعده ينقطع الوحي ، فلا بد وأن يكون رسولاً إلى الناس كلهم حتى لا تبقى طائفة يحتاجون إلى بعثة نبي آخر ؛ ولذلك فإن الله سبحانه قد فضّله على كافة الرسل ، فاصطفاه ونشأه على عينه (٢) ، بحيث كان صالحاً لحمل الرسالة وتبليغها ، وحماه من كل ما يعوق حمل هذه الأمانة (٣) ، ولذلك شاءت حكمة الله العليم العزيز أن يولد يتيم الأب (٤) ، وأن ترضعه غير أمه ، وأن تكون رضاعته في غير مكة المكرمة ، ثم تموت أمه ، وأن يربيه أقاربه المقارنون لمنزلة أبيه في الحرمة .

وفكر «كامل» محاولاً أن يصل إلى الحكمة الإلهية العظمى في كل ذلك ؛ فعلمه تعليلاً تربوياً منطقياً ، وقد كان من وراء حكمة الله سبحانه أن جاء ﷺ بغاية الاعتدال في أخلاقه (٥) وفي مزاجه ، فكان لا ينافر أحداً من الناس مع اختلاف أخلاقهم وأمزجتهم .

(١) تعليق على الفصل الثالث من الفن الثاني

(٢) ﴿ وَالصُّحَىٰ . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَىٰ . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَىٰ . وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ . وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ . أَلَمْ يَجْعَلْكَ يَتِيمًا فَتَازَىٰ . وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ . وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَىٰ ﴾ (الضحى ١ - ٧)

(٣) ﴿ وَإِلَٰكَ لَعَلِّي لُحِقِي عَظِيمٌ ﴾ (القلم ٤) .

٥ - حال خاتم الأنبياء ﷺ في أمور الشهوات (٤)

وفكر « كامل » فيما ينبغي أن يكون عليه حال خاتم النبيين في أمر الشهوات ، فقال في نفسه : إن هذا لأجل اعتدال مزاجه ينبغي أن تكون جميع شهواته بجملتها متوسطة ، لكن الأليق بهذا النبي ﷺ أن تكون بعضها خامدة وإلى ضعف كشهوة الأكل ، وذلك لأن قلة الأكل من سنة الأولياء ، وكثرته من سنن أولى الشره ؛ وبعضها الأليق به أن يكون قويا كشهوة الطيب وشهوة العبادات وشهوة الباه (٢) ، وقد أمعن « كامل » في التفكير عن الأسباب التي تدعو لذلك ، ووصل إلى تعليل سديد أقنعه بضرورتها .

(١) تعليق على الفصل الرابع من الفن الثاني .

(٢) لم تكن شهوة الباه متحكمة في رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فبرغم ما وهبه الله من صحة وعافية في شبابه لم يفكر في الاتصال الجنسي مثل غيره من شبان قريش وصبر حتى يسر الله له زواجا حلالاً من خديجة (أم المؤمنين) بعد خمسة وعشرين عاما من عمره . وقد عاش مخلصا ووفيا لها فلم يتزوج غيرها حتى توفيت وقد تجاوزت الخامسة والستين من عمرها ، ولم يفكر في اتخاذ جارية شابة ليعاشرها معاشرة الأزواج كما كان يفعل كل العرب في زمانه . أما زوجاته بعد وفاتها فلم يكن من بينهن غير واحدة بكرا ، وكان الأخريات زوجات تاملن ، وكان زواجه صلى الله عليه وسلم منهن لأسباب من بينها توثيق الصلات مع ذويهن بمصاهرتهن تعزيرا لقوى الإسلام ولتقوية الروابط بين المسلمين . وكان إخلاصه للسيدة خديجة بعد وفاتها مما يدل على سمو خلقه ووفائه . انظر كتابنا بعنوان : (خديجة أم المؤمنين : نظرات في إشراق فجر الإسلام ، الفصل الحادى عشر بعنوان مناقب السيدة خديجة) .

٦ - هيئة خاتم الأنبياء ﷺ في خلقته : (١)

فكر « كامل » في كيف ينبغي أن يكون هذا النبي ﷺ في خلقته ؛ فقال في نفسه : إنه لا يجوز ألبة أن يكون خلقة خاتم النبيين في هيئة بدنه أمر مستنكر ، ولا يجوز أن يكون في أحد أعضاء جسمه شين أو مرض ؛ بل يجب أن يكون متناسب الأعضاء ، متوسط الخضب ، ويكون بسّاماً هاشا باشا جيد الهضم والاستمراء ، قوى الحواس والذهن ، فصيح اللسان (٢) لأن هذه الصفات هي صفات المعتدلي الأمزجة .

٧ - حال خاتم الأنبياء في الأمراض ومقدار العمر (٣)

وفكر « كامل » في كيف ينبغي أن تكون حالة هذا النبي ﷺ في الأمراض : فوصل إلى أن من الأمراض ما لا يجوز حدوثها لهذا النبي ﷺ وذلك كالجنون ، والصرع ، وكالبرص ، والجذام ، والزمانة والعمى . أما الأمراض الحارة كالحميات وكذلك الأمراض الباردة التي لا غائلة لها ولا تستقبح كالزكام والنزلة فكل ذلك قد يكثر حدوثه له ، وتكون أمراضه قصيرة المدة .

أما عمر هذا النبي ﷺ فيجب أن يبلغ فيه الحد الذي يكمل فيه العقل ليتمكن حينئذ حدوث النبوة وذلك هو سن الكهولة . ولا يجوز أن يبلغ إلى حد يظهر فيه الخرف ونقصان الرأى ؛ فلذلك يجب أن يموت هذا النبي ﷺ بعد انقضاء سن الكهولة وقبل استحكام الشيخوخة .

(١) شرح وتعليق على الفصل الخامس من الفن الثاني من الرسالة الكاملية .

(٢) قال صلى الله عليه وسلم « أنا أعرب العرب ، ولدتنى قريش ، ونشأت في بنى سعد بن بكر ، فأنتى يأتينى اللحن ؟ » السيوطى الجامع الكبير ٨٥٨٣ ، رواه الطبرانى عن أبى سعيد الخدرى .

(٣) شرح وتعليق على الفصل السادس من الفن الثاني من الرسالة الكاملية .

٨ - هل ينبغي أن يكون لخاتم الأنبياء ﷺ أولاد ؟ (١)

وسأل « كامل » نفسه : هل ينبغي أن يكون لهذا النبي ﷺ أولاد ؟ وقد هداه تفكيره إلى أن عدم إنجابه أولادا يكون نقصا فيه ؛ ولذلك فلا بد وأن تكون له ذرية . ولما كان مزاجه شديد الاعتدال فيجب أن يكون له بنين وبنات . ويجب أن لا تطول أعمار الذكور منهم لأن أعمارهم إذا طالت بلغوا إلى سن النبوة ؛ ولما كان لا يجوز أن يكونوا أنبياء لأنه هو خاتم النبيين ، فإن طول عمرهم يكون نقصا في حقه ، وانحطاطا عن درجة كثير من الأنبياء ، فإن كثيرا من الأنبياء كان أولادهم أيضا أنبياء ، فلذلك يجب أن لا تطول أعمارهم (٢) . أما بنات هذا النبي فيجوز أن تطول أعمارهن إذ النساء لسن أهلا للنبوة .

٩ - كيفية دعوة خاتم النبيين ﷺ الناس إلى اتباعه (٣)

وسأل « كامل » نفسه : كيف ينبغي أن تكون دعوة هذا النبي ﷺ الناس إلى الحق وإلى متابعتة ؟ وبعد تفكير طويل أدرك أنه إذا كان قد ثبت أن هذا النبي ﷺ عظيم القدر جدا ، عام الرسالة ، لم يجوز أن تكون رسالته إلى ملك كما أرسل موسى عليه السلام إلى فرعون ، وذكر أسباب عدم هذا الجواز ، ولذلك كان ولا بد أن تكون رسالته إلى الناس كلهم وعلى السواء .

(١) تعليق على الفصل السابع من الفن الثاني

(٢) ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رُّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ (الأحزاب ٤٠)

(٣) تعليق على الفصل الثامن من الفن الثاني

وينبغي كذلك أن تكون دعوته أولاً بلين ورفق^(١) واحتمال لما يصدر منهم من مكروه^(٢) ، وأما إذا كثّر أصحابه وأحسن من نفسه بالقوة على المقاتلة ، فيجب أن تكون دعوته للناس حينئذ بالقهر والسيف^(٣) ، وقد اقتنع بذلك بعد بيان ما يحتم عليه اتباع ذلك .

١٠ - في اسم هذا النبي ﷺ^(٤)

لما ثبت عند « كامل » وجوب عظمة هذا النبي ﷺ عند الناس ، وجب أن لا يكون في اسمه أو اسم أبيه أو جده ما يحطّ قدره ويُنقص منزلته ، فلذلك لا يجوز أن يكون اسمه اسم شيء محتقر مثل « كلب » ونحو ذلك مما جرت عادة العرب بالتسمية به . ولا يجوز أن يكون اسماً مصغراً مثل حميد أو عبيد . ولا يجوز أيضاً أن يكون اسمه مما فيه كبر وزيادة تعظيم كشاهنشاہ ونحو ذلك .

(١) ﴿ آذِغْ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَدِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ صُلَىٰ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (النحل ١٢٥)

(٢) ﴿ قَاصِرٌ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْخِفُنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ (الروم ٦٠)

(٣) ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ . وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْتَنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (الأنفال ٦٠ - ٦١) .

(٤) ﴿ وَقِيلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَقْتُلُونَكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (البقرة ١٩٠)

(٤) تعليق على الفصل التاسع من الفن الثاني من الرسالة الكاملية .

١١ - في كتاب هذا النبي ﷺ (١)

وفكر « كامل » هل ينبغي أن يكون لهذا النبي ﷺ كتاب ؟ وإذا كان له كتاب فكيف ينبغي أن يكون ذلك الكتاب ؟ وقد رأى « كامل » أنه ينبغي أن يكون له كتاب ؛ لأن من يأتي من الأنبياء بغير كتاب فهو أصغر منزلة ممن له كتاب (٢) ولما كان هذا النبي خاتم الأنبياء وجب أن تكون الحاجة إلى حفظ شريعته أكثر ؛ فلو نُسخ شرعه لفقد الشرع أصلاً لتعذر حدوث شرع جديد ، وإنما يكون ذلك إذا كان تأليف هذا الكتاب من الفصاحة والبلاغة على أفضل الوجوه (٣) ؛ فلذلك كان القرآن العزيز في غاية الفصاحة

(١) تعليق على الفصل العاشر من الفن الثاني من الرسالة الكاملية .

(٢) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ءَامِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ءَلِكُتِبِ إِلَيْهِ نَزْلٌ عَلَىٰ رَسُولِهِ ءَلِكُتِبِ إِلَيْهِ نَزْلٌ مِنْ قَبْلِ ﴾ (النساء ١٣٦) .

﴿ وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (النساء ٢٢٣) .

(٣) ﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَّءُ قُلْ فَأْتُوا بِمِثْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (هود ١٣) .

﴿ أَمْ يَقُولُونَ أَفَرَّءُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَأَدْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (يونس ٣٨) .

سنة النبي ﷺ

أما بيان كيفية تعرف « كامل » لسنة النبي ﷺ فكان ذلك هو موضوع الفن الثالث من الرسالة ، يشتمل هذا الفن على باين :
 الباب الأول : فيما يأتي به هذا النبي ﷺ من التكاليف العلمية .
 الباب الثاني : فيما يأتي به هذا النبي ﷺ من التكاليف العملية .
 أما الباب الأول ، فإن يشتمل على فصلين ، وكان موضوع الفصل الأول هو :

فيما يأتي به هذا النبي ﷺ من صفات الله تعالى (١)

قال « ناطق بن فاضل » (٢) : إن « كامل » حين بلغ من العمر قرب آخر الشبيبة ، فكر فيما ينبغي أن يأتي به خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم من صفات الصانع تعالى ؛ فرأى أنه ينبغي أن يعرف الناس أن لهم صانعا (٣) ، وأن هذا الصانع من البهاء والجلالة إلى حد لا نهاية له (٤) ، وأنه يجب أن يطاع (٥) وأن يُعبد ، وأنه لا إله إلا هو (٦) وأنه ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ (٧) ونحو ذلك من الصفات التي تليق بجلال الله تعالى .

(١) تعليق على الفصل الأول من الفن الثالث

(٢) « ناطق بن فاضل » هو راوية « الرسالة الكاملة في السيرة النبوية » .

(٣) ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾ (البقرة ٢١)

(٤) ﴿ هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلِيمٌ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ . هُوَ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهِيمُنُ الْقَزِيرُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَنَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ . هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ (الحشر ٢٢ - ٢٤) .

(٥) ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ﴾ (النساء ٥٩) .

(٦) ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (الإخلاص) .

(٧) الشورى ١١

وهذا النبي صلى الله عليه وسلم لا يكلف الناس مالا يسهل الوقوف عليه كما لو قال إن الله تعالى ليس في داخل العالم ؛ ولا هو في خارجه . وإنه ليس بجسم^(١) ... الخ . فإنها إما أن تكون عندهم كالأشياء التي ليس لها معانٍ ؛ وإما أنها تشوشهم وتحيرهم وتصرفهم عن معاشهم وتدير أحوالهم ، وهذا مناف للمقصود الأول من النبوة ؛ فلذلك ينبغي أن يكون ذكر النبي صلى الله عليه وسلم لهذه الأشياء ذكرا مجملاً من غير تفصيل .

أما موضوع الفصل الثاني من الباب الأول فكان موضوعه :

ما يأتي به خاتم النبيين من أمر المعاد^(٢)

وفكر « كامل » في : هل يخبر هذا النبي صلى الله عليه وسلم بأمر المعاد ؟ وهل يخبر به على أنه روحاني أو على أنه بدني ؟ أو يخبر به على أنه من مجموع الأمرين ؟^(٣) .

فرأى « كامل » بعد البحث أنه لا بد لهذا النبي صلى الله عليه وسلم من ذكر المعاد وتفصيل أحكامه ؛ وأنه لا يجوز أن يجعل المعاد روحانيا فقط ؛ فإن أذهان أكثر الناس تقصر عن درك اللذات والآلام الروحانيين . وتوسع « كامل » في شرح هذا المعنى ووصل إلى أنه لا بد وأن يجعل هذا النبي صلى الله عليه وسلم المعاد مركبا من البدن ومن النفس معا^(٤) .

(١) ورد في مقدمة مسلم عن « ابن مسعود » مرفوعا قال : « ما أنت بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة » .

(٢) تعليق على الفصل الثاني من الباب الأول من الفن الثالث من « الرسالة الكاملة » .

(٣) هذا الباب كله معارضة للشيخ الرئيس ابن سينا وغيره من الفلاسفة الذين قالوا أن المعاد أمر روحاني فقط . وانظر ما سبق أن أوضحناه عند الكلام على معارضة ابن النفيس للشيخ الرئيس « ابن سينا » .

(٤) وانظر قوله تعالى : ﴿ وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَىٰ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ (النحل ٣٨) .

وأغرق «كامل» في التفكير في حقيقة هذا المعاد ، وكيف هي ، فوصل إلى أن الإنسان مركب من بدن ونفس : فالبدن هو هذا الشيء المحسوس ؛ وأما النفس فهي التي يشير الإنسان إليها بقوله «أنا» ؛ وهذا المشار إليه لا يجوز أن يكون هو البدن أو أجزأؤه . وهنا أخذ «كامل» يبحث في الفرق بين البدن والروح حتى وصل إلى أن البدن متغير : فبدن الإنسان وهو طفل ليس هو بدنه وهو شيخ ، أما الروح الذي يشير إليه الإنسان بقوله «أنا» فهو على حاله دائما ، فالنفس شيء غير البدن ، إذ البدن جسم محسوس والنفس جوهر وهي مجردة عن المادة الجسمانية ، وهي لا توجد قبل وجود المادة الممتزجة التي يكون منها بدن الإنسان ، فإذا نفس الإنسان إنما يمكن وجودها فقط بعد وجود المادة الممتزجة مزاجاً إنسانياً ، وكذلك يستحيل فقدان هذه المادة مع وجود نفس الإنسان ، ونفس الإنسان غير قابلة للعدم لأنها لا مادة لها ، وكذلك فإن المادة الممتزجة بها مزاجاً إنسانياً التي هي عجب الذنب ، لا يمكن عدمها^(١) ، فلذلك هي تبقى بعد موت البدن وبلائه ، وتكون النفس عند بقائها مدركة عالمة فيحدث لها حينئذ نعيم وألم ، وهما اللذان يكونان في القبر . وإذا جاء الوقت الذي يكون فيه المعاد ، نهضت النفس حينئذ وغذت هذه المادة بجذب المواد إليها وإحالتها إلى متشابهتها ، فيحدث من ذلك البدن ككرة أخرى ، ويكون هذا البدن هو ذلك البدن الأول بمعنى وحدة هذه المادة فيه مع وحدة هذه النفس ، وبذلك يكون المعاد ، وتكون النفس بعد ذلك غير تاركة للإغتذاء ألبتة ، فلذلك لا يعدم البدن حينئذ ألبتة ، أما إذا كان في نعيم فظاهر ؛ وأما إذا كان في النار فلأن تلك النار كلما احترقت الأجزاء الحادثة التي في ذلك البدن ، عادت تلك النفس وولدت من المواد التي تغذو بها تلك المادة بدنا آخر ، وهكذا دواليك^(٢) .

(١) الحديث الشريف : «كن ابن آدم يلى إلا العجب» انظر النهاية في غريب الحديث والأثر لمجد الدين بن الأثير ج ٣ .

(٢) هذا الباب كما قلنا سابقا هو معارضة للفلاسفة الذين قالوا إن المعاد أمر روحاني فقط ، متناسين أن الله وحده هو الخلاق العظيم يحيى ويميت وهو على كل شيء قدير .

في العبادات التي يأتي بشرعها هذا النبي ﷺ (١)

ولما قرب «كامل» من سن الأربعين تفكر في أنه : لما كان هذا النبي صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين ، وجب أن تكون الحاجة إلى حفظ جلالته وشريعته أكثر ، فلذلك لا بد وأن يدبر هذا النبي صلى الله عليه وسلم لبقاء ذلك ودوامه ما دامت السموات والأرض ، وإنما يمكن الحفظ بتكرار الشيء الذي يرام حفظه في الأجيال ، فلذلك لا بد لهذا النبي من أن يسن تكرار ذكره حتى ينحفظ هو وعظمته وشريعته .

وهذا الذكر قد يكون بأمر آخر يسنه ، وقد يكون مقصودا بنفسه ، فإذا كان مقصودا بنفسه فقد يكون ضمن عبادة ، وقد لا يكون كذلك .

فأما الذكر الذي قد يكون في أمر آخر يسنه رسول الله صلى الله عليه وسلم كالصيام لأن الصائم الذي ترك ما اعتاد من الطعام والشراب يعلم أن فائدة ذلك هي التي وعده بها النبي صلى الله عليه وسلم من رضى الله تعالى وثوابه . وكالزكاة ؛ وذلك لأن المزكى لا بد وأن يخطر بباله أن إخراج المال لغيره إنما هو ابتغاء رضى الله تعالى كما وعده به رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأما الذكر الذي هو ضمن عبادة فكما يكون في الصلاة والحج ففيهما ذكر الله ورسوله .

وأما الذكر المفرد وهو المقصود بنفسه فكما يكون في كلمة الشهادتين .

(١) تعليق على الفصل الأول من الباب الثاني من الفن الثالث .

لذلك لابد وأن يكون شرع هذا النبي صلى الله عليه وسلم مبنياً على خمسة أشياء : منها قول مفرد كالشهادتين ، ومنها فعل بدني محض وهو كالصلاة ، ومنها ترك بدني محض وهو كالصوم ، ومنها مالى محض وهو كالزكاة ، ومنها مجتمع من الأمرين — وأعنى به — بدني مالى وهو كالحج .

ومن هذه العبادات ما إتيانه مشق جداً كالحج فلا يُكَلِّف الناس تكرار فعله بل يكفي إتيانه في العمر مرة ؛ ومنها ما إتيانه سهل جداً فيحتمل الناس تكراره في اليوم مراراً كالصلاة ، فلذلك كانت الصلاة أكثر تذكيراً بالله تعالى وبرسوله ؛ فلذلك كانت تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ومنها ما هو بين هذين من المشقة كالصوم والزكاة ، فلذلك ينبغي أن يجعل في العام مرة واحدة ؛ وأما الشهادتان فإن اعتقادهما هو الإيمان ، والإيمان يجب أن يكون مستمراً .

في المعاملات التي يأتي بشرعها النبي ﷺ (١)

تفكر « كامل » فيما ينبغي أن يسنه النبي صلى الله عليه وسلم من المعاملات ، فرأى أن اجتماع الناس وتعاشرهم إنما يتم بأن تكون معاملتهم على وجه العدل ، فلذلك يجب أن يمنع النبي صلى الله عليه وسلم من كل جور ، ولا يمكن ألَبَتَة من حيف على أحد ، ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وعن القناعة بالبطالة بحيث يكون لكل أحد نفع ، وأن يسن لهم ما يقطع النزاع بينهم ... إلى غير ذلك مما ينظم شؤون الجماعة .

(١) تعليق على الفصل الثاني من الباب الثاني من الفن الثالث : وفيه بين « ابن النفيس » حاجة المجتمع الإنساني إلى الشريعة التي تمنع الجور والظلم والإعتذار ؛ وهو بذلك يعارض غلاة المتصوفين الذين قالوا إنه لا حاجة للشريعة.

في الأشياء التي ينبغي أن يسنها النبي ﷺ في تدبير المنزل (١)

وفكر « كامل » في أنه لابد لتكثير بنى الإنسان من أن يعاشر الرجل المرأة فيكون منهما الذرية ، وتكون هذه العشرة بالزواج حتى يثبت به النسب ، ولذلك يجب أن ينهى هذا النبي عن الزنا حتى لا يأخذ المال بالإرث إلا مستحقه ، كما ينهى عن الشذوذ الجنسي الذي لا ينتج عنه ذرية كاللواط والمساخقة . وينبغي الإعلان عن الزواج حتى لا يتعذر ثبوت النسب والنفقة ، ولذلك فينبغي فيه الإشهاد . كما ينبغي أن يجوز للرجال كثرة الزوجات ، ولا يجوز للنساء كثرة الأزواج . كما ينبغي أن يجعل للفرقة بين الزوجين سبيلاً لما قد يقع بينهما من النفرة ، فلا تجود عشرتهما ، وأن يجعلها بيد الرجل لأنه هو أتمهما عقلاً ، ويلزمه النفقة ، وليس يمنع المرأة من ذلك تماماً ، كما لو كان الزوج معسراً فإن لها في هذه الحالة أن تطلب الطلاق ، وأن تكون النفقة على الزوج وعلى المرأة تدبير المنزل

فيما يسنه النبي ﷺ من العقوبات (٢)

وفكر « كامل » هل يحتاج النبي صلى الله عليه وسلم أن يجعل من جملة الشرع الذى يسنه ملكاً يحكم بذلك الشرع ويلزم الناس اتباعه ؟ أم يكتفى بتفصيل أحكام المعاملات وغيرها والناس يرجعون إلى ذلك

(١) تعليق على الفصل الثالث من الباب الثانى من الفن الثالث : وفيه يستمر « في بيان فضل الشريعة في تنظيم الحياة الاجتماعية » .

(٢) تعليق على الفصل الرابع من الباب الثانى من الفن الثالث من « الرسالة الكاملية » : وفيه يستمر « ابن النفيس » في بيان حاجة المجتمع لأن تفرض الشريعة العقوبات الزاجرة لمن يخرج عن تعاليم الإسلام من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

بأنفسهم ؟ ورأى « كامل » بعد تفكير أن من الناس من لا يردعه علم بنهى الشرع فقط ، وإنما ينتهى عن الظلم بقاهر يقهره فيمتنع عن الظلم ، وذلك القاهر يجب أن يكون مطاعا وهو الملك ، فيجب أن يكون لكل مدينة ملك أو قائم مقامه .

ولا يترك الملوك وطباعهم ، فقد يكون فيهم الجور ، فلذلك يجعل أمرهم إلى واحد يحكمهم وذلك هو الخليفة ، وعليه أن ينهى عن كل أمر يؤدى إلى فساد حال النفس أو حال المال أو حال العقل ، فلذلك يحرم القتل ، والسرقه ، والغضب ، والسكر ، ويجعل لكل واحد من ذلك ونحوه عقوبة تردع الناس عن الإقدام عليه . ووصل « كامل » بعد هذا التفكير إلى نوع العقوبات المناسبة التى تردع الناس عن ارتكاب أية مخالفة لما سنه الشرع .

حال المسلمين بعد وفاة النبي ﷺ

كان «ابن النفيس» يعتمد في الفنون الثلاثة الأولى من «الرسالة الكاملية في السيرة النبوية» على ما جاء في القرآن المجيد ، وعلى ما ورد من الأحاديث النبوية الشريفة ، ولذلك عينا بشرح تلك الآراء ، ودعمنا كل باب من أبواب تلك الفنون الثلاثة بالاستشهاد ببعض الآيات القرآنية الكريمة ، وبعض الأحاديث النبوية الشريفة مما يبين المصادر التي اعتمد عليها فقيها «ابن النفيس» لأنها كانت ينبوع الذي استقى منه آرائه ، واعتمد عليها في كتابة الفنون الثلاثة الأولى من «الرسالة الكاملية في السيرة النبوية» وهي التي كان يرمى من وراء تأليفها أن يبين للناس أن تعاليم الإسلام هي الكفيلة وحدها لضمان السعادة للإنسان في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، معارضا في ذلك آراء بعض الفلاسفة الذين تأثروا بالفلسفة اليونانية ، ومبينا فساد بعض ما ذهب إليه غلاة المتصوفين الذين تأثروا بالأفلاطونية الحديثة التي انبعثت من مصر على يد «أفلوطين» ومن تبعه من المفكرين .

وقد التزم «ابن النفيس» في هذه المعارضة بتأييد آرائه بالحجج القوية التي جاءت في فصول مرتبة وفق تسلسل طبيعي متصل الحلقات ، كما التزم أن يكون أسلوبه خاليا من المصطلحات الفقهية والفلسفية ، وكذلك من المصطلحات والتعبيرات الغامضة التي لجأ إليها كثير من الفلاسفة والمتصوفين ، ولذلك جاءت معارضته دفاعا عن العقيدة الإسلامية والشريعة المحمدية واضحة المنهج وسهلة الأسلوب ، مما جعلها صالحة للانتشار في أوسع مجال ، ويمكن أن يتفهمها بسهولة أكثر الناس من مختلف المستويات العلمية والثقافية .

وكان من الطبيعي أن تنتهى « الرسالة الكاملة فى السيرة النبوية » عند نهاية الفنون الثلاثة الأولى ، ولكن العالم المفكر « ابن النفيس » رأى أن يستطرد فى قصته ليبين للناس فى « الفن الرابع » رأيه فيما وقع للمسلمين بعد انتقال الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، معتمدا فى ذلك على آرائه التى كونها من دراسته لبداية التاريخ الإسلامى ؛ ثم تطرق أثناء ذلك إلى دراسة حال المسلمين فى العصور المتأخرة وبخاصة فى القرنين السادس والسابع ، محاولاً أن يبين الأسباب التى أدت إلى ضعف المسلمين وهزيمتهم أمام التتار ، كما حاول أن يوضح الأسباب التى ساعدت على صمود مصر والشام أمامهم ، ذاكرا الكثير من أخلاق حكام المسلمين فى عهده ، ومتحدثا عن كثير من عاداتهم وصفاتهم ؛ ولا شك أن رأى « ابن النفيس » فيما حدث فى زمانه له قيمته الخاصة فقد عاصر الكثير من الحوادث الجسام ، ومهدت له زعامته فى مهنة الطب الاتصال بالحكام وبكثير من رجالات عصره وبجماهير الشعب ؛ ولكننا ، برغم ذلك كله ، لا نستطيع أن نتفق وإياه على بعض ما استنتجه من آراء نرى أن المقدمات المنطقية والحجج التى ذكرها لا تسوغ له أن يصل إلى تقريرها ، وسوف نذكر رأينا عند التعليق على كل فصل من فصول هذا الفن .

الفصل الأول :

تكلم « ابن النفيس » فى هذا الفصل الأول عن الخلافة ، وبين الحاجة إليها بعد انتقال النبى صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى لأنه « لابد وأن يكون بعده من يدعو الناس إلى دينه ويلزمهم اتباعه » فذلك هو خليفته ، « وينبغى أن يكون ذلك فى كل زمان ليكون دينه محفوظا دائما » واشترط « أن يكون كل واحد من هؤلاء الخلفاء ممن تعظمه الناس »

ولذلك خلص «ابن النفيس» إلى ضرورة أن يكون الخلفاء عقيب موت النبي صلى الله عليه وسلم ممن صحب هذا النبي وعظمه .

واستطرد بعد ذلك في التفكير حتى وصل إلى الحكمة التي أدت إلى أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يوص بالخلافة لأحد من أصحابه قبل انتقاله للرفيق الأعلى ، وبين بعد ذلك السبب فيما وقع من التنازع على الخلافة بين الصحابة السابقين بالايمن .

الفصل الثاني :

وفيه فكّر «كامل» حتى تعرف وفيه الأسباب التي دعت إلى «أن ينحاز كل مدع للخلافة بطائفة تتعصب له وتنازع مخالفه» والأسباب التي دعت إلى قيام العلماء بالدعوة لحفظ شريعته بالفكر والرأى ، مما أدى إلى تفنن «الأقوال والمذاهب» وأن «يحرص كل واحد على نصره رأيه ويدعو الناس إليه» ولذلك «انقسمت ملّة هذا النبي صلى الله عليه وسلم إلى طوائف مختلفة الآراء في أصول دينه وفروعه ، فلذلك يتعادون ويتنازعون» .

«ولما كان هذا النبي هو خاتم النبيين فلا بد وأن تكون شريعته محفوظة دائما ، وذلك بحفظ أقواله وأفعاله ، وبحفظ كتابه ومعرفة معانيه ، فلذلك احتيج إلى تعرف علم الحديث ، وعلم التفسير ونحو ذلك من العلوم الشرعية ، فلذلك لا بد وأن تكثر الكتب والتصانيف بعد وفاته صلى الله عليه وسلم بمدة طويلة» .

الفصل الثالث :

سبق أن ذكرنا في المقدمة عند الكلام على الحياة الاجتماعية والعلمية والثقافية أيام «ابن النفيس» أن الحروب والكوارث التي ابتليت بها البلاد الإسلامية في القرنين السادس والسابع على أيدي المغول شرق

بلاد المسلمين ، - كانت تلك الكوارث والحروب سببا في شعور كثيرين من علماء المسلمين وأتقيائهم بعقدة الذنب ، ولذلك اعتقد الكثيرون منهم ، ومن بينهم «ابن النفيس» ، أن ما حلّ بالمسلمين من تلك النكبات كان بسبب غضب الله سبحانه عليهم لعدم تمسكهم بالدين الإسلامي الحنيف ، وعدم التزامهم بشريعته التي تحض على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وإغراقهم في الملهيات التي نهى الله عنها ؛ وقد خصص «ابن النفيس» لشرح هذا الشعور الفصل الثالث من الفن الرابع من «الرسالة الكاملة في السيرة النبوية» تحت عنوان «في كيفية تعرف «كامل» المعاصي التي لا بد وأن تقع لملة هذا النبي عليه الصلاة والسلام» .

ويظهر أن كثرة النكبات التي حلت بالمسلمين على أيدي التتار والصليبيين قبل عصر «ابن النفيس» وأثناء حياته جعلته يخطئ ولا يلتزم بالتفكير المنطقي السليم ، ولا يتأني في البحث ، ولذلك نراه يقود بطل قصته إلى أن يقرر أن غضب المولى وعقابه للمسلمين كان بسبب عصيانهم ووقوعهم في مخالفتين :

المخالفة الأولى : قوله «لقد ثبت أن هذا النبي لا بد وأن يحرم شرب الخمر لأنه يذهب صحة العقل ، وأن يكثر في ملة هذا النبي مخالفته في تجنب الخمر» ..

ومن الغريب أن يعلل «ابن النفيس» سبب هذا العصيان واقبال الناس على الخمر بقوله : «لأجل شدة ميل النفوس إليها مع أنها مما لا يُستغنى عنه في حفظ الصحة وفي دفع كثير جدا من الأمراض»^(١) ، لأن ذلك يتنافى مع ما شهد به المؤرخون من أصحاب كتب التراجم^(٢) أن هذا العالم كان ورعاً يخشى الله ، «حتى أنه في علة الأخيرة التي توفي فيها

(١) لعل حرفة ابن النفيس الطبية ، غلبت عليه ، فانساق لمعلومات أطباء عصره ، وبعضها مترجم عن أمم أخرى لاتحرم الخمر ، ونسى ما تأمر به الشريعة الإسلامية . (المراجع) .

أشار عليه بعض أصدقائه الأطباء أن يتناول شيئاً من الخمر إذ كانت علته تناسب أن يتداوى بها على ما زعموا ، فأبى أن يتناول شيئاً من ذلك وقال : لا ألقى الله وفي باطني شيء من الخمر .

نحن لا ننكر أن شرب الخمر أمر منكر يزيّنه الشيطان ولكن هل كان كل المسلمين يحتسون الخمر ؟ وهل يعاقب الله سبحانه كل المسلمين لأن نفراً منهم ، قلّ أو كثر ، حاد عن الصراط المستقيم وضعف واستسلم لغواية الشيطان فشرب الخمر فيسلط التتار على جميع المسلمين فيقتلوا رجالهم ، ويذبحوا نساءهم وأطفالهم ، ويحرقوا مدنهم ؟ وهل التتار لم يكونوا يشربون الخمر ؟ لا شك أن أسباب ضعف المسلمين وهزيمتهم أمام التتار في القرنين السادس والسابع ترجع إلى أسباب كثيرة ، وإلى تدهور عميق في المجتمع الإسلامي وإلى فساد حكّامه ، وقد يكون من بينها شرب الخمر وما لها من أثر قوى في فساد من يتعاطاها وفي إضعاف الأمة كما قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ أَلْعَدُوَّةَ وَأَلْبَعْضَاءَ فِي أَلْخَمْرِ وَآلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴾ (٢) .

المخالفة الثانية : وصل « كامل » في تفكيره إلى أن « هذا النبي لا بد وأن يحرم ظهور النساء والانكشاف للأجانب ، فلما أمر بنجى النساء ، وعسر الزواج على كثير من الناس ، وعسر على من له زوجة أن يستصحبها معه في الأسفار والغزوات ، فلذلك كثر في هذه الأمة اللواط » .

ويؤسفنا أن نقرر أن الفقيه المتطبيب ابن النفيس خلط عند دراسة هذا الموضوع بين ما نهى الله عنه في كتابه العزيز وبين ما آله إليه

(١) رواها الكثيرون ، وانظر من مصادر المبحث الأول « مسالك الأبصار لأخبار ملوك الأمصار » للعمرى .

(٢) المائدة ٩١ .

حال المرأة في البلاد الإسلامية بعد مرور عدة قرون على انتقال النبي صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى ، وبخاصة حالها بعد انتهاء القرون الأربعة الأولى التي علا فيها نجم الحضارة الإسلامية واتسعت فيها رقعة المملكة الإسلامية ، وازدهر أثناءها الاقتصاد في بلاد المسلمين فتضخمت الثروات ، واختلط العرب بأهل البلاد المفتوحة فتأثروا بهم في عاداتهم وأخلاقهم وكثر الاقبال على شراء الجوارى ، وتحكمت غيرة الأزواج على نساءهم مما أدى إلى احتجاج المرأة عن المشاركة في الحياة العامة إلا بنات بعض العلماء وبعض الأثرياء .

إن الإسلام لم يأمر قط بحجبى النساء وإنما أمر بقوله: ﴿وَقُلْ لِلْمُؤْمِنَاتِ يَعْضَضْنَ مِنْ أَبْصَرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾^(١) وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(٢) وكان النساء في صدر الإسلام ملتزمات بتنفيذ هذه الأحكام ، يرتدين الجلابيب التي لا تظهر مفاتن أجسامهن وتغطي جميع البدن بما في ذلك الرأس والرقبة والصدر ، فلا يكشفن إلا الوجه والكفين ، كما كن يخفين زينتهن إلا على أزواجهن ومحارمهن ؛ ولذلك كان النساء تخرجن إلى الصلاة في المساجد ، وكن يشتركن مع جيش المسلمين في الغزوات مع النبي صلى الله عليه وسلم فقد كن يسعفن جرحى المسلمين ، ويسقين العطشى ، ويشجعن الرجال على الكفاح ، وكان منهن من تحارب في صفوف المجاهدين .

(١) النور ٣١ .

(٢) الأحزاب ٥٩ .

وفي موقعة أحد عندما دارت الدائرة على المسلمين ، وركز المشركون هجومهم على النبي نفسه يريدون أن يفتكوا به ، جاهد الرسول الكريم جهاد الأبطال ، وضرب أروع الأمثلة في الشجاعة والصبر ، واستبسل لفيف من المهاجرين والأنصار في الدفاع عن نبيهم ، وتلقوا عنه بأجسامهم الطعنات والضربات والنبال ، وكان من بين هؤلاء «أم عمارة نسيبة بنت كعب المازنية من بنى النجار» وكان يكافح معها زوجها وولداها «عبد الله وحبيب» فصمدوا وهم جميعا يذودون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وجرحت أم عمارة اثني عشر جرحا بين طعنة برمح أو ضربة بسيف ، وأصيب ابنها «عبد الله في عضده ، فأقبلت أمه فعصبتة وقالت «انهض بنى وضارب القوم» فجعل رسول الله يقول عنها : «ما التفتُ يمينا ولا شمالا إلا وأنا أراها تقاتل عني» (٣) .

وفي هذه الموقعة «علمت فاطمة الزهراء أن خاتم الأنبياء قد جرح ، فهرعت برغم ضعفها بعد ولادة «الحسن بن علي» إلى أفضل الآباء تضمد جراحه بحكمتها وحنانها» .

ولا يفوتنا أن نذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اصطحب معه في بعض غزواته بعض أمهات المؤمنين ، وفي العام السادس للهجرة اصطحب معه في غزوة الحديبية «أم المؤمنين أم سلمة» ، وقد أشارت على النبي صلى الله عليه وسلم أن يخرج إلى المسلمين فيحلق رأسه ثم يذبح أمامهم الهدى ، فاستحسن الرسول الكريم هذه المشورة ، ونفذها على الفور ، فهدأت نفوس المسلمين وأقبلوا جميعا على الاقتداء به (٤) .

(١) النور ٣١ .

(٢) الأحزاب ٥٩ .

(٣) متفق عليه في مراجع السيرة ، وانظر التفاصيل في كتابنا خديجة أم المؤمنين : نظرات في إشراق فجر الإسلام ص ٣٣٩ - ٣٤٠ .

(٤) متفق عليه في كتب السيرة .

أما قول «أبن النفيس» «أن الزواج عَسُرَ على كثير من الناس» فقد حض الله سبحانه على تزويج الفقراء من المؤمنين الصالحين ، ووعد أن يغنيهم من فضله ، كما أمر الذين لا يجدون نكاحاً أن يصبروا ويستعفوا إلى أن يغنيهم الله فيزوجهم كرماً منه سبحانه إذ يقول : ﴿ وَأَنْكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُعْهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ۗ ﴾ (١) ، وقال صلى الله عليه وسلم : «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء» (٢)

ويجدر بنا أن نتوقف قليلاً لنفكر ونعرف ماذا حلّ بالبلاد التي أباحت الاختلاط بين الرجال والنساء دون مراعاة للتمسك بالفضيلة والعمل على المحافظة على العرض . ويؤسفنا أن نقرر أن اللواط انتشر جنباً إلى جنب مع إباحة الاختلاط بين الجنسين دون أن يكون هناك زاجر من دين أو وازع من عقل ، فقد انتشرت في كثير من مدن أوروبا وأمريكا نوادي للعرافة حيث يعيش فيها النساء والرجال معا وقد طرحوا عنهم كل ما يسترهم من اللباس ، وادعوا أنهم بذلك يتمتعون بكامل حريتهم ، ويعودون إلى العيش في الطبيعة كما عاش أجدادهم الأول وكما خلقهم الله ؛ والله برىء منهم ومن هذه الانطلاقة إلى الإباحية الجنسية بأوسع معانيها وأشكالها .

وانتشر الشذوذ الجنسي من لواط وسحاق جنباً إلى جنب مع انطلاق الفتيات الجامعيات وغير الجامعيات في أوروبا وأمريكا إلى الإغراق في اللهو والبحث وراء اللذة باحتساء الخمر والمتعة الجنسية وذلك عندما

(١) النور ٣٢ - ٣٣

(٢) البخارى : الباب الثانى .

يكتمل نمو أجسامهن ويبلغن سن الرشد ، فالبنت هناك أصبحت تلهو وتعاشر من تشاء ، ويخلو لها ذلك تحت سمع وبصر أسرتها ، دون أن يردعها أب أو يوقفها الاستماع إلى نصيحة أم .

وبلغ من انتشار الشذوذ الجنسي في بعض البلاد الأوربية أن الغي القانون هناك عقاب من يرتكب هذا الاثم الفاضح ما دام المشترك كان فيه قد بلغا سن الرشد ، وكان ارتكابهما له ناتجا عن رغبة واتفاق الطرفين ، وهكذا أصبح الشذوذ الجنسي هناك مباحا لا يعاقب عليه القانون .

وقد نتج عن انتشار الشذوذ الجنسي مرض خبيث لم يستطع العلم حتى الآن أن يجد له دواء لأنه مرض فتاك يقضى بعد فترة على صاحبه ، كما يعدى المريض به من يخالطه أو يعيش معه ولا يتركه حتى يقضى عليه ، وقد أطلقوا عليه إسم « الأيدز » ؛ ويتحقق بذلك قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّوْجَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ﴾ (١) ومن هنا نستطيع أن ندرك الحكمة الإلهية في أنه سبحانه قضى على قوم لوط وأهلكهم جميعا إلا من اتبعه ، وذلك حتى لا يتسرب منهم هذا المرض الخبيث إلى الشعوب الأخرى المجاورة التي لا علاقة بينها وبين هذا الشذوذ الخبيث : ﴿ كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنَّذْرِ . إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا عَالَ لُوطٌ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ﴾ (٢) .

أما الفصل الرابع : من الفن الثالث فهو في بيان « كيفية تعرف « كامل » لما يحدث لملة هذا النبي لأجل عصيانهم من العقوبة » وقد انتهى فيه كامل إلى أن ملة هذا النبي لا بد وأن تعاقب على هذا العصيان في الدنيا ، وأن هذا العقاب يكون بتسليط الكفار عليهم ، فيهمزومهم

(١) الإسراء ٣٢ .

(٢) القمر ٣٣ - ٣٤ .

ويقتلون منهم الكثيرين ، ويخربون بلادهم حتى يرتدعوا ولا يعودوا لمخالفة ما جاء به خاتم الأنبياء والمرسلين .

وأما الفصل الخامس : فهو « في كيفية تعرف « كامل » بحال الكفار الذين يكون لهم عقوبة هذه الأمة » : ويرى « كامل » أن هؤلاء الكفار يجب أن لا تكون لهم ملّة حتى لا يدعون الناس إلى الدخول في دينهم قهرا ، بل يكونون من البلاد التي لم تُبلّغهم الدعوة بلوغا تاما ، ولذلك فإنهم يأتون من البلاد البعيدة عن الحضارة الموجودة في البلاد المعتدلة المناخ ، فهم من البلاد الواقعة في المناطق الباردة الشمالية البعيدة عن المدن ، ولذلك فإن أهلها شجعان أقوياء ، ثم استطرد كامل في وصف تكوينهم الجسمي .

وهؤلاء الكفار الأشداء لا يهزمون إلا البلاد الإسلامية المجاورة لهم ، ومع استيلائهم على تلك البلاد لا يأمرؤن الناس بتغيير دينهم إذ لا دين لهم يُحوّج إلى ذلك ، وتقود مخالطتهم للمسلمين في البلاد التي يحكمونها إلى دخولهم في الإسلام ، وبذلك يصبحون من أهل هذه البلاد الإسلامية ، وتتسع بذلك بلاد الملة الإسلامية .

الفصل السادس بعنوان : « كيفية تعرف « كامل » حال البلاد التي لا يتمكن هؤلاء الكفار من الاستيلاء عليها » وقد علم « كامل » أن البلاد المجاورة للبلاد التي استولى عليها الكفار لا تستطيع مقاومتهم إلا إذا كانت تملك جيوشا كثيرة ، وكان يحكمهم سلطان شجاع وذلك لكثرة جيوش هؤلاء الكفار ؛ ولذلك فإن على هذا السلطان أن يوفر الأموال الكثيرة اللازمة لتكوين الجيوش التي يعتمد عليها ، فهو في حاجة لأموال كثيرة طوال تلك الحروب ، ولا بد أن يأخذ كل ما يحتاج إليه من الأموال من البلاد التي يحكمها ، ونظرا لكثرة ما يحتاج إليه فلا بد له أن

يأخذها من الناس قهرا ، ولذلك فلا بد وأن يكون هذا السلطان قويا مطاعا ، ويكون أخذ هذه الأموال تطهيرا للناس . وينتج عن كثرة اغتصاب المال من الناس « أن تقل الأموال في هذه البلاد ، ويكثر فيها الفقراء ، ونقصان المعيشة وقلة الأرزاق » وينتج عن ذلك كثرة السرقات وفساد المعاملات .

الفصل السابع : يحاول « كامل » فيه أن يتعرف على أخلاق

السلطان المسلم الذى يتصدى لهؤلاء الكفار ويوقف تقدمهم ، فيبدأ بذكر أن هؤلاء الكفار قد امتد سلطانهم إلى قسم من البلاد الإسلامية أكبر وأوسع مما يحكمه هذا السلطان وذلك بالإضافة إلى بلادهم الأصلية مشيرا بذلك إلى ازدياد قوتهم ، ولذلك فلا بد وأن يكون السلطان شديد البأس حتى يستطيع أن يمنعهم من الاستيلاء على بلاده ، وأن يكون شديد الجرأة قادرا على قتل الملوك والكبراء ، مشيرا بذلك إلى قتل السلطان قطز على يد الظاهر بيبرس ، وأن يعرف الناس عنه ذلك فيخشوه ويهابوه ، وأن تقل عنده الرحمة وتزيد القسوة فيعاقب بقطع الأطراف والصليب والتسمير حتى يوقف الفساد والسرقات التى أشار في الفصل السابق إلى انتشارها .

ووصل « كامل » إلى أن صفات هذا السلطان وأخلاقه تشبه صفات الكفار مما يدل على أنه لابد وأن يكون أصلا « إما من أرض أولئك الكفار أو من أرض تقترب منهم » ، مشيرا بذلك إلى أن حكام مصر والشام في ذلك العصر كانوا من المماليك الذين جلبوا من بلاد المغول .

وينتقل « كامل » بعد ذلك إلى وصف جسم هذا السلطان فيصف أعضاء جسمه وصفا دقيقا يصل في نهايته إلى أن هذه الأعضاء تشبه أعضاء أبدان المغول ؛ وتدلل دقة وصفه لأخلاق هذا السلطان وبدنه على أن « ابن النفيس » كان متصلاً أشد الاتصال بالسلطان ببيرس وبالسلطان قلاوون المعاصرين له ، مما جعلنا نعتقد أنه كان طيبيهما الخاص .

وفي الفصل الثامن : يستمر « كامل » في وصف أخلاق سلطان المسلمين الذى يدفع الكفار عن بلاده ، فيؤكد أنه يجب أن يكون مشهورا بالشهامة والسطوة والقدرة ، وأن يكون عند جميع الناس مهيبا مخوفا عند جميع الناس حتى يكونوا حسنى الطاعة والانقياد له ، وأن تكون طاعتهم فى الظاهر على أجود الوجوه خوفا من سطوته .

ولما كان شغله الشاغل مقاومة الكفار ، فإنه يكون فى حاجة إلى الانتقال إلى القرب منهم ليربهم أنه قادر على مقاومتهم ، وبذلك يتغيب كثيرا عن عاصمة ملكه ، ويكون فى حاجة إلى وزير يخلفه ويقوم مقامه أثناء غيابه ، ويجب أن يكون هذا الوزير شديد البأس ، جيد التدبير ، وأن يكون مهيبا مطاعا حتى لا يحتل الحكم ، كما يكون شديد التمسك بأحكام الشرع حتى لا يكثر الفساد فى البلاد فيصير أهلها مستحقين للعقاب كالذين كانوا بجوارهم من المسلمين ، إلى غير ذلك من الأخلاق والصفات التى رأى كامل أن تكون متوفرة لديه « وبخاصة يستطيع أن يكون متمكنا من رضى السلطان ، ورضى الله تعالى ورضى الرعية والأجناد وحفدة السلطان » .

الفصل التاسع : كان « كامل » طوال هذه القصة يفكر فى الإنسان والبيئة التى يعيش فيها ، والمعتقدات التى يؤمن بها ، ولكنه يتحول فى هذا الفصل إلى التفكير « فيما يحدث فى العالم العلوى بعد وفاة

خاتم النبيين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين» فهو في هذا الفصل يفكر في السماء وما فيها من شمس وقمر ونجوم ، وفي حركتها الظاهرية ، فالشمس تدنو من الشمال في الصيف ثم تبعد عنه كثيرا في الشتاء إلى الجنوب ، ثم أخذ يرصد حركات القمر والنجوم « فعلم لذلك أن جميع هذه الكواكب لها بدوراتها دورات تصير بها تارة شمالية وتارة جنوبية ، مع أن جملة السماوات تدور في كل يوم دورة شرقية ، أى تأخذ من الشرق إلى الغرب » . واستمر « كامل » في تأملاته الفلكية حتى وصل إلى أنه سوف ينتج عن استمرار تغير حركة دوراتها ، وتغير بُعد بعضها عن بعض ، وعن تناقص ميل الشمس إلى الشمال والجنوب تناقصا مستمرا ودائما ، أن « تبطل الفصول ، وتكون المواضع الزائدة البعد عن خط الاستواء شديدة البرد دائما ، وخط الاستواء وما يقرب منه شديد الحرارة دائما ؛ وبذلك تصبح طبيعة الهواء في هذين الموقعين غير ملائمة لمزاج الإنسان ، فلذلك يكون الناس حينئذ خارجين عن الاعتدال جدا ، فلذلك تسوء أخلاقهم جدا ، وتكثر الشرور والفتن .

الفصل العاشر : « وحاول « كامل » أن يتعرف ما يحدث في العالم السفلي بعد وفاة خاتم النبيين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين » أى أنه انتقل من التفكير فيما يحدث في السماء وما فيها إلى التفكير في التغير الذى يحدث على الأرض التى يعيش فوقها الإنسان ، وينتج عما وصل إليه من النتائج في الفصل السابق من تناقص ميل الشمس المستمر إلى الشمال والجنوب ، أن الشمس تصبح دائمة المسامحة لخط الاستواء وما يقرب منه ، مما يؤكد شدة الحرارة في تلك المنطقة ، وشدة البرودة في المناطق الشمالية^(١) ، فتصبح « أكثر المناطق خارجة جدا عن الاعتدال فلذلك

(١) اجتهدنا أن نستعين في هذا التعليق بلغة المؤلف وأسلوبه . كلما أمكن ذلك .

تكون أمزجة الناس في أكثر البلاد رديئة فاسدة ، ويكثر حينئذ الشرّ والمخاصبات » ، وتكثر الحروب والفتن وسفك الدماء ؛ ولذلك يتقدم الأشرار ، ويتأخر أهل الخير .

« ويلزم سوء المزاج فساد الذهن » مما ينافى قبولها للعلوم والحكمة فلذلك ترتفع العلوم كلها وتقلّ جدا في الناس » وإذا « اشتد الحر في البقاع القريبة من خط الاستواء كثرت الحرائق هناك وبخاصة في الأراضي الواطئة والكبريتية ، فيحدث حينئذ نار بأرض اليمن ، وتمتدّ منها حتى تعمّ الأراضي عند خط الاستواء وما يقرب منه » وتهب رياح رديئة وصواعق وبروق هائلة ، وتندك بعض الجبال وتسقط .

ويستمر « كامل » في وصف ما ينتج عن استمرار تناقص ميل الشمس بالتدريج إلى الشمال والجنوب ، فرأى أنه تحدث من ذلك الكوارث التي تصيب العالم كله ، فتكون الزلازل والخوف ، وتختلف صور الناس ، وربما وجد انسان يخاطب الناس ويكلمهم وهو مع ذلك في صورة مخالفة لصورة الإنسان فيكون في صورة مخالفة لصورة الإنسان ، كصورة تشبه صورة الدواب ، وهذا يحدث قبيل القيامة .

فإذا قل ميل الشمس جدا أو بطل ، لزم لذلك شدة إفراط الحر في الإقليم الأول حيث يسكن السودان ، فيضطرون إلى الانتقال شمالاً ، كما يحدث شدة إفراط البرد في الإقليم السابع وما يقرب منه حيث يسكن الترك والتتار والروس ويأجوج وماجوج ، فيضطرون جميعا إلى الانتقال جنوباً ، ويضطرون هؤلاء وأولئك جميعا للانتقال مع ملوكهم وعساكرهم ومواشيهم ، فيلزم وقوع المقاتلة والمدافعة بينهم جميعا وبين أهل البلاد

المعتدلة التى ينتقلون إليها ، وينتج عن ذلك أن يستولى سكان الإقليم الأول والسابع على بعض الأقاليم القريبة من الاعتدال ، فيزدحم الناس ، ويكثر الغلاء ، وتنقص الأموال ونحو ذلك مما يحدث عند ازدحام الناس وكثرتهم .

وهذه الكوارث والمصائب التى ذكرها «ابن النفيس» وأكد استمرارها زمنا طويلا تؤدي إلى فناء الكثيرين وخراب جهات كثيرة ؛ كما أن الحروب تستمر حتى يفنى من بقى بعد وقوع هذه الكوارث ، وبهذا تكون القيامة .

فإذا توقفت كل تلك الكوارث ، وتغير الحال ، [وسبحان من لا يتغير] فإن الشمس تعود تدريجيا إلى مِيلها ومدارها الذى كانت عليه قبل كل هذه الحوادث ، فيصلح الهواء لأن يعيش فيه الانسان ، ثم تسقط الأمطار في الشتاء ، ويمتزج تراب الأرض بالماء ، وتحدث له حرارة الشمس العفونة ، فيصبح هذا المزيج من التراب والماء صالحا لأن يتكون منه جسم إنسان وجسم غيره من الحيوان ، وتتمكن النفس الانسانية التى تغذى الجزء الصغير جدا الذى ذكرناه سابقا واسمه «عجب الذنب» (١) وهو الذى تتعلق به النفس الانسانية ، تتمكن النفس الانسانية أن تجد له غذاء كثيرا من الطين المتعفن ، فيحدث من ذلك كله أبدان الناس ، ويعشون كما كانوا قبل الموت ، وذلك هو البعث ، وسبحان الله القدير العليم .

(١) سبق أن شرح ابن النفيس الدور الذى يقوم به «عجب الذنب» في إعادة البعث ، انظر الفصل الثانى من الفن الثالث .

عملنا في تحقيق « الرسالة الكاملة في السيرة النبوية »

اعتمدنا في التحقيق على النسخ الآتية :

أولاً : مخطوطة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة وتقع ،
ضمن مجموعة بها ثلاث رسائل أخر كلها من تأليف « ابن النفيس » ؛
وهي مؤرخة ٦٧٤ هـ / ١٢٧٤ م ؛ وبذلك تكون قد نسخت في حياة
المؤلف ؛ ولكن ناسخها لم يشأ أن يكتب اسمه .

وتقع « الرسالة الكاملة في السيرة النبوية في ٢٣ ورقة ..
ومسطرتها ١٤ سطرا بحجم ٢٥ × ١٨ سم ، وترتيبها الثاني في مجموعة
الرسائل المحفوظة بالدار برقم ٢٠٩ مجاميع ، وهي مكتوبة بالخط النسخ .
العادي وخالية من الإعجام إلا فيما ندر .

ونلاحظ أن الناسخ سها عن إثبات الجملة القصيرة التي تستكمل
بيان ما اشتمل عليه الفن الأول ، وكذلك عن الجملة القصيرة التي توضح
ما اشتمل عليه الفن الثاني وذلك في السطرين السادس والسابع من وجه
الورقة الأولى ، ثم اثبت التصحيح في الهامش الأيمن وهذا يدل على أن هذه
النسخة روجعت بعد اتمام نسخها ، ولو أن الناسخ أدرك الخطأ منذ
البداية لكان من اليسير عليه إعادة كتابة الصفحة الأولى خالية من الخطأ .

ومجموع الفنون في هذه المخطوطة ثلاثة فقط ، ولا بد لنا أن نلاحظ
أن الناسخ اختتمها بقوله : « ومن ها هنا ، فلنختم هذا الكتاب » ، وهذا
ختام غريب يدل على أن الناسخ تعمد أن يقتصر على هذه الفنون الثلاثة
فقط لأسباب لم يذكرها ، ولعلها ترجع إلى أن « ابن النفيس » ذكر في الفن

الرابع ما آل إليه حال المسلمين وأوصاف حكاهم الذين حاربوا التتار ، كما ذكر أوصاف حكام التتار وسلوكهم فى البلاد الإسلامية التى استقروا فيها ، فلعل الناسخ رأى أن السلامة فى الاختصار على الفنون الثلاثة التى تناول فيها المؤلف ذكر السيرة النبوية العطرة ، ولعل هذا هو السبب الذى حدا بالناسخ ألا يذكر اسمه فى المخطوطتين .

وقد اعتمدنا على نسخة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة واعتبرناها أصلاً فى الفنون الثلاثة الأولى ، ورمزنا لها بحرف (أ) ، واعتمد التحقيق فى الفن الرابع على النسخة الثانية المصورة عن نسخة «استانبول» .

ثانياً : مخطوطة «استانبول» برقم ٤٦١ تصوف فى مكتبة مصطفى أفندى . وكانت من قبل محفوظة بمكتبة عاشر افندى ، ثم نقلت إلى المكتبة السليمانية ، وهذه المخطوطة ليست مؤرخة ، ولكن من الواضح أنها ترجع إلى ما بعد زمن «ابن النفيس» بكثير ولم يعلم اسم ناسخها .

تقع هذه النسخة فى ٥٨ ورقة ، ومسطرتها ١٥ سطراً بحجم ٢٧ × ٢١ سم ، وبها تلحيقات فى أواخر الأوراق وتصويبات قليلة فى بعض الهوامش ، وهى أكثر إعجاباً من مخطوطة دار الكتب المصرية ، ولكن إعجابها ليس إعجاباً كاملاً . وقد كان ناسخ هذه المخطوطة يخلط بين علامة المضارع المفرد الغائب المذكر والمؤنث ، مثل «تكون» ، يكتبها «يكون» أو العكس وهذا يشير إلى أن الناسخ عجمى ، فهذه الظاهرة ملاحظة فى المخطوطات المنسوخة ببلاد إيران وشرقيها ، ولم نشر إلى هذا الخلاف فى هوامش التحقيق . كما أن ناسخها كان يكتب الفعل المضارع المسند إلى الغائب هكذا «يخلوا» بإضافة ألف إليه ، ولم نشر إلى ذلك بهوامش التحقيق .

وهذه المخطوطة كاملة بها أربعة فنون ، وقد اعتمدنا هذه المخطوطة أصلاً فى الفن الرابع .

ومما يؤسف له أن بهذه المخطوطة أخطاء أكثر مما فى نسخة دار الكتب بالقاهرة ، وبعض الصفحات بها أسطر تكاد تكون مطموسة ، وبها صفحات مطموسة تماماً نتيجة تحليل الأحبار منذ فترة طويلة ، وقد قام بعضهم بإعادة كتابة هذه الأوراق المطموسة وأضاف ما أعاد كتابته إلى أوراق المخطوطة . ولم نشر إلى كل هذه المواضع فى هامش التحقيق .

ولذلك اضطررنا إلى اعتماد نسخة دار الكتب القاهرية أصلاً فى الفنون الثلاثة الأولى ، وقد رمزنا لنسخة « استانبول » بحرف (ب) .

ثالثاً : اتفقت المخطوطتان فى ظاهرة إهمال كتابة همزة الأسماء الممدودة ، فكلمة الهواء والسماء تكتب هوا والسما . وأشرنا إلى بدايات أوراق المخطوطتين وأرقامها بهامش التحقيق ، ووضعنا نجمة (★) عند بداية صفحات المخطوطة مع رمز كل من المخطوطتين .

رابعاً : استعنا بتحقيق المستشرقين : الدكتور ماكس مايرهوف وزميله الدكتور يوسف شاخ ، وبالرغم من اختلافنا معهما فى بعض المواضع ، واختلافنا معهما حول السبب الذى دعا إلى تأليف « الرسالة الكاملية فى السيرة النبوية » ، إلا أننا نقرر أنهما بذلا الكثير من الجهود فى ترجمتهما « لابن النفيس » ، ورجعا فى ذلك لكثير من المراجع ، كما قاما بترجمة أجزاء من الرسالة إلى اللغة الإنجليزية ، وبالتعليق بهذه اللغة على الرسالة ، وإن كنا لا نتفق معهما فى بعض هذه التعليقات ، كما لخصنا فصول الرسالة باللغة الإنجليزية ، أما التحقيق ذاته فقد بذلا ما استطاعا من الجهود ، ويمكن التماس العذر لهما فى بعض الأخطاء للظروف التى ذكرناها عند وصف المخطوطتين اللتين اعتمدا عليهما .

الرموز المستعملة فى التحقيق

- (أ) مخطوطة دار الكتب بالقاهرة .
- (ب) مخطوطة « استانبول » .
- (ج) تحقيق د. مايرهوف . ود. شاخت .
- (:-) ناقص من
- (و) وجه الورقة المخطوطة .
- (ظ) ظهر الورقة المخطوطة .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

فلا يعد إلى الله تعالى على أن يحرم القرمي المنطوق غداً لله عنه
 ووجهه لله تعالى والصلاة على رساله ورسوله صلى الله عليه وسلم فان
 قصدي في هذه الرسالة انصاف ما ذكره فاصل من بطون الرجل
 المسي على ما سماه بالسيرة النبوية والسنن السريفة على طريق الامور
 ملكه ما ترك الاسماء ومعرضاً عن الغرض وموضحاً بالمثال بعد
 الامعان وعلى الوجه اللائق بحكم هذا الكتاب وموسماً له في فقه المذنبين
 الفقه الاول في بيان كيفية كون هذا الانسان المسي على ما مل وكيفية
 وصوله الى معرفة البره النبوية الفقه الثالث في كيفية وصوله الى
 السنن السريفة الفقه الاول سئل على ثلثة فصول الفصل الاول
 في بيان كيفية كون الرجل المسي على ما مل قال فاصل من بطون انما معنى
 سئل ثلثة فصول في معرفة الحق الكثير الحشيش والتميز والتميز
 هذا السبل انك كثر عطف الطمانع لطلح احلاف البر التي وهذا
 السبل تعلم وتندب من هذا السبل في معارفه في مل حل هذا في القدر

العلوم والنبوءات التي ليس فيها حسد وهو له العرف

نسخة دار الكتب المصرية

وہ حجۃ الہی سے منسوب ہے اور اس کی



بسم الله الرحمن الرحيم
قال الفقيه رحمه الله تعالى في بيان يوم القيمة
الله عند ويصعد من الله تعالى والصلوة على خير
بنينا به ومرتبة محمد وعلى الله وعليه فان قصدني
هذه الرسالة اقتصاص ما ذكره فاضل من تاطق عن
الرجل المسمى كامل فيما يتعلق بالصيغة النبوية وليس
الشعبه على طريق الاجمال بل ذكر ما اطرقت الالهام
ومعها من الاعراض وموضحا للطلاب في هذا الكتاب
وهو جيد الاتقان بحمد الله الكتاب ومرتبة كذا

الصفحة الاولى من مخطوطة
استعملت في نسخة المطبعة

الناس عن العوام عليه محل العمل الى ماله في ذلك اذا لم يجد
 الا اذا وقع خطا ما ان العوام عليه ماله وولد الاربع على الحان اصابه
 تلام ذلك يعني ان نسي على ذلك ماله الذي واما السيرة فمحل فيها
 من ملج اليه ما يهاج الى سبب اليها التورقة وذلك محل على كل
 مفيد ماله ما سبب ما محل على الذي عمود ماله هو على سبب المحر
 عمود ماله هو على المحر ماله العمل لمحله السيرة وذلك منشأ
 اليه سبب ذلك يعني ان سبب عمود ماله في سبب سبب فليس
 على محله ماله على سبب ماله في محل على محله العمل وسمي
 اليه ماله للسيرة على محله الكثرة وسمي الذي ماله هو محل
 محله ماله الى العار واما ماله في ماله في ماله ماله
 ماله في ماله ماله في ماله الى العار الى العار واما ماله في
 والمحله في محله وذلك اليه والى الذي في السيرة في ذلك
 ومن ماله في ماله الى العار
 مسعين ماله في ماله

المصنف الاخير من مخطوطة دار الكتب

اقبل على الارض في الارض الاولى وصلى
 الهواء لا يعلو فيه الحيوان فاذا احس من سب
 الشئاء اسطوا وكثيره واملا بقاء الارض حتى
 لا يتبع الماء وراى من جوارق الشمس المنقولة
 صار ذلك سلكا ليدرك الانسان وحيه من الحيوان
 ولذلك لم يكن يجهل النفس الانسانية من قبل
 الاسم الخشيع له وهو السبعى فعلم ان النفس لا يكون
 في كفة او في وريث ان النفس الانسانية تكون
 مستغنية عن ذلك فحدث من الطين العسوي
 له لطيفه غدا كثير اجل وحينئذ سلك من ذلك
 ابرار الناس يجهلون كذا واو لا وذلك هو السبع
 سبحانه القدير العليم من هاهنا انهم الكتاب
 منصفين اهل حق ومصلين على خير انما لم يمتد
 واليه وصيته واصفاهه تمنا الى الكمال
 في الدنيا والخرة وصلى الله على سيدنا محمد وآله

الزبايح

دون

الصفة الوعيرة سه مخطوطة
 استاذك المبرور لرحمة رب

Süleymanlı U Kütüphanesi
 Kırklareli Kütüphanesi
 Yeniköy Kütüphanesi

الرَّسَالَةُ الْكَامِلِيَّةُ
فِي السِّيَرِ النَّبَوِيِّ

تأليف

علاء الدين علي بن أبي الحزم القرشي
الفقيه المتطبب المعروف بابن النفيس

٦٠٧ هـ - ٦٨٧ هـ

* بسم الله الرحمن الرحيم

(أ ٢٥١ ظ، ب ١)

قال الفقير إلى الله تعالى على بن أبي الحزم^(١) القرشي المتطبيب^(٢) ، عفا الله عنه ، وبعد حمد الله تعالى والصلاة على خير أنبيائه ورسله محمد وعلى آله وصحبه .

: فإن قصدى فى هذه الرسالة اقتصاص ما ذكره فاضل بن ناطق عن الرجل المسمى بكامل فيما يتعلق بالسيرة النبوية والسنن الشرعية على طريق الإجمال ، ملتزما ترك^(٣) الإسهاب ، ومعرضا عن الإغماض ، وموضحا للمطالب^(٤) بقدر الإمكان وعلى الوجه اللائق بحجم هذا الكتاب ، ومرتبنا فيه كلامى * على أربعة^(٥) فنون : (ب ٢ و)

الفن الأول : فى بيان كيفية تكون هذا الإنسان المسمى بكامل ، وكيفية وصوله إلى تعرف العلوم والنبوات .

الفن الثانى : فى كيفية وصوله إلى تعرف السيرة^(٦) النبوية .

الفن الثالث : فى كيفية وصوله إلى تعرف السنن الشرعية .

الفن الرابع : فى كيفية وصوله إلى معرفة الحوادث التى تكون بعد وفاة خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين^(٧) .

(١) فى (ب) الحرم بالراء مهملة (وأما المخطوطة أ) فتكاد تكون خالية من الإعجام ، وقد أخذنا بما جاء فى أكثر كتب التراجم (انظر ترجمته) .

(٢) - : (ب) .

(٣) (ب) : ما أطرق .

(٤) (ب) : للطالب .

(٥) (أ) ثلثة .

(٦) هذه الفقرة مثبتة فى هامش نسخة (أ) مما يدل على أنها روجعت وصححت بعد نسخها .

(٧) الفن الرابع ... أجمعين : - (أ) .

الفن الأول

١ - (١) في بيان كيفية تكون هذا الإنسان المسمى بكامل

٢ - وكيفية وصوله إلى تعرف العلوم والنبوات (١)

٣ - [و] (٢) يشتمل على ثلاثة فصول :

(١) في بيان .. النبوات : - (أ) .

(٢) إضافة ليستقيم النص .

الفصل الأول

فى بيان^(١) كيفية تكون الرجل المسمى بكامل

قال فاضل بن ناطق : إنه اتفق حدوث سيل كبير فى جزيرة معتدلة الهواء كثيرة العشب والأشجار والثمار^(٢) ، وخالط هذا السيل تراب كثير مختلف الطبائع لأجل اختلاف * التراب^(٣) التى مرّ هذا السيل بها ، ونفذ (ب ٢ ظ) شىء من هذا السيل فى مغارة فى ذيل جبل هناك فملأها * ، ولأجل قوة (أ ٢٦٦ ر) حركة هذا السيل نقل بعد ذلك إلى باب هذه المغارة من التراب والأعشاب ماسد به بابها ، ثم انحط ذلك السيل فبقيت تلك المغارة مملوءة مما دخل إليها وكان ذلك فى فصل الربيع ، فلما جاء الصيف سخن ما فى تلك المغارة وعفن وقد صار حيثئذ خائراً بما فيه من التراب ، ولم يزل ينطبخ بما حدث فيه من الحرارة حتى امتزج وصار له مزاج قريب جداً من الاعتدال ، وصار قوامه لزجاً قابلاً لأن تتكون منه الأعضاء ، واختلفت أجزاؤه لأجل اختلاف^(٤) طبائع التراب المخالط له ؛ فلذلك كان بعضها حاراً يابساً شبيهاً^(٥) بمزاج قلب الإنسان^(٥) وبعضها حاراً رطباً شبيهاً بمزاج كبد الإنسان ، وبعضها بارداً يابساً شبيهاً بمزاج عظام الإنسان ، * وبعضها بارداً رطباً شبيهاً بمزاج دماغ الإنسان ، وبعضها (ب ٣ و) يشبه مزاجه مزاج عصب الإنسان ، وبعضها يشبه مزاجه مزاج لحم الإنسان ، وبالجمله^(٦) كان فى تلك الأجزاء ما يشابه أمزجة الأعصاب

(١) - : (ب) .

(٢) (ب) : والثمار .

(٣) (أ) ، (ج) : التراب .

(٤) - : (ب) .

(٥) فى (أ) : بمزاج القلب .

(٦) (ب) : فالجمله .

جميعها ، وأجزاء آخر تشابه في أمزجتها لتلك الأجزاء الأول ، وكأن كل جزء يشبه بمزاجه مزاج عضو فإن قوامه يكون صالحاً لتكوّن ذلك العضو منه ؛ فلذلك كانت هذه الأجزاء مستعدة لأن يتكون منها (١) أعضاء* أعضاء إنسان (١) والله تعالى لكرمه (٢) لا يمنع مستحقاً (٢٦٤ ط) مستحقه ، ويعطى كل مستعد ما يستعد له ، فلذلك خلق من تلك الأجزاء أعضاء (٣) إنسان ، ومن جملة ما جملتها بدن إنسان (٤) . وكان يتبخر من ذلك الطين عند تسخينه أبخرة كثيرة ، فكان بعضها لطيفا هوائيا شبيها في مزاجه بمزاج روح الإنسان فتكون من ذلك روح إنسانية فكمّل بذلك تكون إنسان* وخالف هذا الإنسان الإنسان المتكون في (ب ٣ ط) الرحم بأمر :

أحدها : أن هذا الإنسان يشبه تكونه تكوّن الفرخ في البيضة إذ المغارة بمنزلة قشر البيضة ، وما في داخلها من المادة بمنزلة مُحّ البيضة وبياضها ، والأجزاء الشبيهة بأمزجة الأعضاء بمنزلة الأجزاء التي يتكون (٥) منها الفرخ ، والأجزاء (٦) الأخرى الشبيهة في أمزجتها بتلك الأعضاء (٦) بمنزلة الأجزاء التي يغتذى منها الفرخ مدة تكونه .

(١) (ب) : منها أعطا الإنسان .

(٢) (ب) : بكرمه .

(٣) (ب) : أعطاء .

(٤) القول بأن « كامل » وُجد بالتولد الذاتي في جزيرة منعزلة لم يكن إلا وسيلة أتاحت « لابن النفيس » أن يتخذ الأسلوب القصصي لاثبات آرائه في الدفاع عن العقيدة الإسلامية وعن الشريعة ، فقد أتاحت له هذا المنهج أن يعارض الفيلسوف « الرئيس ابن سينا » والفيلسوف المتصوف « ابن طفيل » . والكلام الذي وضعناه بين قوسين يثبت أن « ابن النفيس » كان يؤمن أن الله هو الخلاق الذي خلق من تلك الأجزاء التي تولدت ذاتيا « أعضاء إنسان ، ومن جملة ما جملتها إنسان » .

ولاشك أن « ابن النفيس » كان متأثرا في تفكيره هذا بما قصّه الله تعالى عن خلق آدم في كثير من آيات الكتاب العزيز مثل قوله ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴾ (في الآية رقم ١٢ بسورة المؤمنین) . ومثل قوله في سورة الصافات : ﴿ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ ﴾ (آية ١١) .

(٥) (ب) : تكون .

(٦) (ب) : : والأجزاء الآخر المتشابهة في امزجتها لتلك الأجزاء .

وثانيها : أن هذا الإنسان لا بد وأن يكون عظيم البدن جدا ،
وذلك لأن الجزء الذى يتكون منه^(١) كل عضو لا بد وأن يكون مقداره
كبيراً بخلاف الأجزاء المنوية^(٢) التى يتكون منها أعضاء الجنين فى الرحم .

وثالثها : أن هذا الإنسان يجد المادة التى يغتذى منها وهو فى
المغارة كثيرة متوفرة وكذلك يجد الهواء^(٣) المروّح لقلبه هناك كثيرا * (٢٧١و)
فلذلك يتمكن من البقاء فى داخل المغارة حتى تشتد أعضاءه * ويقوى (ب، د، و)
إدراكه وحركته ؛ فلذلك يكون عند خروجه كالصبي المترعرع فى
حركته وإدراكه ، ولا كذلك الإنسان المتكوّن فى الرحم ، وخروج هذا
الإنسان من المغارة شبيه بخروج الفرخ من البيضة .

واتفق لهذا عند اضطرابه بيديه ورجليه عند إرادة الخروج من
المغارة أن كان التراب الساد لبابها قد تفتت بعضه وانعدم ، فلذلك انخرق
بحركة هذا الإنسان بسهولة ، وعند انخراقه لم يزل هذا الإنسان يزحف
ويدب حتى خرج^(٤) .

(١) (ب) : منها .

(٢) (ب) : فى الهامش تعليق بنفس الخط : « أى المتكونة من المنى » .

(٣) (ب) : الهوى .

(٤) (ب) : يخرج .

الفصل الثاني

في كيفية تعرف المسمى بكامل العلوم^(١) والحكمة

إن المسمى بكامل حين خرج من المغارة شاهد الفضاء والضوء وأشجار تلك الجزيرة ، وسمع أصوات الطيور ، وخرير ماء البحر والأنهار ، وحفيف الرياح ، وشمّ روائح الزهور والنبات ، وأكل من الثمار التي تساقطت من الأشجار فأحس بطعومها . وأدرك حرّ الهواء^(٢) وبرده* فكبر تعجّبه من ذلك . وصار إذا غمض عينيه^(٣) تغيب^(٤) عنه (ب ٤ ظ) المرئيات وإذا فتحهما ، بعد ذلك أدركها ، وكذلك إذا سد أذنيه بأصبعيه غابت عنه الأصوات ، وإذا فتحهما أدركها ، وإذا حصلت ذوات الطعوم في فيه أدرك طعومها* وإذا بعدّها^(٥) من فيه لم يدرك ذلك ، (٢٧١ ظ) وكذلك اعتبر الأنف في الروائح ، وملاقة^(٦) الملموسات للبشرة في اللمس ، وتكرر له ذلك فعلم أن هذه الأعضاء هي آلات لهذه الإدراكات ، وأن هذه الإدراكات هي منافع هذه الأعضاء . وكذلك رأى أن يديه للبطش ، ورجليه للمشي ونحو ذلك ، فوقف بذلك على كثير من منافع الأعضاء الظاهرة .

(١) (أ) : للعلوم .

(٢) (ب) : الهوى .

(٣) (ب) : عينه .

(٤) (أ) : تغب .

(٥) (ب) : فقدّها .

(٦) (ب) : ملاقات .

وتشوّف إلى تعرّف منافع ما في داخل البطن^(١) والصدر من الأعضاء ؛ ورأى أن يكون اعتباره لذلك في غيره فصار يشقّ بطون الحيوانات التي يتمكن من إمساكها والتي يصادفها ميتة ، ويفعل ذلك بأظفاره وبما يجده من الأحجار الحادة الأطراف^(٢) وبشظايا القصب ونحو ذلك ، فشاهد المعدة وأن الغذاء ينطبخ فيها ، وأنه ينفذ إليها من المرئ النافذة إليها من الفم ، ثم تتصل^(٣) بأسفل المعدة الأمعاء^(٤) ، وأن منها (ب ٥ و) يخرج تفل الغذاء ، إذ هي متصلة بالخرج ؛ ورأى صفاوة الغذاء ينفذ في العروق المتصلة بالمعدة ، والأمعاء النافذة إلى مقعر الكبد ، وفي الكبد يستحيل خلطا ، ثم ينفذ منها في العرق^(٥) الصاعد من مجنب^(٦) ، الكبد وينقسم في أقسام ذلك العرق حتى ينبث في الأعضاء من أفواه تلك الأقسام ، فعلم لذلك منافع هذه * الأعضاء .

(أ ٢٨ و)

وشاهد القلب في الصدر وبطنه الأيمن مملوء من الدم ، وبطنه الأيسر مملوء من الروح ، وهذا البطن ينقبض فتنفذ تلك الروح في الشرايين إلى الأعضاء ثم ينبسط فترجع تلك^(٧) الروح إليه ، وحيثذ ينجذب^(٨) إليه الهواء^(٩) من الرئة ، وهي تجذب الهواء^(٩) من خارج فينفذ إليها من الأنف والفم مارا في الحنجرة وقصبة الرئة إلى تجاويف الرئة

(١) (ب) : الباطن .

(٢) - : (ب) .

(٣) (ب) : يتصل ، أما في (أ) فإن الكلمة غير معجمة .

(٤) (ب) : للأمعاء .

(٥) (ب) : العروق .

(٦) (أ) : مجذب .

(٧) - : (ب) .

(٨) (ب) و (ج) : يتجذب . والكلمة غير معجمة في (أ) .

(٩) (ب) : الهوى .

وذلك^(١) إذا انبسطت الرئة^(٢) ، ثم يندفع ما يسخن من ذلك الهواء^(٣) إلى خارج وذلك إذا انقبضت الرئة ، وانقباضها وانبساطها بسبب تحريك * الحجاب وعضلات الصدر لها وذلك بأن ينقبض لذلك الصدر (ب.ه.ظ) وينبسط وبذلك يتم النفس والصوت - فاعلم أن هذه الأشياء هي منافع هذه الأعضاء .

ولم يزل كذلك يستقصى حال عضو عضو حتى وقف على جملة كثيرة من علم التشريح .

وكان من ذلك يتصفح أحوال الحيوانات فيرى منها ما هو جرىء مقدام مفترس كالأسد والتمر والذئب ، ومنها جبان يهرب أمام من يطلب افتراسه أو قبضه ونحو ذلك ، حتى اتضحت له أحوال كثيرة من أحوال الحيوانات ؛ ثم أخذ في التفكير في أمر النبات وتأمل كيف يبدأ النبات من البذر * فرأى البذر ينتفخ^(٤) لُبّه إذا وصلت إليه المادة من الأرض فيلزم (ب.٢٨٨ظ) ذلك انشقاق القشر^(٥) وتبرز شعبة عرقية تمتص المادة من الأرض ويأخذ النبات إلى جهة فوق فيبرز من الأرض . وتأمل أوراق النبات فرأى أنه يمتدّ من أصل الورقة إلى رأسها شيء كالمحور ويمتد منه^(٦) خياطات من الجانبين ينفذ فيها * الغذاء إلى جميع أجزاء الورقة وبها تقوم الأوراق . (ب.٦٠و)

(١) وذلك ... الرئة : - (ب) .

(٢) (ب) : الهوى .

(٣) (ب) : ينفخ .

(٤) - (ب) : .

(٥) (ب) : ذلك .

وتأمل الثار فرأى^(١) بعضها بارزا كما في التين ، وبعضها في غلاف إما قشري كما في الباقلي^(٢) ، أو صدفى كما في البلوط ، أو غشائى كما في الحنطة ، وبعضها فى أكثر من غلاف واحد كما فى الجوز واللوز ، وأيضا بعض الثمار له بذرة واحدة كما فى المشمش واللوز ، وبعضها له بزر كثير كما فى الرمان والقرع ، وأيضا بعض الثمار يكون منفردا كما فى الأترج والجوز ، وبعضها مجتمعاً كما فى العنب ، وتأمل العنب فوجد العنبه بزرها مضاعف وكذلك بزر كل ثمرة فعلم أن ذلك ليقوم أحد الجزأين بالتوليد إذا حدثت للآخر آفة . ثم رأى على كل عنبه بل على كل ثمرة غشاء ، يحفظ وضع أجزائها وشكلها ، ويمنع رطوبتها من سهولة التحلل ، ولحم العنبه ذو عروق ينفذ فيها الغذاء من أصل العنبه* ، وبين تلك العروق (٢٩١ر) رطوبة تملأ* الخلل الذى بينها وذلك لغذاء لب البذرة ، فعلم من ذلك أن (ب٦ظ) وجود جميع أجزاء الحيوان^(٤) والنبات إنما هو لغايات ومنافع ، وأنه ليس شئ منها معطلا وموجودا سدى .

ثم انتقل عن النبات فتأمل أحوال الأجسام العلوية كالمطر والبرد والثلج ، وتفكر فى الرعد والبرق ونحوهما .

ثم انتقل بعد ذلك إلى الأجسام السماوية وشاهد حركاتها ونظام بعضها مع بعض ودورانها ونحو ذلك على ما بيناه فى غير هذا الكتاب .

وحينئذ كان قد تعدى مدة الحُلُم وبقل^(٥) وجهه ، وقوى عقله ، وجاد فكره ففكر فى أن هذه الموجودات هل هى مع إتقان

(١) (ب) : فى أى .

(٢) (ب) : الباقلاء .

(٣) (ب) : الأخرى .

(٤) (ب) : الحيوانات .

(٥) بقل وجه الغلام : خرج شعره .

وجودها^(١) وإحكامه موجودة بذاتها ، أو بموجد^(٢) آخر ، وإذا كانت لموجد^(٣) فما ذلك الموجد ، وكيف حاله ؟ فتشوف إلى معرفة ذلك . وكان قد شاهد كثيراً من الأجسام توجد تارة وتعدم أخرى فعلم أن وجود تلك الأجسام وعدمها كل منهما ، * غير مستحيل وذلك هو الذى (ب ٧ و) نسميه بالممكن ، فرأى أن هذا الممكن ليس يجوز أن يكون وجوده أو عدمه من ذاته وإلا لم يفارقه ذلك الأمر الذاتى ، فهو إذا من غيره ، فهل الفاعل لوجود الممكنات ممكن أو ليس كذلك ؟ فإن * كان ممكناً كان (ب ٢٩١ ط) وجوده من غيره أيضاً وتسلسل ذلك ، فلا بد من الأشياء إلى موجد غير ممكن ؛ إذ لولا ذلك لاجتمعت علل ومعلولات لانهاية لها ، وكانت بجملتها ممكنة أيضاً فكانت محتاجة إلى موجد غيرها والذى هو غير جميع^(٣) الممكنات فهو غير ممكن ، فلا بد وأن يكون واجبا فإذا لابد وأن يكون لهذه الموجودات موجد هو واجب الوجود وذلك هو الله تعالى^(٤) ، ولا بد

(١) وجودها .. بموجد : بذاتها أو لموجد (ب) . (٢) (ب) : لموجود .

(٣) (ب) : عين جمع .

(٤) خلاصة رأى « ابن النفيس » فى هذا الفصل هى :

(أ) أن اكتساب المعرفة يأتي أولاً عن طريق الحواس ، فالعين ترى ، والأذن تسمع ، والأنف تشم ، والتذوق يميز الطعوم ، واللمس وسيلة من وسائل الإدراك ، وعن هذا الطريق تمكن بطل قصته « كامل » من معرفة أعضاء جسمه الظاهرة ووظيفة كل منها .

(ب) ويرتقى الإنسان بعد ذلك إلى اكتساب المعرفة عن طريق التجربة ، وعن هذا الطريق عرف « كامل » أعضاء جسمه الداخلية ووظائف كل منها بما فى ذلك القلب والرئتين والدورة الدموية .

(ج) وعن الطريقين السابقين عرف « كامل » البيئة التى نشأ فيها ، وتعرف على ما بها من نبات وحيوان ، كما أدرك مميزات كل منها وفائدتها .

(د) ويرتقى إدراك كامل من المحسوسات التى حوله ، إلى ادراك ما يمكن له ان يشاهده بالحواس فعرف شيئاً عنه بالعقل ، وبذلك انتقل إلى معرفة « الأجسام السماوية وحركتها ونظام بعضها مع بعض » .

ولا يسهل الباحث المدقق إلا أن يدرك أن « ابن النفيس » كان فى تفكيره هذا متأثراً بكثير من الآيات الكريمة التى وردت فى القرآن الكريم مثل قوله تعالى :

١ - ﴿ أَلَمْ نَجْعَلْ لَهُ عَيْنَيْنِ . وَلِسَانًا وَشَفَتَيْنِ . وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ ﴾ (سورة البلد ٨) .

٢ - ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ ﴾ (سورة الملك ٢٣) .

٣ - ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ (الحل ٤٤) .

٤ - فإذا شب بطل القصة « كامل » ونما عقله واتسع أفق تفكيره ، وأدرك كل ما حوله من الأرض والسماء وما بينهما استطاع بالتفكير الجاد أن يصل إلى أن كل ذلك لابد له من موجد ، وبذلك عرف الله الواحد الأحد ، كما عرف الكثير من صفاته . ولا بد لنا أن نشير فى هذا المقام إلى أن « ابن النفيس » استوحى هذا المنهج من دراسته لما ورد فى القرآن المجيد عن أنبياء الأنبياء « إبراهيم الخليل » .

وأن يكون عالما بكل شيء وإلا لم يكن فعله متقنا ، ولا بد وأن يكون في غاية الاعتناء بكل شيء ، وإلا لم يجب أن يكون كل شيء على أفضل الأحوال الممكنة له ، فظهر لكامل إذا أن لهذه الموجودات * موجدا (ب ٧ ظ) واجب الوجود ، عالما بكل شيء ومعتنيا بكل شيء .

الفصل الثالث

في بيان كيفية وصول المسمى بكامل إلى تعرف أمر النبوات

إن المسمى بكامل لما بلغ في المعرفة إلى الحد الذي ذكرناه ، وكان
إذ ذاك قد تهذب ذهنه وقد قارب^(١) الشيبة ، فأراد أن يعرف ماحق
الخالق على عبادته^(٢) ففكر هل الخالق تعالى مما ينبغي أن يعبد وأن يُطاع ؟
وما الطريق إلى تعرف العبادة اللائقة بجلاله ؟ وبقي يفكر^(٣) في ذلك
مدة ، واتفق أن الريح أَلقت إلى تلك الجزيرة سفينة فيها خلق * كثير من (٣٠١)
التجار وغيرهم ، وأقاموا هناك مدة لأجل إصلاح تلك السفينة مما نالها
بقوة^(٤) ضرب الرياح لها ، وانتشر أهلها في تلك الجزيرة يحتطبون ويحجون
من ثمارها ، فلحظهم كامل ونفر منهم أولا ، ولم يزل يدنو منهم قليلا قليلا
مع حذر حتى شاهدوه ، فهاهم عَظُمُ بدنه واستدعوه ففر^(٥) منهم ،
فألقوا إليه^(٦) شيئا من الخبز ومن طعام كان معهم * فلما أكله استطابه (ب ٨٠)
جدا ، لأنه لم يكن قبل ذلك أكل غذاء صناعيا^(٧) ، ثم تأنس بهم فألبسوه
ثوبا ، وأكل من أطعمتهم فأعجبه ذلك .

واجتهدوا في تعليمه اللغة فتعلم كثيرا منها ، وأخبروه بأحوال
مدنهم وما يؤكل فيها فتعجب من ذلك إذ كان يظن أنه ليس سوى تلك
الجزيرة أرض ، وأحب السفر معهم فحملوه إلى مدينة بالقرب من تلك
الجزيرة فأكل من أطعمة أهلها ولبس ملبوسهم فالتذ بذلك لذة عظيمة .

(٥) (ب) : نفر .

(٦) (ب) : له .

(٧) (ب) ضياعيا .

(١) (ب) : فارق .

(٢) (ب) عبده .

(٣) (ب) مفكرا .

(٤) (ب) : من قوة .

وتذكر ما كان عليه من سوء العيش لأجل دوام التعرّى في البرد والحر ، والاقتصار على الأغذية الطبيعية ، ووصول الحيوانات إليه ونهشها له كل وقت ، فعلم أن الإنسان لأجل فقدانه السلاح الطبيعي واحتياجه إلى غذاء صناعي ليست تجود عيشته إذا^(١) انفرد بنفسه بل ولا بد وأن يكون * الإنسان مدنيا حتى يكون مع جماعة يكون لبعضهم (أ ٣٠٤ ظ) أن يزرع وللآخر^(٢) * أن يحرق وللآخر^(٣) أن يخبز وللآخر^(٤) أن ينقل (ب ٨ و) المادة وللآخر^(٥) أن يخطط الثوب ونحو ذلك .

ثم تفكر فقال في نفسه : وإذا الإنسان يحتاج في جودة^(٦) معيشته إلى ذلك فهو لا محالة محتاج إلى وقوع معاملة كبيع وإجارة ونحوهما ، وهذه المعاملة تؤدي إلى المنازعة ، وكل أحد يرى أن ماله حق وما عليه باطل ، فلذلك إنما تجود^(٧) معيشة الإنسان بأن^(٨) يكون مع جمع^(٩) بينهم شرع محفوظ تنقطع به المنازعة وإنما يمكن^(١٠) ذلك بأن يكون ذلك الشرع مما يتلقى بالطاعة والقبول وإنما يكون ذلك إذا اعتقد أنه من الله تعالى ، وإنما يكون ذلك إذا كان وروده من شخص يصدق الناس في إخباره أنه من الله تعالى ، وهذا الشخص ليس يمكن^(١١) أن يكون حيوانا^(١٢) غير إنسان فإن غير الإنسان من الحيوانات لا نطق له ألبتة فضلا عن أن يكون مبلغا

(١) (ب) و (ج) : إذ .

(٢) (ب) : لآخر .

(٣) (ب) : في جميع وجود .

(٤) (ب) : تجود معيشته بأن .

(٥) (ب) : جمعهم .

(٦) (ب) : يكون .

(٧) (ب) : يمكن حيوانيا .

لشرع ، ولا يمكن أن يكون مما لا يقوى أكثر الناس على الاحساس به
كالمملك * أو^(١) الجن وإلا لم يتمكن الجمهور من سماع الشرع منه فلذلك (ب ٩ و)
لا بد أن^(٢) يكون هذا الشخص إنسانا .

ثم تفكر فقال : وإذا كان هذا المبلغ إنساناً فلا بد وأن يكون مختصاً
بأمر لأجله يصدقه الجمهور^(٣) وغيرهم في إخباره * أن ما جاء به هو من (أ ٣١ و)
عند الله ، وإنما يكون كذلك^(٤) إذا كان مختصاً بأمر يُعلم معه^(٥) أنه لولا
اتصاله بالله وتعالى وصدقه^(٦) فيما يخبر عنه^(٧) لم يكن له ذلك ، وهذا الأمر
هو الذى يسمى بالمعجز ، فإذا^(٨) لا بد وأن يكون هذا الشخص ذا معجز
يشعر الأنفس معه أن ما جاء به ليس بزور ولا باطل بل هو حق من عند الله
تعالى ، والشخص الذى له ذلك هو النبى صلى الله عليه وسلم ، فعلم
لذلك كامل أن جودة عيشة الإنسان إنما تتم بوجود هذا النبى صلى الله عليه
وسلم ، فوجوده خير عظيم للإنسان^(٩) ونفع عام ، والله تعالى يعلم ذلك
^(١٠) فواجب بحسب عنايته وجود^(١٠) هذا النبى صلى الله عليه وسلم ، إذ
من * المستحيل أن يترك الله تعالى خلقه هذا النبى مع نفعه العام ومع (ب ٩ ظ)
ذلك فإنه لا يهمل خلقه شعر العانة ونحوه مما يقل نفعه ، فلذلك علم كامل

(١) (ب) : و .

(٢) (ب) : وأن .

(٣) (ب) : الناس .

(٤) (ب) : ذلك .

(٥) (ب) : منه .

(٦) (ب) : وتصدقه .

(٧) (ب) : يخبر به عنه .

(٨) (ب) : وإذا .

(٩) - : (ب) .

(١٠) (ب) : فواجب يجب وجود .

أن خلقه ^(١) النبي صلى الله عليه وسلم مما لا بد منه ، ثم تفكر بعد ذلك في
منفعة النبي صلى الله عليه وسلم ^(٢) فرأى أن له ثلاث منافع :

إحداها : ^(٣) أنه يبلغ الناس شرع الله عز وجل كما ذكرناه .

وثانيها : ^(٤) أنه يعرف الناس بجلال الله تعالى ^(٥) وبسائر صفاته .

وثالثها : ^(٦) أنه يعرفهم حال المعاد وما هو معد لهم في الدار
الآخرة من السعادة والشقاوة ^(٧) .

ثم تفكر بعد ذلك كامل وقال إن هذه الأشياء مما يعسر على طبائع
كثير من الناس * قبولها إذ كثير من الناس يعسر عليهم تسليم وجود ^(أ ٣١ ط)
ما هو ليس بجسم ولا قوة في جسم ولا هو في جهة ولا إليه إشارة ، وكثير
منهم يعسر عليه ^(٨) تصور كيفية ^(٨) الرسالة وكيفية بعثة الأنبياء صلوات
الله عليهم وسلامه ، وكثير منهم يعسر عليه تسليم ^(٩) * أمر المعاد وتسليم ^(ب ١٠ و)
العودة ^(١٠) بعد الموت ^(١١) وتسليم البقاء الأبدى في النعيم أو في الجحيم ونحو
ذلك مما تتضمنه تلك المنافع ، ولولا أن الناس في هذا الزمان قد اعتادوا ما
جاءت به الشريعة وألفوا ^(١٢) أقوالها لبادروا بالاستنكار ^(١٣) والرد على

(١) (ب) : خلقه هذا .

(٢) صلى ... وسلم : - (أ) .

(٣) (ب) : أحدها .

(٤) (ج) : ثانيها .

(٥) - : (ب) .

(٦) (ج) : ثالثها .

(٧) انظر تعليقنا على حاجة الناس إلى الأنبياء في آخر هذا الفصل بالهامش .

(٨) (ب) : عليه كيفية تصور .

(٩) - : (ب) .

(١٠) (ب) : العود .

(١١) (ب) : الممات .

(١٢) (ب) : ألفوا .

(١٣) (ب) : في الانكار .

الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه ، وإذا كان قبول هذه الأشياء عسرا ، فلو ورد النبي صلى الله عليه وسلم بها دفعة^(١) من غير أن يتقدمه أنبياء آخر يقربون أكثر ذلك إلى أذهان الناس لنفر^(٢) الناس عنه جدا وكان تكذيبهم له شديدا ، فلذلك ينبغي أن يرد أولا أنبياء^(٣) بما هو من هذه الأشياء أسهل قبولا ،^(٤) والحاجة إليه في جودة بقاء الإنسان وجودة معيشتة^(٥) أمس ، وذلك هو تبليغ^(٦) الناس شرع الله عز وجل ، ويكون الوارد أولا واردا بما هو من ذلك قريب إلى^(٧) العقل ليكون قبوله أسهل والنفرة عنه أقل ، وكلما جاء نبي آخر زاد على المتقدم حتى يستوفى ما يحتاج إليه من الشرع ، * وحيث أن يكون الناس قد عرفوا الله بوجه ما ، واشتاقوا إلى^(٨) التعرف صفاته^(٩) وخصائصه فيسهل عليهم قبول ما يرد به الأنبياء المتأخرون من ذلك .

ثم إذا عرف الناس^(٨) صفات الله تعالى وجلاله وتحققوا قدرته التامة لم يعسر عليهم التصديق بأحوال المعاد وما يشتمل عليه من السعادة والشقاوة الأبديتين^(٩) فلذلك يسهل عليهم تصديق من^(١٠) يأتي بعد ذلك من الأنبياء بذلك فلذلك اعتقد كامل أنه ليس يمكن أن يكمل^(١١) الغرض من النبوة بنبي واحد بل ولا بد من أنبياء يأتي سابقهم بما يدرج الناس إلى معرفة^(١٢) ما يأتي به المتأخر ، ولا بد^(١٣) وأن يكون كل متأخر

(١) (ب) : دفعت بالناء المفتوحة . وانظر ما ذكرناه عند التعليق على انكار الفلاسفة للبعث بالأجسام .

(٢) (ب) : ليفر .

(٣) - : (ب) .

(٤) (ب) : قولاً .

(٥) (ب) : عيشتة .

(٦) (ب) : يبلغ .

(٧) (ب) : من .

(٨) صفاته ... الناس : - (ب) .

(٩) (ب) : الأبدية .

(١٠) (أ) : ما .

(١١) أن يكمل : - (ب) .

(١٢) (ب) : معرفته .

(١٣) (ب) : فلا بد .

منهم يأتي بما أتى به^(١) السابق وزيادة حتى يُكْمَل فائدة النبوة عند آخرهم ، فلذلك يحتاج الآخر منهم أن يكون عالما بجميع ما أتى^(٢) به السابقون ، و متمكنا من تبليغ جميع ما بلغه السابقون فلذلك لابد وأن يكون النبي الذي هو خاتم النبيين أفضل الأنبياء وأقومهم بما يحتاج إليه في أمر النبوة ، وكذلك ينبغي أن يكون كل متأخر من النبيين أفضل ممن^(٣) قبله ، ولكن ذلك إنما يلزم * إذا^(٤) لم يعرض للناس تغيير يقتضي خلاف (ب ١٢ ر) ذلك ، فإنه قد^(٥) يبلغ الأمر بالنبي الآتي في زمان ما إلى أن يقارب^(٦) * (أ ٣٢١ ط) درجة الذي تكمل به فائدة النبوة ، ثم بعد ذلك ينقرض أهل ذلك الزمان بغتة^(٧) إما بطوفان^(٨) أو بوباء عام ونحو ذلك ، فيكون القوم الذين يردون^(٩) بعد ذلك في حكم الذين كانوا^(١٠) قبل بعثة الرسل أولا ، فلذلك يحتاج حينئذ إلى إعادة تدرج الناس إلى سهولة قبول الحق ، وذلك بأن يرد أولا نبي يكون في قوته^(١١) كالنبي الذي جاء في أول الأمر ، فلذلك يحتاج حينئذ أن يكون هذا النبي أضعف من السابق عليه ، فهذا الوجه لم يلزم أن يكون كل نبي أفضل ممن سبقه ، إلا النبي الأخير وهو

(١) (أ) : أتى به .

(٢) (أ) : أتى .

(٣) (ب) : بما .

(٤) (ب) : إذ .

(٥) - : (ب) .

(٦) (ب) : يقرب .

(٧) (ب) : بغتة .

(٨) (ب) و (ج) : طوفان عام .

(٩) (ب) : يردون .

(١٠) (ج) : كأئهم .

(١١) (ب) : قومه .

خاتم النبيين فإنه على كل حال يجب أن يكون أفضل ممن سواه لأن النبوة بعده تنقطع فلا بد وأن يأتي بجميع ما يحتاج إليه في تكميل فائدة النبوة ، فلذلك يجب أن يكون النبي الذي هو خاتم النبيين أفضل الأنبياء جميعهم^(١) .

(١) انظر تعليقنا « في معرفة كامل لخاتم الأنبياء صلى الله عليه وسلم » وقد نقل « ابن النفيس » في بداية هذا الفصل بطل قصته « كامل » إلى جزيرة عامرة بالناس حيث المدنية ، والاستقرار في المعيشة ، وهناك استطاع كامل أن يدرك أن العقل البشري لا يستطيع وحده أن يهدي الناس إلى ما يسعدهم في الدارين ، واهتدى إلى أن الله سبحانه أرسل الأنبياء رحمة منه إلى من يشاء من عباده لهدايتهم إلى ما فيه خيرهم وتنظيم معاشهم وحياتهم في الدنيا ، مما يؤدي إلى سعادتهم في الدارين ، وأن الأنبياء رحمة من الله يبشرون وينذرون بأذنه الشعوب التي اختار الله أن يرسلهم إليها . وكان « ابن النفيس » في هذا التوجيه يعارض بعض الفلاسفة كما قلنا من قبل ، وكان يؤيد مبدأ هاماً من مبادئ العقيدة الإسلامية كما ذكرها الله سبحانه في عدة آيات من آيات القرآن المجيد مثل قوله سبحانه مخاطباً خاتم الأنبياء : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَهِيدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِآذَنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا وَنَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللَّهِ فَضْلًا كَبِيرًا ﴾ (الأحزاب ٤٥ - ٤٧) .

كما وصف الله محمداً صلى الله عليه وسلم بقوله : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ (الأنبياء ١٠٧) .

وواضح أن « ابن النفيس » كان معجباً بالفيلسوف المتصوف « ابن طفيل » وبنهجه في كتاب « حَيّ بن يقظان » ولذلك اقتدى به في كتابه « الرسالة الكاملة في السيرة النبوية » ولذلك نرى تشابهاً في بعض الحوادث في القصتين وبخاصة في القسم الأول من كتاب « ابن النفيس » حيث وصلاً إلى بعض الحقائق الهامة ومنها : أن الإنسان إذا استعمل ما أودعه الله فيه من ملكات استطاع الوصول إلى معرفة الخالق دون حاجة إلى لغة يتكلمها ، ولعلهما استوحيا هذا التفكير مما قصه الله العليم في كتابه العزيز عن « أيّ الأنبياء إبراهيم » ، ولكننا نؤكد أن « ابن النفيس » لم يكن في كتابه مجرد مقلد « لابن طفيل » فالتقليد يولد السير في طريق المطابقة ، ولكن « ابن النفيس » كان محتفظاً باستقلال تفكيره وأصالته ، ولذلك نراه في هذا الفصل يعارضه ويثبت في أصالة حجة ، وقوة إيمان حاجة الناس إلى الشريعة لضبط سلوكهم ، وتوجيههم لطريق الخير طمعاً في إحسان الله ، وخوفاً من عقابه في الدنيا والآخرة .

* الفن الثاني

في كيفية توصل كامل إلى معرفة السيرة النبوية

- وكلامنا في هذا الفن يشتمل على عشرة فصول^(١) :
- [الفصل الأول : في نسب هذا النبي الذي هو خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم .
- الفصل الثاني : في موطن هذا النبي الذي هو خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم .
- الفصل الثالث : في أنه كيف ينبغي أن تكون تربية هذا النبي الذي هو خاتم النبيين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين .
- الفصل الرابع : في حال هذا النبي صلى الله عليه وسلم في شهوراته .
- الفصل الخامس : في هيئة هذا النبي صلى الله عليه وسلم .
- الفصل السادس : في حال هذا النبي صلى الله عليه وسلم في الأمراض ومقدار العمر .
- الفصل السابع : في أولاد هذا النبي صلى الله عليه وسلم .
- الفصل الثامن : في كيفية دعوة هذا النبي صلى الله عليه وسلم للناس إلى أتباعه .
- الفصل التاسع : في اسم هذا النبي صلى الله عليه وسلم .
- الفصل العاشر : في كتاب هذا النبي صلى الله عليه وسلم^(١) .

(١) ما بين المعقوفين إضافة لتنسيق النص وتيسير الإفادة منه ، وقد اعتمدنا فيه على عناوين الفصول كما وضعها المؤلف .

الفصل الأول

في نسب هذا النبي الذي هو خاتم النبيين
صلى الله عليه وسلم

قال فاضل بن ناطق : ولما تبين للرجل المسمى بكامل أن هذا النبي
صلى الله عليه وسلم يجب (١) أن يكون أفضل * النبيين (٢) وأعلمهم تفكر (٣٣١ و)
بعد ذلك فقال في نفسه (٣) : إن هذا (٣) يجب أيضا أن يكون عند (٤) الناس
بهذه المنزلة ، لأنه لو لم يكن كذلك لم يمكن في نفوس الناس من استعظامه
ما يسهل عليهم الإذعان لقبول ما يخبر به ، لأن هذا يشتمل إخباره عن
أشياء كثيرة مما لا يقبلها أو هام الناس ، لأنه يخبر بتفاصيل الشريعة ،
وبجميع صفات الله تعالى ، وبتفاصيل أحوال المعاد ، فلو لم يكن عند
الناس بالمنزلة العظيمة جدا لم ينقادوا لقوله ؛ ولا كذلك باقي الأنبياء عليهم
السلام * وإنما يكون هذا (٥) النبي عند الناس كذلك (٦) إذا كان نسبه (ب ١٣ و)
شريفا جدا ، وأشرف النسب ما كان إلى أولى الدين ، وأشرف ذلك ما
كان إلى النبيين ، وأشرف ذلك ما كان إلى العظماء من الأنبياء ، وأفضل
ذلك ما كان إلى نبي قد اتفقت الملل على تعظيمه لأنه لو كانت له ملة
تعاديته (٧) لكانت تلك الملة تنفر عن المنسوب إليه ، فكانت تحمل الناس
على (٨) الامتناع من قبول أخباره ، والنبي (٩) الذي هو كذلك (٩) هو

(١) (ب) : وجب . (٢) (ب) : الأنبياء .

(٣) (ب) : إن هذا يجب أن يكون أفضل الأنبياء وأعلمهم تفكر بعد ذلك فقال في نفسه : إن هذا يجب .

(٤) (ب) : عنه . (٥) (ب) : هنا .

(٦) (ب) : بذلك . (٧) (ب) : تعاونه .

(٨) (ب) : عن . (٩) (ب) : والنبي صلى الله عليه وسلم وكذلك .

ابراهيم عليه الصلاة والسلام لأنه مع جلالته في نفسه قد اتفقت الملل على تعظيمه ، فلذلك يجب أن يكون خاتم النبيين منسوباً إلى ابراهيم صلوات الله على الجميع .

ويجب أن يكون هذا النبي صلى الله عليه وسلم غير منتسب أولاً إلى ملة غير * ملته (١) فلا يكون أولاً يهودياً ولا نصرانياً ولا مجوسياً ونحو (٣٣١ ظ) ذلك ؛ لأنه لو كان من أهل ملة لكان - عند دعواه النبوة [والدعوة] (٢) إلى الدين * الذي يُحْدِثُهُ - كافراً عند (٣) تلك الملة ، لأنه يكون قد خرج (ب ١٣ ظ) عن دينهم فيكون عندهم مبتدعاً كافراً (٣) وذلك مما يدعوهم إلى تنفير الناس عنه حتى (٤) ولو كان مُقَرَّرًا لدين الملة كما جرى لعيسى عليه السلام مع اليهود ، فكيف (٥) إذا (٦) نسخ دين تلك الملة وبذله ؟ فلذلك يجب أن يكون خاتم النبيين ليس منسوباً في أول أمره إلى ملة أخرى ، فلذلك يجب أن لا يكون من نسل يعقوب أو العيص عليهما السلام : لأن (٧) من ينتسب إلى يعقوب عليه السلام إن لم يكن يهودياً فهو كافر خارجي أعني بذلك قبل بعثة خاتم النبيين ، وإن كان يهودياً كان منسوباً إلى ملة اليهود ، وقد تبين أن خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم لا يجوز أن يكون كذلك ، فلذلك لا يجوز أن يكون منسوباً إلى يعقوب عليه السلام ؛

(١) ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ النحل ١٢٣ . ﴿مِلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ﴾ الحج ٧٨ .

(٢) [والدعوة] زيادة حتى يستقيم المعنى ، وهي ناقصة في (أ) ، أما في (ب) : «رَدُّهُ النَّاسَ» ، وفي (ج) : «دَعَاءُ النَّاسِ» وهي زيادة من المحققين ، والأفضل ما اخترناه مع اعتبار أنه توجد جملة اعتراضية أوضحناها بين علامتي الاعتراض .

(٣) عند .. كافراً : - (ب) ، لانتقال نظر الناسخ .

(٤) - : (ب) .

(٥) - : (ب) .

(٦) (ب) : إذ .

(٧) (ب) : لا .

ولمثل هذا لا يجوز أن يكون منسوباً إلى العيص^(١) لأن المؤمنين من
المنسوبين إليه قبل البعثة نصارى ؛ فلذلك يجب أن يكون خاتم النبيين صلى
الله عليه وسلم منسوباً إلى إسماعيل عليه السلام^(٢) ، * فلذلك^(٣) يجب أن (ب ١٥٥)
يكون * هاشمياً^(٣) . (أ ٣٤١)

(١) (ب العيص عليه السلام .

(٢) (ب) : السلام ويجب أن يكون منسوباً إلى أشرف الفقراء في الانتساب إلى إسماعيل عليه السلام .

(٣) فلذلك .. هاشمياً : مكررة في (ب) نتيجة طمس في ورقة في أوراق المخطوطة ، وأعيد كتابتها مرة أخرى
في ورقة جديدة .

الفصل الثانى

فى موطن هذا النبى الذى هو خاتم
النبين صلى الله عليه وسلم

إن هذا النبى لما ثبت عند كامل أنه يجب أن يكون أعلم الأنبياء
وأفضلهم ، ففكر فى - أنه - أى الموضع من الأرض ينبغى أن يكون
منها ؟ فقال فى نفسه : أنه يجب أن لا يكون من أهل البر كالأعراب
ونحوهم ، فإن سكان البرارى يجب أن تكون عقولهم وآراؤهم أنقص مما
يكون فى أهل المدن ، فإن أهل البر لا يجدون من^(١) يتشبهون به من العقلاء
بخلاف أهل المدن . فإذا لابد وأن يكون هذا النبى من أهل المدن ،
ويجب^(٢) أن يكون من أهل المدن^(٣) الأشرف فإن أهل المدن الحسيسة
يُستقلون عند الناس ، وفضيلة المدن تكون بأمر : منها اعتدال الهواء ،
ومنها رخاء الأسعار ، ومنها كثرة الثمار ، ومنها كثرة المياه ونحو * ذلك ، (ب ١٥ ظ)
ومنها العظمة الدينية فى نفوس الناس ، وهذا هو أولى الأمور التى بها
ترجع المدينة التى يكون منها هذا النبى صلى الله عليه وسلم . وإنما تتحقق
العظمة الدينية لمدينة^(٣) إذا كانت^(٤) مشتملة على معبد عظيم عند الناس ؛
وأفضل المعابد التى هى كذلك ، ماتوالت عليه الأحقاب ، لأن ما يكون
من المعابد كذلك تكون عظمتها قد استقرت فى نفوس الناس من زمان
طويل جدا ، وأقدم * المعابد هو البيت العتيق - شرفه الله تعالى - فإنه أول (أ ٣٤ ظ)

(١) (ب) : بما .

(٢) ويجب ... المدن : - (ب)

(٣) (ب) : لمدينته .

(٤) (ب) : كانت تلك المدينة .

بيت وضع للناس^(١) ، فلذلك كانت المدينة المشتملة عليه وهى مكة شرفها الله تعالى أشرف البلاد^(٢) ، فلذلك يجب أن يكون خاتم النبيين مولده مكة^(٣) .

ولما ثبت ذلك عند كامل تفكير^(٤) بعد ذلك فى أن هذا النبى صلى الله عليه وسلم هل يقيم بمكة إلى وفاته أو يهاجر عنها إلى مدينة أخرى يموت بها ؟ فقال فى نفسه إن هذا النبى صلى الله عليه وسلم * لما كان خاتم (ب١٦٥) النبيين صلوات الله عليهم^(٥) فالنبوة لا محالة منقطعة بعده ، وإذا كان ذلك وجب أن يكون شرعه^(٦) وعظمته محفوظين جدًا عند الناس ، فإن نسيان ذلك يلزمه بطلان فائدة النبوة : فلذلك يجب أن تُدوّن شريعته وأن يكثر الاشتغال بها وبكلامه وأحواله وسيرته ونحو ذلك أكثر مما فى باقى الأنبياء ، ومما لا بد منه فى حفظ عظمته أن تسن الزيارة إلى قبره حتى يرغب الناس فى ذلك ويسافرون إلى قبره من أطراف البلاد^(٧) ، وإذا كان كذلك وجب أن يكون قبره فى غير مكة :

إذ لو كان بمكة لكانت^(٨) زيارته تقع كالتبعية لزيارة البيت ، فكان يُظن على طول الزمان أن الحج لأجل البيت فقط ويُنسى قبر النبى ﷺ ، (ج٣٥١) فيؤدى ذلك إلى * نسيانه ﷺ * ويلزم لذلك بطلان الشريعة . (ب١٦٥ ط)

(١) ﴿ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ . فِيهِ آيَاتٌ مِّمَّا مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا ﴾ (آل عمران ٩٦ ، ٩٧) .

(٢) ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ﴾ (البقرة ١٢٦) .

(٣) (ب) : بمكة .

(٤) (ب) : يحيط .

(٥) (ب) : عليهم أجمعين .

(٦) (ب) : شريعته .

(٧) روى البخارى أن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم حَبِّبْ إلينا المدينة كحبنا مكة أو أشد ، وصَحِّحْها وبارك لنا فى صاعها ومدها ، وانقل حُمَاهَا فاجعلها بالجحفة » (انظر فتح البارى : ٧ / ٢٦٠ ، المطبعة السلفية) .

(٨) (ب) : لكان .

فلذلك ينبغي أن يكون قبره في بلد آخر حتى يكون السفر إليه لقصده فقط فيدوم حفظ عظمته ، وإنما يكون قبره في بلد آخر إذا حصل هو في ذلك البلد ومات فيه .

ففكر بعد ذلك كامل في أن حصول هذا النبي صلى الله عليه وسلم في البلد الذي يموت فيه ما الذي ينبغي أن يكون سببه ؟ فرأى أن ذلك لا يمكن أن يكون لأجل طلب المال بالتجارة ونحوها ولا لطلب^(١) طيب هواء ذلك البلد ، أو كثرة فاكهته^(٢) أو رخاء سعره أو كثرة المياه فيه ونحو ذلك ، فإن ذلك كله مما لا يليق قصده بمنصب النبوة خاصة هذا^(٣) النبي العظيم .

بل ولا يجوز أيضا أن يكون خروجه من مكة شرفها الله تعالى عن اختيار منه ، وإلا كان مختارا للخروج من الموضع الأفضل الى ما هو دونه ، وذلك مما لا يليق بالعقلاء فضلا عن هذا النبي صلى الله عليه وسلم ، فلا بد أن يكون خروجه * من مكة اضطرارا ، ولا يمكن أن (ب ١٨ و) يكون ذلك على سبيل النفي ، فإن ذلك لا يليق بعظماء الناس ويحط^(٤) من المنزلة ، ولا يمكن أيضا أن يكون على سبيل الهزيمة^(٥) في القتال^(٦)

(١) (ب) : يطلب .

(٢) (ب) : فاكهة .

(٣) - : (ب) .

(٤) (ب) : يحيط .

(٥) (ب) : الهزيمة من الكفار .

(٦) في القتال : - (ب) .

ونحو ذلك ، فإن ذلك يحيط^(١) بمنزلته^(٢) فلذلك إنما يمكن ذلك بأن^(٣) يكون على وجه يدل على عظمته * في نفسه ومهانة الكفار ، (٣٥١ظ) وذلك بأن^(٣) يجتمع عدد كثير منهم ويتفوقون على قتله سرقة وخفية وفي حال نومه ، ويخرج هو كالفارّ من ذلك فإن هذا الخروج يدل على أمور :

أحدها : ذل الكفار ومهانتهم حتى يكون القاصد لقتل واحد خلق كثير منهم مجتمعين ، فإن هذا إنما يفعل غالبا إذا كان القاتلون ضعفاء جدّا ، وكان المقصود قتله عظيم الشأن كالملك العظيم أو الشجاع القوى البأس .

ثانيها : عظمة شأن النبي صلى الله عليه وسلم إذ لم يجسر عليه واحد أو اثنان فقط .

وثالثها : اطلاعه على الأمر * المغيب الذى قصده الكفار خفية (ب ١٨ ظ) وذلك من جملة المعجزات .

فلذلك يجب أن يكون خروج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة - شرفها الله تعالى - على وجه يجتمع^(٤) عدة من الكفار ليقتلوه خفية ، فيخرج هو بإطلاع الله له على كيدهم .

وإذا خرج النبي صلى الله عليه وسلم من مكة فلا بد وأن يعود إليها ، وأن^(٥) يملكها لأنه - كما تعلّمه بعد - لا بد وأن يوجب الحج إليها

(١) (ب) : يحيط .

(٢) (ب) : منزلة .

(٣) (ب) : أن .

(٤) (ب) : يجتمع .

(٥) أن : - (ب) .

فيكون حجها واجبا عليه أيضا ولا يمكن دخوله فيها وهي^(١) في أيدي الكفار وإلا كان دخوله فيها^(١) على وجه يكون كأنه في ذمتهم^(٢) وذلك مما لا يليق بمنصبه فلذلك لا بد وأن يدخل^(٣) إليها وهي ملكة وأيضاً * لو لم يملكها لكان لأصحابه إذا أوجب الحج إليها أن يقولوا وكيف يجب علينا التوجه إلى موضع لعله لا يؤذن لنا في الدخول فيه ؟ فلذلك يجب أن يعود النبي صلى الله عليه وسلم إلى مكة بعد خروجه منها ، وأن يكون ذلك على وجه يكون هو * ملكها^(٤) . (ب ٢٠ و)

ثم بعد ذلك فكر كامل في المدينة التي ينبغي أن يكون انتقال النبي صلى الله عليه وسلم إليها ، فرأى أن الأولى أن تكون هذه المدينة مختصة بأمر لأجله يليق بهذا النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون قبره فيها ، وذلك كما إذا كانت هي المدينة التي مات فيها والده ليكون قبره إذا مات بالقرب من قبر والده ، وتلك المدينة هي يثرب ، ورأى أن الأولى أن يكون مقام هذا النبي فيها هو^(٥) على وجه يعظم فيها شأنه ، وذلك بأن يكون ملكها ونحو ذلك .

(١) وهي ... فيها : - (ب) .

(٢) في العام السابع للهجرة ، وبعد أن حال الحول على صلح الحديبية دخل النبي صلى الله عليه وسلم مكة ومن معه من المسلمين معتمرين ، وقد غادر زعماء المشركين أم القرى قبل دخول النبي وظلوا بعيدا عنها حتى غادرها الرسول الكريم ومن معه .

(٣) (ب) : يعود .

(٤) في صباح الجمعة عشرين من رمضان سنة ٨ للهجرة دخل النبي والمسلمون مكة منتصرين ورافعين راية التوحيد ، وطافوا حول الكعبة المشرفة ، وحطمت الأصنام .

(٥) - : (ب) .

الفصل الثالث

في أنه كيف ينبغي أن تكون تربية هذا النبي الذي هو خاتم
النبيين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين

ثم إن^(١) المسمى بكامل فكر بعد ذلك في أن هذا النبي كيف ينبغي
أن يُربى^(٢) بعد مولده^(١) فقال في نفسه : إن هذا لما كان خاتم النبيين
وفاضلهم وسيدهم وبه تكمل^(٣) الشريعة ، وبعده ينقطع الوحي ، فلا بد
وأن يكون رسولا إلى الناس كلهم حتى لا تبقى طائفة يحتاجون^{*} إلى بعثة (ب ٢٠ ظ)
نبي آخر^(٤) فلا يكون^{*} هذا النبي خاتم النبيين ، وإنما يكون هذا النبي (ب ٣٦ ا ظ)
صالحا لذلك إذا كان في أخلاقه بغاية الاعتدال حتى يمكنه أن لا ينافر أحدا
من الناس مع اختلاف أخلاقهم وأمزجتهم ، وإنما يكون^(٥) ذلك إذا كان
هذا النبي بغاية الاعتدال في المزاج ، فإن انحراف المزاج إلى أي جهة كان
يلزمه انحراف الخلق إلى ما يناسب ذلك المزاج ، فلذلك يجب أن يكون
هذا النبي صلى الله عليه وسلم بغاية الاعتدال في المزاج والأخلاق^(٦) ،
وإذا كان كذلك وجب أن يموت أبوه أولا ، ثم تموت أمه ، وأن يرضعه
غير أمه ، وأن تكون رضاعته في غير مكة شرفها الله تعالى ، وأن يريه بعد
ذلك وبعد موت أمه أقاربه المقارنون لمنزلة أبيه في الحرمة^(٧) وهؤلاء

(١) إن ... مولده : - (ب) .

(٢) (أ) : يربا .

(٣) (ب) : يحمل (بلا إعجام) .

(٤) - : (أ) .

(٥) (ب) : يمكن .

(٦) ﴿وَأَنَّكَ لَمَلَكٌ مُخَلَّقٌ عَظِيمٌ﴾ (القلم ٤) .

(٧) (ب) : الحرمة .

كالجد^(١) والأعمام ، وإنما قلنا ذلك لأن مزاج كل شخص قريب * من (ب ٢١ و) مزاج أبيه فلا بد وأن يكون مزاج هذا النبي صلى الله عليه وسلم في أول حدوثه كذلك ، فلا يكون بالاعتدال الذى ينبغى أن يكون له ، فلا بد من حدوث أمر آخر يقربه إلى الاعتدال ، ومن جملة ذلك الرضاع فإنه يغير الطباع ، وينبغى أن تكون مرضعته من غير مكة^(٢) لتكون مخالفة للأمزجة^(٣) المكيات ، فيكون مزاجها شديد المخالفة * لمزاج أم النبي صلى (ب ٢٧ و) الله عليه وسلم فيكون تعديلها لمزاجه أكثر ، وكذلك ينبغى أن تكون تربيته أولاً في غير مكة^(٤) لتكون في هواء يخالف^(٥) هواءها فيكون معدلاً لما يقتضيه هواء مكة ، فهذا هو السبب في أن تكون مرضعته أولاً غير أمه ، ويجب أن تكون هذه المرضعة شديدة الشفقة عليه والمحبة له ليكون^(٦) ما يدر من لبنها^(٦) عليه محموداً^(٧) نافعاً له وإنما^(٧) يكون ذلك إذا * حصل لتلك المرضعة به انتفاع كثير ، فلذلك يجب^(٨) أن تظهر (ب ٢١ ظ) عندها^(٨) البركة بعد أخذه .

وأما وجوب أن يريه أولاً غير أبيه فليعتدل بذلك خلقه ، فإن الإنسان يستفيد^(٨) الأخلاق من أخلاق معاشرته ومخالطه ؛ لأن نفس الإنسان من شأنها المحاكاة ، فاستفادة الأخلاق من المرى أولى^(٩) . ولو عاش أبو النبي ﷺ لكان هو المرى له ، فكان يفيد الخلق بالأبوة

(١) قال صلى الله عليه وسلم : « أنا النبي لا كذب ، أنا ابن عبد المطلب » رواه البخارى عن حديث البراء بن عازب من عدة طرق برقم ٤٣١٥ / ٤٣١٦ / ٤٣١٧

(٢) : مكة شرفها الله .

(٣) : الأمزجة .

(٤) قال صلى الله عليه وسلم : « أنا أعرب العرب ، ولدتنى قريش ، ونشأت فى بنى سعد بن بكر ، فأنى يأتينى اللبن ؟ » السيوطى ، الجامع الكبير ٨٥٨٣ ، رواه الطبرانى عن أبى سعد الخدرى .

(٥) : يخالف .

(٦) : ليكون بأيديهن لبنها .

(٧) : محموداً فأفعاله وإنما .

(٨) : يجب أن تكون عنه . وأضيف بالهامش : يظهر .

(٩) : أولاً .

وبالتربية معا^(١) فلذلك كان الأصلح للنبي ﷺ أن يموت أبوه لتعتدل أخلاقه بتعديل^(٢) أخلاق المربين^(٣) له ، ولا يكفى في^(٤) ذلك واحد ، فإن الأخلاق كثيرة التغير^(٥) فيندر^(٦) أن يفى بتعديلها معدل واحد بخلاف المرضعة لأن تغير الأخلاق بالرضاعة شديد ، فيكفى فيه معدل واحد وفي مدة قصيرة ، ولا كذلك المربي ، فإن تغيير^(٧) * (ج ٢٧١) المربي للأخلاق ضعيف * فلذلك إنما يفى بالتغيير إذا طال الزمان خاصة ، (ب ٢٣) وتكثر^(٨) المراضع يضر بالمرتضع ولا كذلك تكثر^(٩) المربي ، وإنما تأخر موت أم النبي ﷺ لأن بقاءها لا يغير الخلق^(١٠) تغيرا^(١١) يزيد^(١٢) على ما توجهه الأمومة زيادة كبيرة^(١٣) ، وذلك لأن الرجال بالطبع ينفرون عن أخلاق النساء ، فهم لا يحاكون أخلاق^(١٤) أمهاتهم كثيرا ، ولا كذلك^(١٥) الأب فإن الابن يحاكي أخلاقه كثيرا .

(٢) (ب) : بتديل .

(٤) - : (ب) .

(٦) (ب) : فيلدر .

(٨) (ب) : وتكثر .

(١٠) (ب) : الأخلاق .

(١٢) (ب) : زائدا .

(١٤) - : (ب) .

(١) - : (ب) .

(٣) (ب) : المربين .

(٥) (ب) : النفس .

(٧) (ب) : تغير .

(٩) - : (ب) .

(١١) (ب) : تغييرا .

(١٣) (ب) و (ج) : كثيرة .

(١٥) (ب) : ولا كذلك ولا كذلك .

الفصل الرابع

في حال هذا النبي ﷺ في شهواته

ثم إن المسمى بكامل فكر في الحال التي ينبغي أن يكون عليها خاتم النبيين ﷺ في أمر الشهوات ، فقال في نفسه : إن هذا لأجل اعتدال مزاجه ينبغي^(١) أن تكون جميع أحواله باعتدال فكذاك ينبغي أن تكون شهواته ، فلذلك^(٢) ينبغي أن تكون شهواته بجملتها متوسطة لكن بعضها الأليق^(٣) بهذا النبي أن تكون خامدة وإلى ضعف كشهوة الأكل ، وذلك لأن قلة الأكل * من سنة الأولياء ، وكثرته من سنن أولى الشره ، وبعضها (ب ٢٣ ظ) الأليق به أن يكون قويا كشهوة الطيب ، وشهوة العبادات ، وشهوة الباه ، أما شهوة الطيب فلأن زيادة الطيب مما ينتفع به الجلوس والمخالطون ويُستعظم صاحبه ، * كما يُكره^(٤) الذي رائحته كريهة ويُستقل ، وأما (أ ٣٨ ر) شهوة الباه فلأن زيادة هذه الشهوة في الرجال محمودة لأنها تدل على قوة الرجولية ، وأما شهوة العبادات فلأن^(٥) هذا النبي ﷺ لا بد وأن يكون اتصاله بالله تعالى شديدا^(٥) فإذا كان في العبادة كان استغراقه فيها شديدا واتصاله بالله تعالى^(٥) حيث ذاما ، وذلك موجب

(١) ينبغي أن ... فلذلك : - (ب) .

(٢) (ب) : لا يليق .

(٣) (ب) : يشكره .

(٤) (ب) : فإن .

(٥) شديدا ... تعالى : - (ب) ، لانتقال نظر الناصخ .

لزيادة اللذة بخلاف غير هذا النبي ﷺ ، وأولى العبادات بذلك الصلاة^(١) لأن التوجه فيها إلى الله تعالى أشد . وإذ كانت شهوة^(٢) هذا النبي ﷺ للباه قوية - وهو منزّه عن أن تكون شهوته هذه لغير النساء فإن ذلك * من سيرة المفسدين والرعاع - فلا بد وأن تكون شهوته هذه (ب: ٢٤و) إنما هي للنساء فلذلك يجب أن تكون عنده نساء كالزوجات وأن تكون مباشرة لهن كثيرة .

(١) قال صلى الله عليه وسلم : « حُبِّبَ إِلَى مِنْ دُنْيَاكُمْ النِّسَاءُ وَالطَّيِّبُ ، وَجَعَلْتُ قِرَّةَ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ » أخرجه أحمد في المسند ، والنسائي ، والحاكم ، والبيهقي من حديث أنس ورمز له السيوطي بالحسن .
(٢) (ب) : وإذ شهوة .

الفصل الخامس

في هيئة هذا النبي ﷺ

ثم إن المسمى بكامل فكر في أن هذا النبي ﷺ كيف ينبغي أن يكون في خلقته ، فقال في نفسه : إن هذا لا يجوز ألفته أن يكون في هيئة بدنه أمر مستنكر ، فلا يكون قصيرا جدا لأن من يكون كذلك يُستحقر فلا يكون ★ في أنفاس الناس عظيما ، وكذلك لا يجوز ألفته أن يكون (أ ٣٨١ ظ) مفرط الطول فإن من يكون كذلك لا بد ولأن ينسب إلى (١) نقص في العقل ، ولا يجوز أيضا أن يكون في بدنه عاهة ، لأن من يكون كذلك يستقل ويتطير (٢) به ، وجميع ذلك يناق الحال التي يجب أن يكون عليها هذا النبي ﷺ ؛ وكذلك لا يجوز البتة أن يكون في ★ وجهه أو في (ب ٢٤ ظ) أعضائه الأخرى (٣) شين أو مرض آخر مما يستقل به أو ينفر عنه ، ولا يجوز أيضا أن تكون أعضاؤه غير متناسبة لأن ذلك إنما يكون بخروج الأعضاء عن الاعتدال ، فلذلك لا يجوز أن يكون بطنه مفرط العظم ، ولا رقبته شديدة الغلظ ، ولا أصابعه مفرطة القصر ، ولا أن يكون وجهه مفرط الطول ، ولا أن يكون فكاه كبيرين (٤) بل يجب أن يكون متناسب الأعضاء متوسط الخصب (٥) فلا يكون مفرط السمن ولا مفرط النحافة ، ويكون بساماً هشاً بشاً ، جيد الهضم والاستمراء قوى الحواس والذهن ، فصيح اللسان ، لأن هذه الصفات هي صفات المعتدلى الأمزجة .

(١) (ب) : إليه .

(٢) (ب) : يُطَيَّر .

(٣) (ب) : الأخر .

(٤) (أ) : كبيرتين .

(٥) (ب) : الخصب .

الفصل السادس

في حال هذا النبي ﷺ في الأمراض ومقدار العمر

ثم إن الرجل المسمى بكامل فكر في * أن هذا النبي ^(١) كيف ينبغي (٣٩١ و)
أن يكون حاله في الأمراض ، فقال في نفسه : إن من الأمراض ما * (ب ٢٦ و)
لا يجوز حدوثها لهذا النبي ﷺ ؛ وذلك كالجنون والصرع ، فإن
صاحب ذلك يُستقل عن أن يُخاطب فضلاً عن أن يؤخذ عنه خطاب الله
تعالى وشرعه ، وكالبرص فإن صاحبه يُنفر من مخالطته ^(٢) ويُستقل ،
وكذلك الجذام والزمانة ^(٣) والعور والعمى ، وأما الأمراض الحارة ^(٤)
كالحميات وكذلك الأمراض الباردة التي لا غائلة ^(٥) لها ولا تُستقبح
كالزكام والنزلة فكل ذلك قد يكثر حدوثه له ، ويجب أن يكون هذا النبي
ﷺ كثير الأمراض ، وتكون أمراضه قصيرة المدة غير شديدة جداً ،
وذلك ^(٦) لأن هذا النبي ﷺ لا بد وأن يكون معتدل المزاج ، وذلك
يقضى أن تكون أمراضه كما قلناه ^(٧) ، وذلك لأن المعتدل ليس فيه ما يقاوم
الواردات مقاومة ^(٨) شديدة ، لأن شدة المقاومات إنما تكون لقوة القوة
على إحالة الواردات ^(٨) إلى طبيعة البدن وإنما يكون ذلك إذا كان للبدن
كيفية غالبية وذلك مما لا يوجد مع الاعتدال * فلذلك لا بد وأن يكون (ب ٢٦ ظ)

(١) (ب) : النبي ﷺ .

(٢) (ب) : مخاطبته .

(٣) الزمانة : مرض يدوم زمناً طويلاً .

(٤) (أ) : الحادة .

(٥) (ب) : غاية . والغائلة : الفساد والشر .

(٦) (ب) : وكذلك .

(٧) (ب) : قلنا .

(٨) مقاومة ... الواردات : - (ب) ، لانتقال نظر الناسخ .

البدن^(١) المعتدل ضعيف المقاومة للواردات ، وجميع^(٢) الواردات هي لا محالة خارجة عن الاعتدال ، فلذلك تكون قوتها على ★ إحالة البدن (٣٩١ظ) المعتدل إلى طبيعتها شديدة ، ويلزم ذلك حصول المرض ، وأما أن هذه الأمراض يسهل برؤها وتفارق بسرعة ، فلأنه يكفى في إزالة أمراض^(٣) المعتدل المزاج ما هو ضعيف القوة من الأدوية وذلك لأجل سهولة قبوله للانفعال لما قلناه .

وأما عمر هذا النبي ﷺ فيجب أن يبلغ فيه الحد الذى يكمل فيه العقل ليتمكن حينئذ حدوث النبوة وذلك هو سن الكهولة ، ولا يجوز أن يبلغ إلى حد يظهر فيه الخرف ونقصان الرأى ، فإن ذلك مما يُستقل معه الإنسان ، فلذلك يجب أن يموت هذا النبي ﷺ بعد انقضاء سن الكهولة وقبل استحكام الشيخوخة ، وذلك يكون في^(٤) ★ الأبدان المعتدلة (ب ٢٧ و) الأمزجة بعد الستين بسنتين أو ثلاث والله أعلم^(٥) .

(١) (ب) : البدل .

(٢) (ب) : جمع .

(٣) (ب) : مرض .

(٤) (ب) : اقى .

(٥) والله أعلم : - (أ) .

الفصل السابع^(١)

في أولاد هذا النبي ﷺ

ثم^(٢) إن المسمى بكامل فكر في أن هذا النبي^(٣) هل ينبغي أن يكون له أولاد أو ليس ؟ فقال في نفسه : إن هذا لما كان كثير الجماع فلو كان مع ذلك غير مولد لكان ذلك نقصا ، فلذلك لا بد وأن يكون مولدا ، ولما كان مزاجه شديد الاعتدال لم يمكن أن يكون أولاده إناثا فقط ، لأن ذلك إنما يكون لبرد المزاج * ولا أيضا يمكن أن يكون أولاده ذكورا فقط (أ. ٤٠ و) لأن ذلك إنما^(٤) يكون بحرارة^(٥) المزاج ، ولما كان مزاج هذا النبي معتدلا فيجب^(٥) أن يكون له بنون^(٦) وبنات .

وبنوه^(٧) يجب أن لا تطول أعمارهم ، لأن أعمارهم إذا طالت بلغوا إلى سن^(٨) النبوة وحيث لا يخلوا إما^(٩) أن يكونوا أنبياء أو لا يكونوا^(١٠) كذلك ؛ لا جائز^(١١) أن يكونوا^(١٢) أنبياء وإلا لما كان هو

(١) (ب) : الرابع .

(٢) ثم ... النبي : - (ب) .

(٣) (ب) : أما .

(٤) (ب) : لحرارة .

(٥) (ب) : فظهر .

(٦) (أ) : بنين .

(٧) (أ) : وبنه .

(٨) (ب) : شدة .

(٩) - : (ب) .

(١٠) (أ) : يكون .

(١١) الأصوب : لا يجوز .

(١٢) (ب) : يكون .

خاتم النبيين ، ولا يجوز أن يكونوا غير أنبياء * وإلا كان ذلك نقصا في (ب ٢٧ ط)
حقه وانحطاطا عن درجة كثير من الأنبياء ، فإن كثيرا من الأنبياء كان
أولاده^(١) أيضا أنبياء^(٢) ، وأما بنات هذا النبي فيجوز أن تطول أعمارهن
إذ النساء لسن^(٣) بأهل النبوة^(٤) .

(١) (ب) : أولادهم .
(٢) ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ ﴾ الأحزاب - آية ٤٠ .
(٣) (أ) : ليسوا .
(٤) (ب) : للنبوة .

الفصل الثامن

في كيفية دعوة هذا النبي ﷺ للناس إلى اتباعه

ثم إن المسمى بكامل فكر في أن هذا النبي الذي هو خاتم النبيين كيف ينبغي أن تكون دعوته للناس^(١) إلى الحق وإلى متابعتة ، فقال في نفسه : إن هذا قد ثبت أنه لابد وأن يكون عظيم القدر^(٢) جدا عام الرسالة ، وإذا كان كذلك لم يجوز أن تكون رسالته إلى ملك كما أرسل موسى عليه السلام^(٣) إلى فرعون ، إذ لو أرسل إلى ملك فلا يخلو إما أن يخاطبه بالخطاب الذي يليق بالملوك أو^(٤) لا يكون كذلك ، فإذا كان الأول * كان ذلك خطأ لمنزلته ونقصا في حقه ، وإذا كان الثاني عُدَّ سبى^(٥) (أ. ٤٠٩ ظ) الأدب وإستجهل ، فلذلك * جعلت رسالته إلى الناس كلهم و^(٥) على (ب. ٢٩ د) السواء^(٥) ، وينبغي أن تكون دعوته إياهم أولا بلين ورفق واحتمال لما يصدر منهم^(٦) من مكروه^(٧) ، وأما إذا كثّر أصحابه وأحسن^(٨) من نفسه

(١) (ب) : الناس .

(٢) - : (ب) .

(٣) عليه السلام : - (ب) .

(٤) (ب) : و .

(٥) و : - (ب) .

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (سبا ٢٨) .

(٦) ﴿ أَدْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجِدِّ لَهُمْ يَأْتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ (النحل ١٢٥) . ﴿ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ (النحل ١٢٧) .

(٧) (ب) : مكررة .

(٨) (ب) : وأحسن .

بالقوة على المقاتلة فيجب أن تكون دعوته للناس حينئذ بالقهر والسيف ،
وذلك لأن دعوته لو كانت أولاً بالسيف لتعذر عليه ذلك لقلة عدده ،
ولو استمرت دعوته على وجه اللين لكان^(١) زمانه يضيق عن تعميم ذلك
للناس كلهم ، فلذلك يجب أن تكون دعوته^(٢) ﷺ للناس^(٣) أولاً باللين
وأخيراً بالسيف^(٤) .

(١) (ب) : لكأنه .

(٢) للناس : - (أ) .

(٣) (ب) : دعوته للناس ﷺ للناس .

(٤) ﴿ وَأَعْلُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخِرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُبْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفِّ إِلَيْكُمْ اللَّهُ وَأَنْتُمْ لَا تَظْلُمُونَ ۚ وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ (الأنفال ٦٠ - ٦١) .

الفصل التاسع

في اسم هذا النبي ﷺ

ولما^(١) ثبت عند كامل وجوب عظمة هذا النبي ﷺ^(١) عند الناس وجب أن لا يكون في اسمه أو^(٢) اسم أبيه أو جده ما يحط^(٣) قدره وينقص منزلته ، فلذلك لا يجوز أن يكون^(٤) اسمه اسم شيء محتقر مثل زبلة أو كلب أو ثور و^(٥) نحو ذلك مما جرت عادة^(٦) العرب بالتسمية به ، بل ولا يجوز أن يكون اسمه اسما مصغرا * مثل حُميد أو سُلَيم أو عُبيد فإن ذلك (ب ٢٩ ظ) أيضا مما تستصغر معه المنزلة ، ولا يجوز أيضا أن يكون اسمه * مما فيه (أ ٤١ و) كبرياء^(٧) وزيادة تعظيم كشاهنشاه^(٨) ، وشاه ملك ، ونحو ذلك^(٩) .

(١) ولما ... وسلم : - (ب) ، لانتقال نظر الناس .

(٢) (ب) : و .

(٣) (ب) : يحط .

(٤) : أن يكون : - (ب) .

(٥) (ب) : أو نحو .

(٦) (ب) : عادت .

(٧) (ب) : كبر .

(٨) (ب) : كشاه . وفي الهامش ومعناه سلطان .

(٩) قال صلى الله عليه وسلم : « إن لي خمسة أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله به الكفر ، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي ، وأنا العاقب الذي ليس بعده نبي » مسند أحمد ٤ / ٨٠ ، وصحيح الترمذي ١٣٧ / ٢ ؛ وانظر « سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد للصالحى ج ١ ص ٤٩٤ .

الفصل العاشر

في كتاب هذا النبي ﷺ

. ثم إن المسمى بكامل فكر في أن هذا النبي ﷺ (١) هل ينبغي أن يكون له كتاب أو ليس ؟ وإذا كان له كتاب فكيف ينبغي أن يكون ذلك الكتاب ؟

فرأى (٢) أنه ينبغي أن يكون له كتاب (٣) ، لأن من يأتي من الأنبياء بغير كتاب فهو أصغر منزلة ممن له كتاب .

ولما كان هذا النبي خاتم النبيين وجب أن تكون الحاجة الى حفظ شريعته أكثر وذلك لأن النبوة بعده منقطعة ، فلو نُسِيَ شرعه لفُقد الشرع أصلاً لتعذر حدوث شرع جديد ، فلذلك لابد وأن تكون الحاجة الى حفظ شرع هذا النبي ﷺ أكثر من حفظ شرع غيره (٤) ، وإنما يكون ذلك إذا كان كتابه مما تتوفر (٥) الدواعي * على حفظه (٦) ، وإنما يكون (ب ٣٠ ر) ذلك إذا كان من الفصاحة والبلاغة على أفضل الوجوه فلذلك كان القرآن العزيز في غاية الفصاحة (٧) .

(١) صلى ... سلم : - (أ) .

(٢) (ب) : في أي .

(٣) ﴿ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ﴾ (آل عمران ١٦٤) .

(٤) ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُزَلُّهُ الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ (الحجر ٩) .

(٥) (ب) : نؤمن .

(٦) (أ) : حفظه ، وإنما يكون ذلك إذا كان تأليفه للذيلاً جداً .

(٧) ﴿ قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ (الإسراء ٨٨) .

الفن الثالث

في بيان كيفية تعرف كامل لسنة النبي ﷺ

وكلامنا في هذا الفن يشتمل على بابين :

الباب الأول : فيما يأتي به هذا النبي ﷺ من التكاليف العلمية .

(١) الباب الثاني : فيما يأتي به هذا النبي ﷺ * من التكاليف (أ١٤١ ظ) العملية (١) .

أما (٢) الباب الأول فإن كلامنا فيه يشتمل على فصلين :

(٣) [الفصل الأول : فيما يأتي به هذا النبي صلى الله عليه وسلم من صفات الله تعالى

الفصل الثاني : فيما يأتي به خاتم النبيين في أمر المعاد] (٣) .

(١) الباب الثاني ... العملية : - (ب) .

(٢) (ب) : وأما .

(٣) ما بين المعرفين إضافة لحسن تنسيق النص .

الفصل الأول

فيما يأتي به هذا النبي ﷺ من صفات الله تعالى

قال (١) فاضل بن ناطق : إن المسمى بكامل حين (٢) بلغ في العمر قرب (٣) آخر الشببية فكر فيما ينبغي أن يأتي به خاتم النبيين ﷺ (٤) من صفات الصانع تعالى ، فرأى أنه ينبغي أن يعرف الناس أن لهم صانعا ، وأن هذا الصانع من البهاء والجلالة إلى حد لا نهاية له ، وأنه يجب أن يطاع وأن يُعبد وأنه لا إله إلا هو ، وأنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (٥) ونحو ذلك مما يليق بجلال الله تعالى من (٦) القدرة التامة والقوة الكاملة (٧) ، ومع ذلك فإن هذا النبي لا يُظهر أن وراء ذلك شيئا (٨) أخفاه ، ولا يكلف الناس ما لا يسهل عليهم الوقوف عليه مما يعسر قبول الفهم (٩) له كما لو (١٠) قال : إن الله تعالى ليس في داخل العالم ولا هو في خارجه ، وإنه ليس بجسم ولا بمحسوس ، ولا هو في جهة ، ولا إليه إشارة حسية (١١) فإن هذه الأشياء ونحوها لو صرح بها النبي ﷺ (١٢)

(١) (ب) : فان ، وصوبت بالهامش .

(٢) (ب) : حتى .

(٣) (ب) : قريب .

(٤) صلى سلم : — (أ)

(٥) سورة الشورى الآية ١١ ، وفي المخطوطين : السميع العليم .

(٦) (ب) : و .

(٧) ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ (طه ٨) . ﴿هُوَ اللَّهُ الْخَلِيقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ (الحشر ٢٤) .

(٨) في (أ) و (ب) : شيء .

(٩) (أ) ، (ب) ، (ج) : الوهم ، والصواب ما أثبتناه .

(١٠) لو : (أ) ، (ب) ، ناقصة من (ج) .

(١١) (ب) : ختيه .

(١٢) صلى سلم : — (أ) .

فإن لم يشتغل الناس بفهمها^(١) كانت عندهم كالأشياء التي ليس لها^(٢) معاني ، وإن اشتغلوا بفهمها تشوشوا وتحيروا واشتغلوا بذلك عن معاشهم وتدير أحوالهم ، * واختل عليهم نظام شملهم ، فكان ذلك^(أ٤٢) منافيا للمقصود الأول من النبوة ، فلذلك ينبغي أن يكون ذكر النبي ﷺ لهذه الأشياء ذكرا مجملا من غير تفصيل ظاهر ومع^(٣) ومع ذلك فلا يظهر أن * هناك تفصيلاً^(٤) و^(٥) مع ذلك فلا يهمل من التفصيل^(٥) أصلاً^(ب٣٢) بل يجعل في كلامه من الرموز والاشارات ما يفهم الخواص منه تفصيل ذلك كله^(٦) مع اقتصار^(٦) العامة على ما يفهمونه من ظاهره .

(١) (ب) : بفهمها .

(٢) - : (ب) .

(٣) (ب) : ظاهر مع .

(٤) (أ) : تفصيل .

(٥) ومع ... التفصيل : مكررة في (ب) .

(٦) - : (ب) .

الفصل الثانى

فيما يأتى به خاتم النبيين

فى أمر المعاد

ثم شرع كامل فى أمر المعاد ففكر فى أن هذا النبى ﷺ هل يُخبر به أو ليس ؟ وإذا (١) أخبر به فهل يُخبر به على أنه روحانى أو على أنه بدنى أو على أنه من (٢) مجموع الأمرين ؟ وكيف كان ، فهل يذكر أحكامه مفصلة أو ليس ؟ فرأى أنه لا بد لهذا النبى ﷺ (٣) من ذكر المعاد ، ومن تفصيل الكلام فيه ، وذلك لأنه لو لم يفعل ذلك فلا يخلو إما أن يكون قد فعله نبى قبله أو (٤) لا يكون كذلك فإن كان فعله نبى قبله فذلك النبى لابد وأن يكون قد كمل الكلام فى الشرع وفى صفات البارئ تعالى ، لأننا بينا أن الكلام فى المعاد إنما يكون بعد ذلك ، * ولو كان كذلك لما كان إلى هذا (ب ٣٢ ط) النبى حاجة وإن لم يكن فعله نبى قبله * فلا بد من نبى يأتى بعد ذلك (٤٢١ ط) ويفصل الكلام فى المعاد فلا يكون هذا النبى خاتم النبيين ، هذا خلف ، فإذا لابد لهذا النبى ﷺ من ذكر المعاد وتفصيل أحكامه .

ثم فكر كامل بعد ذلك فرأى أن هذا النبى لا يجوز أن يجعل المعاد روحانياً فإن أذهان أكثر الناس تقصر عن درك اللذات والآلام

(١) (ب) : إذ .

(٢) - : (ب) .

(٣) صلى وسلم : - (أ) .

(٤) - : (ب) .

(٥) - : (ب) .

الروحانيّين ، فإنه لو قيل للعامى إنك إذا فعلت العبادات على ما ينبغي وأعرضت^(١) عن هذه^(٢) اللذات المحرمة ، وكانت معاملتك للناس على العدل ، فإن الله تعالى ينقلك إلى عالم لا تأكل فيه ولا تشرب ولا تنكح ولا تلبس ولا تنام بل تكون دائماً في تسبيح وتقديس ومع ذلك فلا تؤثر على ذلك ولا تنقل إلى حالة أخرى ، لكان ذلك العامى يرى أن فقدان هذه السعادة أولى ، ولا كذلك إذا قيل له إنك إذا فعلت ما قلناه فإنك تنتقل إلى مأكل شهى * ومنكح بهى وإن^(٣) هناك من الخمر أنهاراً^(٤) (ب ٣٣ و) وكذلك من العسل ونحو ذلك ، و^(٥) لا يجوز أيضاً أن يجعل المعاد بدنياً فقط ، وذلك لأن البدن بدون النفس معلوم عند الناس أنه إنما يكون كالخشبة لا شعور له بشيء ، وإذا كان كذلك لم تكن له لذة ولا ألم فلا تكون له سعادة ولا شقاوة ، فلا يكون للمعاد جدوى ، فلذلك لا * بد (٣١ و) وأن يجعل هذا النبي ﷺ المعاد مركباً من البدن والنفس معا .

ثم فكر كامل في حقيقة هذا المعاد وكيف هي ، فقال في نفسه : لا شك أن الإنسان مركب من بدن ونفس ، فالبدن هو هذا الشيء المحسوس^(٦) وأما النفس فهي التي يشير الإنسان إليها بقوله أنا ، وهذا المشار إليه لا يجوز أن يكون هو البدن أو أجزاؤه ، فإن كل أحد - فإنه^(٧) - يعلم بالضرورة أنه هو ، من أول عمره إلى آخره ، والبدن وأجزاؤه كل منهما ليس كذلك : فإن بدن الإنسان وهو * طفل ليس هو (ب ٣٣ ظ)

(١) (ب) : أو أعرضت .

(٢) (أ) : هذا .

(٣) (ب) : فإن .

(٤) (أ) ، (ب) : أنهار . وهو خطأ نحوي .

(٥) (ب) : وذلك .

(٦) (ب) : المحسود .

(٧) - : (ب) .

بدنه وهو شيخ ، وكذلك أجزاء البدن ؛ فإن البدن وأجزاءه كل منهما كل وقت في تحلل واغتذاء^(١) فهما لا محالة متبدلان دائماً ، ولا كذلك ما يشير الإنسان إليه بقوله أنا ، فإنه ثابت على حاله دائماً ، وكذلك أيضاً فإن الإنسان يغفل كثيراً عن بدنه وعن أجزائه كالقلب والدماغ ونحوهما ، ومحال أنه^(٢) يغفل عن نفسه وهي^(٣) التي يشير إليها بقوله أنا ، فلذلك لا بد وأن تكون النفس شيئاً^(٤) غير^(٥) البدن ، والبدن لاشك أنه جسم محسوس^(٦) ، ولا كذلك النفس ، فإنها جوهر مجرد إذ يستحيل أن تكون عرضاً ، فإن البدن إنما يتقوم بنفسه ، والأعراض لا تكون مقومة للجواهر^(٧) فلذلك لا بد وأن تكون^(٨) النفس جوهرًا ، ولا بد وأن تكون مجردة عن المادة الجسمانية * وإلا^(٩) كانت جسماً أو في جسم ، ولو (ب ٤٣١ ظ) كانت كذلك لكان ما يحل فيها له وضع وشكل وانقسام ، لأن كل * جسم أو قوة في جسم فإن الحال فيه يعرض له ذلك ؛ ومما^(١٠) يحل في (ب ٣٤ و) نفس الإنسان الإدراكات والعلوم ، فلو كانت^(١١) نفس جسمًا أو جسمانية لكانت تلك العلوم لا بد وأن تنقسم بانقسامها^(١٢) فلا يوجد علم مفرد البتة ، هذا محال ، فإذا لا بد وأن تكون نفس الإنسان مجردة عن

(١) (ب) : أو اغتذاء .

(٢) (ب) : أن .

(٣) (ب) : هو .

(٤) (أ) : شيء ؛ (ب) : شيء .

(٥) (ب) : عن .

(٦) (ب) : جسم محسوس .

(٧) (ب) : مقومة الجواهر .

(٨) - : (ب) .

(٩) (ب) : وإن .

(١٠) (ب) : وما .

(١١) (ب) : كان .

(١٢) (ب) : بأقسامها .

المواد الجسمانية وإذا^(١) كانت كذلك فهي لا توجد قبل وجود المادة
المتزجة التي يكون منها بدن الإنسان ، لأنها لو وجدت قبل هذه المادة لم
يمكن أن تكون واحدة^(٢) ولا كثيرة فلا يكون وجودها إذا ممكنا^(٣) ، أما
إنها لا يمكن أن تكون حيثئذ كثيرة فلأن جميع الأنواع إنما تتكثر أفرادها
لأجل المادة التي تتعلق بها ، فلذلك تكون قبل حدوث^(٤) هذه المادة
غير^(٥) متكثرة^(٦) ، وإما أنها لا^(٧) يمكن أن تكون واحدة فلأنها لو^(٨) كانت
واحدة لكانت الأبدان^(٩) المتكثرة المتعلقة^(١٠) بها مع تكثرها ذوات نفس (ب ٣٤ ظ)
واحدة بالشخص ، فما يحصل لكل واحد من العلوم يحصل لكل ، هذا
محال ، فإذا نفس الإنسان إنما يمكن وجودها بعد وجود المادة المتزجة
مزاجا إنسانيا^(١١) فوجود هذه المادة شرط في وجود نفس الإنسان ،
وهذه * المادة تحدث من المنى ونحوه ، وإذا تعلقت بها النفس ثم أخذت في (أ ٤٤ ر)
الاغتناء وتخليق^(١٢) الآلات حدث من ذلك البدن ، وهذه المادة تسمى
«عَجَب الذنب»^(١٣) ، ومحال أن تُفقد مادامت النفس موجودة وإلا^(١٤)

(١) (ب) : فإذا .

(٢) (ب) : قاصرة .

(٣) (أ) : ممكن .

(٤) (ب) : وجود .

(٥) (ب) : عن .

(٦) (ب) : متكثرة وإنما .

(٧) (ب) : أن .

(٨) (ب) : الأبدان متعلقة .

(٩) (ب) : إنساناً .

(١٠) (ب) : أو تخلق .

(١١) الحديث الشريف « كل ابن آدم يبلى إلا العَجَب » وفي رواية « إلا عَجَبَ الذَّنْبِ » والعَجَب بالسكون هو
العظم الذي في أسفل الصلب عند العجز انظر النهاية في غريب الحديث والأثر لمجد الدين بن الأثير ج ٣ ، طبع
القاهرة سنة ١٩٦٣ ، وقال صلى الله عليه وسلم « كل ابن آدم يأكله التراب إلا عجب الذنب منه تُخلق ومنه
يركب » أخرجه مسلم ، وأبو داود ، والنسائي ، من حديث أبي هريرة ، ورمز له السيوطي بالصحة .

(١٢) (ب) : وإنما .

كانت النفس مستغنية عنها (١) في وجودها . فلا يكون وجود النفس (٢)
متوقفا عليها ، هذا تخلف ، فإذا استحيل فقدان هذه المادة مع وجود نفس
الإنسان .

ونفس الإنسان غير قابلة للعدم لأن كل شيء (٣) يقبل العدم فله
مادة يكون فيها تارة موجودا وتارة معدوما ، وإذا (٤) نفس الإنسان لا مادة
لها فهي غير قابلة للعدم (٥) ، فهذه * المادة التي هي «عجب الذنب» (ب ٣٦ ر)
لا يمكن عديمها ، فلذلك هي تبقى بعد موت البدن وبلاه وتكون النفس
عند بقائها مدركة عالمة ، فيحدث لها حينئذ نعيم وألم وهما اللذان يكونان
في القبر ، فإذا جاء الوقت الذى يكون فيه المعاد نهضت النفس حينئذ
وغذت هذه المادة بجذب المواد إليها وإحالتها إلى مشابها (٦) فيحدث من
ذلك للبدن (٧) كثرة (٨) أخرى ويكون هذا البدن هو ذلك البدن (٩) الأول
بمعنى وحدة هذه المادة فيه مع وحدة (١٠) هذه النفس ، وبذلك يكون

(١) أى عن مادة عجب الذنب .

(٢) (ب) : الإنسان .

(٣) (ب) : ما .

(٤) (ب) : وإذا .

(٥) (ب) : العدم .

(٦) (ب) : مشابها .

(٧) (ب) : البدن .

(٨) (ب) : كثرة .

(٩) هو ذلك البدن : - (ب) .

(١٠) - (ب) .

المعاد ، وتكون النفس بعد ذلك غير تاركة للاغتذاء^(١) ألْبَتَّة ، فلذلك لا يُعَدُّم البدن حينئذ ألْبَتَّة ، أما إذا كان * في^(٢) نعيم فظاهر وأما إذا كان^(٢) (أ٤٤، ظ) في النار فلأن تلك النار كلما احترقت الأجزاء الحادثة التي في ذلك البدن عادت تلك النفس وولدت من المواد التي تغذو بها تلك المادة^(٣) بدنا آخر * . وهذه الأبدان كالحبيطة بتلك المادة فلذلك تسمى جلودا (ب٣٦، ظ) وتتبدل^(٤) هذه الجلود بدوام البقاء في النار .

(١) (ب) : الاغتذا .

(٢) نعيم إذا كان : - (ب) ؛ لانتقال نظر الناسخ .

(٣) (ب) : المواد .

(٤) (ب) : تبدل .

الباب الثاني

فيما يأتي به هذا النبي ﷺ من

التكاليف العملية (١)

وكلامنا في هذا الباب يشتمل

على أربعة فصول

الفصل الأول : في العبادات التي يأتي بشرعها هذا النبي صلى الله عليه وسلم .

الفصل الثاني : في المعاملات التي يأتي بشرعها النبي صلى الله عليه وسلم .

الفصل الثالث : في الأشياء التي ينبغي أن يسنها النبي صلى الله عليه وسلم في تدبير المنزل ونفقة الزوجات والعبيد الأقارب

الفصل الرابع : في العقوبات [(٢)] .

(١) (ب) : العملية .

(٢) ما بين المعقوفين إضافة لحسن تنسيق النص .

الفصل الأول

في العبادات التي يأتي بشرعها هذا النبي
صلى الله عليه وسلم

إن المسمى بكامل حين^(١) كان قد بلغ سنه قرب^(٢) الأربعين سنة
تفكر ، فقال في نفسه ؟ إن هذا النبي صلى الله عليه وسلم لما كان خاتم
النبیین وجب أن تكون الحاجة إلى حفظ جلالته وشريعته أكثر ، إذ نسيان
ذلك يُخَوِّج إلى حدوث شرع ، وهو متعذر بعد انقطاع النبوة ، فلذلك
لا بد وأن يدبر هذا النبي صلى الله عليه وسلم - لبقاء ذلك ودوامه
مادامت السموات والأرض - وجهاً ينحفظ^(٣) به ذلك ، وإنما يمكن
الحفظ بتكرار * الشيء الذي يرام حفظه في الخيال^(٤) فلذلك^(٥) لا بد لهذا (ب ٣٧ و)
النبي من أن يُسَنَّ تكرار ذكره حتى ينحفظ^(٦) هو وعظمته * وشريعته (أ ٥٤ و)
بذلك ، وهذا الذكر قد يكون لازماً لأمر آخر يسنه ، وقد يكون
مقصوداً بنفسه وإذا كان مقصوداً بنفسه فقد يكون في ضمن عبادة^(٧)
وقد لا يكون كذلك .

أما الذكر اللازم لغيره^(٨) فكما يكون في حال الصوم ، فإن الصوم
وإن لم يكن فيه ذكر النبي صلى الله عليه وسلم فإنه يلزمه ذكره ، وذلك

(١) (ب) حتى .

(٢) (ب) : قريب .

(٣) (ب) : يحفظ .

(٤) في (ب) : الخيال ، وفي (أ) الخيال (غير معجمة) وفي (ج) : الأجيال .

(٥) (ب) : ولذلك ..

(٦) (ب) : يحفظ .

(٧) (ب) في المتن : عبادة (بالراء المهملة) ثم صححت في الهامش : لعله عبادة .

(٨) (ب) : أمره .

لأن الصائم إذا ترك الطعام والشراب وهما معتادان فلا بد وأن يكون في نفسه أن فعله لذلك ليس^(١) لا لفائدة بل لفائدة ، وهي^(١) التي وعده بها النبي صلى الله عليه وسلم من رضا^(٢) الله تعالى وثوابه ونحو ذلك ، فلذلك كان الصوم يلزمه ذكر الله تعالى وذكر رسوله صلى الله عليه وسلم فلذلك هو سبب حفظهما .

وكذلك الزكاة فإن * المزكى لا بد وأن يخطر بباله أن إخراج المال (ب ٣٧ ظ) لغيره إنما هو ابتغاء لرضا الله تعالى كما وعده به رسوله^(٣) صلى^(٤) الله عليه وسلم .

وأما الذكر الذى هو في ضمن عبادة فكما^(٥) يكون في الصلاة والحج فإن هذين مع^(٦) اشتغالهما على حركات وأعمال فإنهما يشتملان على ذكر الله تعالى وذكر رسوله .

وأما الذكر المفرد وهو المقصود بنفسه وليس ب لازم لأمر آخر ، ولا داخلا في ضمن آخر ، فهو * ككلمة الشهادتين . فلذلك^(٧) لا بد (أ ٤٥ ظ) وأن يكون شرع هذا النبي صلى الله عليه وسلم^(٨) مبنيا على خمسة أشياء : منها قول^(٩) مفرد كالشهادتين ، ومنها فعل^(٩) بدنى محض^(١٠) وهو^(١١) كالصلاة ومنها ترك بدنى محض^(١٠) وهو كالصوم ، ومنها مالى محض^(١٢) وهو كالزكاة ، ومنها مجتمع^(١٣) من^(١٤) الأمرين أعنى أنه^(١٥) بدنى

(١) ليس ... وهي : (أ) : وفى (ب) : ذلك إنما يكون لأجل الأمور .

(٢) (ب) : ربنا . وصحت بالهامش بخط مخالف . (٩) (ب) : ما إتيانه .

(٣) (ب) : رسول . (١٠) (ب) : مختص .

(٤) - (ب) : . (١١) وهو كالصلاة ... بدنى محض : - (ب) .

(٥) (ب) : وكما . (١٢) (ب) : مختص .

(٦) - (ب) : . (١٣) (ب) : ما يجمع .

(٧) (ب) : فكذلك . (١٤) (ب) : بين .

(٨) صلى ... وسلم : - (أ) . (١٥) (ب) : أعنى به أنه .

ومالى وهو كالحج ، وهذه الأشياء تختلف^(١) فمنها ما إتيانه مُشَقُّ جِدًّا كالحج ، فينبغى أن لا يكلف الناس^(٢) تكرار فعله بل^(٣) يكفى إتيانه فى العمر مرة * ومنها ما إتيانه سهل جدا فيحتمل^(٣) الناس تكراره فى اليوم (ب ٣٩ ر) مرارا كالصلاة ، فلذلك كانت الصلاة^(٤) أكثر تذكارا بالله تعالى وبرسوله فلذلك كانت تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ومنها ما هو بين هذين فى المشقة كالصوم والزكاة فلذلك ينبغى أن يُجعلاً فى العام مرة واحدة .
وأما الشهاداتان فإن اعتقادهما هو الإيمان والإيمان لا ينبغى فقداؤه طرفة واحدة ، فلذلك^(٥) اعتقادهما يجب^(٥) أن يكون مستمرا .

(١) (ب) : مختلفة .

(٢) الناس ... بل : فى (ب) : الناس تكرارها بل بل .

(٣) (ب) : فيحمل .

(٤) - : (ب) .

(٥) فلذلك ... يجب : فى (ب) : فذلك اعتقاده بحيث .

الفصل الثاني

في المعاملات (١) التي يأتي بشرعها (٣) النبي
صلى الله عليه وسلم

ثم إن المسمى بكامل تفكر فيما (٢) ينبغي أن يسنه النبي صلى الله عليه وسلم (٣) من المعاملات فرأى أن اجتماع الناس وتعاشرهم (٤) إنما يتم بأن تكون معاملتهم على الوجه (٥) العدل * فلذلك يجب أن يمنع النبي صلى (أ٤٦١ و) الله عليه وسلم من كل ضرر (٦) ولا يمكن ألبيته من حيف على * أحد (ب٢٩ ظ) فلذلك يجب أن ينهى عن الظلم وأخذ مال (٧) بغير حق وبالباطل ، ويأمر بالمعروف وينهى (٨) عن المنكر ، وكل (٨) أمر يؤدي إلى الاستغناء عن نفع الناس وإلى القناعة بالبطالة ؛ فإنه يجب أن يكون اجتماع الناس على وجه يكون لكل أحد نفع ، فلا يكون فيهم من لا نفع له إلا أن يكون عاجزاً بمرض أو زمانة (٩) ونحو ذلك ، فلذلك (١٠) جميع ما يغني عن تكلف نفع

(١) (ب) : المعاملات التي يشرعها هذا .

(٢) (ب) : بما .

(٣) صلى ... سلم : - (أ) .

(٤) (ب) : معاملتهم .

(٥) (ب) : وجه .

(٦) في (أ) : عرر (مهملة الأعجام) ، وفي (ب) : جور ومن كل غرر . وما أثبتناه به يستقيم المعنى .

(٧) (ب) : المال .

(٨) ينهى ... كل : في (أ) : ينهى عن كل .

(٩) زَمِنَ الشخص مرض زماناً طويلاً ، والقوم زَمْنِي (المصباح المنير) .

(١٠) (ب) : فكذلك .

الناس يجب أن يكون ممنوعا ؛ كالأربا فإن كسبه يغنى عن الاكتساب
بأحداث ما ينتفع به الناس ، وكذلك القيادة^(١) ونحو ذلك .

ويجب أن يسن لهم طريقة يتواطعون عليها لينقطع النزاع بينهم ،
وهذه منها ما يكون في نقل ما يُنتفع به من واحد إلى غيره ، سواء كان
ذلك الانتقال اضطراريا كما في الإرث أو غير اضطرارى وهو في عَيْنِ كما في
البيع ، أو في منفعة كما في الإجارة - ومنها ما يكون * في استقرار ما يُنتفع (ب. ٤٠ و)
به كما في الوقف ، ومنها ما يكون في رفيع الاستيلاء على ما يُنتفع به كما في
العتق ، ويجعل لكل واحد من هذه طريقة على الوجه^(٢) العدل ؛ وينبغي
أن يجعل إرث الذكور أزيد من إرث الإناث ، وإن^(٣) كان الذكور أقدر
على الاكتساب * من الإناث^(٣) وذلك لأن الإناث عند التزواج^(٤) تكون (أ. ٦٤ ط)
نفقتهن على أزواجهن ، وأما الذكور فإنهم عند التزواج^(٤) ينفقون على
أنفسهم وعلى زوجاتهم ، فلذلك حاجتهم إلى المال أكثر من الإناث .

(١) القَوَاد : سمسار الفاحشة ، وهو لفظ مؤلّد ، والقيادة فعل ذلك . (المعجم الوسيط) .

(٢) (ب) : وجه .

(٣) وإن ... الإناث : - (ب) . لانتقال نظر الناسخ .

(٤) (ب) : التزوج .

الفصل الثالث

في الأشياء التي ينبغي أن يسنها النبي صلى الله عليه وسلم

في تدبير المنزل ونفقة الزوجات

والعييد والأقارب

ثم إن هذا المسمى بكامل فكر في أمر النكاح ، وقال في نفسه إن هذا أمر لا بد منه في كثرة وجود الأشخاص للإنسانية^(١) فإن وجود الإنسان ، بالتولد نادر جدًا ، فإذا الجماع أمر لا بد منه في كثرة أشخاص الناس ، فلذلك يجب أن يحث هذا النبي صلى الله عليه وسلم * على وقوعه (ب. ٤٠ ظ) ولكن على وجه يكثر به^(٢) النسل ، فلذلك يجب أن يحرم اللواط والمساخرة لأن ذلك يؤدي إلى الاستغناء عن الجماع للمحبل^(٣) ، ويجب أن يكون وقوع هذا الجماع المحبل على وجه يثبت به النسب ، فلذلك يجب أن ينهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الزنا ، وإن كان مكثرا للنسل^(٤) ؛ لأنه يؤدي إلى فساد حال النسب وإلى أن يأخذ المال بالإرث غير مستحقة ويحرمه المستحقون ، وينبغي أن يجعل عقد النكاح على وجه ظاهر ، فلذلك يمنع من وقوعه ستره^(٥) لأن^(٦) * ذلك يؤدي^(٦) إلى (أ. ٧١ و)

(١) (ب) الإنسانية .

(٢) (أ) : له .

(٣) (ب) : المحبل .

(٤) (ب) : يكثر النسل .

(٥) (ب) : وقوع ستره .

(٦) (ب) : لأن لئلا يؤدي .

تعذر ثبوت النسب لأجل الإرث والنفقة ونحو ذلك ، فلذلك ينبغي الإعلان في الزواج ، ولذلك ينبغي فيه الإشهاد .

ولما كان تكثير الأزواج يؤدي إلى فساد حال النسب ولا كذلك تكثير الزوجات ، فلذلك ينبغي للنبي أن يجوز * للرجال كثرة الزوجات ولا يجوز للنساء كثرة الأزواج .

ولما كان الزوجان قد يكون بينهما نفرة فلا تجود^(١) عشرتهما وجب أن يجعل هذا النبي صلى الله عليه وسلم إلى الفرقة سبيلا ، بل قد يكون الزوجان على مزاج لا يحدث من اجتماعهما ولد ، ولو تزوج كل واحد بغير الآخر يحدث الولد ، فلذلك يجب أن يشرع إلى الفرقة سبيلا ، ويجب أن يجعل هذه الفرقة لأتمهما عقلا ولمن يلزمه في الزواج كلفة وغرامة وذلك هو الرجل ، وليس تُمنع المرأة من ذلك بالتام ؛ فقد^(٢) يكون الزوج معسرا عن النفقة ، فإذا لم تتمكن الزوجة من الفسخ تعذر عليها الاغتذاء .

ولما كان الرجال أقدر على كسب المال والنساء أقوم بتدبير المنزل وجب أن تكون النفقة على الزوج ، وعلى المرأة الإقامة بمنزل الزوج .

وأما العبيد * فلما كانوا في حجر مواليهم وجب أن تكون نفقتهم (ب ٤١ ظ) على مواليهم ، ولمواليهم مطالبتهم بالخدمة بحسب * الإمكان . (أ ٧٤ ظ)

وأما الأقارب فمن كان منهم لا مال له فينبغي أن تكون نفقته على الموسر من أقاربه .

(١) (ب) : يجوز .

(٢) (ب) : وقد .

الفصل الرابع

فيما يسئله النبي صلى الله عليه وسلم

من العقوبات

ثم إن المسمى بكامل تفكر بعد ذلك ، فقال في نفسه : وإذا سن
النبي صلى الله عليه وسلم^(١) الشرع فهل يحتاج أن يجعل من جملة هذا
الشرع أن يكون للناس ملك يحكم عليهم بذلك الشرع ويلزمهم اتباعه أم
يكفى. تفصيل أحكام المعاملات وغيرها والناس يرجعون إلى ذلك
بأنفسهم ؟ فرأى أن من الناس من^(٢) تشتد محبته للظلم فلا يردعه عنه
علمه بنهى الشرع عنه فقط ، بل إنما ينتهى عن ذلك بقاهر يقهره عليه ،
وذلك القاهر إنما يتمكن من ذلك إذا كان مطاع الأمر عند * الناس وذلك (أ٤٢٠)
هو الملك ، ويجب أن يكون لكل مدينة ملك أو^(٣) قائم مقامه وهو نائب
الملك ، ولا يترك الملوك وطباعهم ، فقد يكثر فيهم الجور ، فلذلك
يجعل ، أمرهم إلى واحد يحكم عليهم وذلك هو الخليفة .

ويجب أن ينهى عن كل أمر يؤدي إلى فساد حال النفس أو فساد
حال المال أو فساد حال العقل ، فلذلك يحرم القتل والسرقة والغصب
والسكر^(٤) ، ويجعل لكل واحد من ذلك ونحوه عقوبة تردع * الناس عن (أ٤٨١)

(١) صلى ... سلم : - (أ) .

(٢) (ب) : أن .

(٣) - : (ب) .

(٤) (ب) : المكر .

الإقدام عليه ؛ فيجعل على القتل القصاص وذلك إذا كان عمدا ، أما إذا وقع خطأ فإن القصاص عليه ظلم ، وتركه ولا شيء على الجاني إضاعة للدم ، فلذلك ينبغي أن يسن على ذلك مثل الدية ، وأما السرقة فيجعل فيها مثل قطع اليد فإنها هي التي تنسب إليها السرقة ، وكذلك يجعل على كل مفسدة ما يناسبها ؛ فيجعل على الزاني عقوبة تليق به ، وعلى شارب الخمر عقوبة تليق به ، فإن الخمر * يذهب العقل بإحداثه السكر وذلك (ب ٤٢ ظ) منشأ المفاسد ، فلذلك ينبغي أن ينهى عنه .

وينبغي أن ينوه بتعظيم دينه فيسن على مخالفه^(١) ما يدل على سوء معتقدهم^(٢) فيجعل على بعضهم القتل وهم الشديديو المنافاة للشرعية ، وعلى بعضهم الجزية وهم الذين يقاربون الحق ، ويجعل لما يؤخذ من أموال الكفار ، ولما يؤخذ من المؤمنين ؛ زكاة ونحوها مصارف^(٣) لما ينتفع به الناس مثل رزق الأجناد الحافظين للبلاد^(٤) وكذلك الأئمة والمؤذنين^(٥) ونحوهم ، وكذلك الفقراء والمساكين وابن السبيل ونحو ذلك^(٦) .

(١) (ب) : فليس على مخالفة .

(٢) (ب) : معتقده .

(٣) (ب) : مضافا .

(٤) (ب) : البلاد .

(٥) (ب) : والمؤذنون .

(٦) بعد هذه الفقرة تنتهى مخطوطة دار الكتب المصرية التي رمزنا لها برمز (أ) ، ويختتم ناسخها الكتاب بقوله : «ومن هنا فلنختم هذا الكتاب مستعينين بالله وحده» .

الفن الرابع

في [كيفية وصول « كامل » إلى معرفة الحوادث
التي تكون بعد

وفاة خاتم النبيين صلوات الله وسلامه
عليه وعليهم أجمعين

كلامنا في هذا [^(١) الفن يشتمل على عشرة فصول :

[(١) الفصل الأول : كيفية وصول « كامل » إلى معرفة الحوادث
التي تكون بعد وفاة خاتم النبيين صلوات الله
وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

(٢) الفصل الثاني : في تعرف « كامل » لما يقع بعد موت هذا النبي
صلى الله عليه وسلم من تنازع .

(٣) الفصل الثالث : في كيفية تعرف « كامل » المعاصي التي لا بد
وأن تقع لمة هذا النبي صلى الله عليه وسلم .

(٤) الفصل الرابع : في كيفية تعرف « كامل » لما يحدث لمة هذا
النبي لأجل عصيانهم من العقوبة [^(٢)] .

(١) ما بين المعقوفين إضافة ليستقيم النص .

(٢) ما بين المعقوفين إضافة لحسن تنسيق النص .

[(٥) الفصل الخامس : فى كيفية تعرف « كامل » بحال الكفار الذين يكون لهم عقوبة هذه الملة .

(٦) الفصل السادس : فى كيفية تعرف « كامل » بحال البلاد التى لا يتمكن هؤلاء الكفار من الاستيلاء عليها .

(٧) الفصل السابع : فى كيفية تعرف « كامل » بحال سلطان البلاد التى تبقى لهذه الملة مجاورة لما ينتهى إليه ملك أولئك الكفار .

(٨) الفصل الثامن : فى كيفية تعرف « كامل » بأحوال حفدة الملك المتأخم للكفار وهو الذى تقدم ذكره وأحوال أعوانه وجيرانه من ملوك ملة النبى صلى الله عليه وسلم .

(٩) الفصل التاسع : فى كيفية تعرف « كامل » لما يحدث فى العالم العلوى بعد وفاة خاتم النبيين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين .

(١٠) الفصل العاشر : فى كيفية تعرف « كامل » لما يحدث فى العالم السفلى بعد وفاة خاتم النبيين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين [(١)] .

(١) ما بين المعرفتين ، إضافة لحسن تنسيق النص .

الفصل الأول

في كيفية تعرف كامل لما يقع بين أصحاب هذا النبي
صلى الله عليه وسلم من المنازعة على الخلافة بعد وفاته

قال «فاضل بن ناطق» : ولما تحقق «كامل» ما يحدث لخاتم النبيين
من السيرة ، وما يسنه من الشريعة ، أراد أن يعرف ما * يحدث لأصحابه (ب ٤٤ و)
بعد وفاته فقال في نفسه : لما كان هذا النبي صلى الله عليه وسلم إنما يتنبأ
بعد أن يمضي من عمره أربعون سنة ، وأنه يموت بعد أن يمضي من عمره ما
يزيد على ستين سنة زيادة يسيرة ، فلا بد وأن تكون مدة نبوته قصيرة ،
فلا محالة أنه ليس يتمكن في هذه المدة من تبليغ شريعته إلى جميع الناس ،
فلا بد وأن يكون بعده من يدعو الناس إلى دينه ويلزمهم اتباعه ، وإلا بقي
كثير من الناس بلا شرع واحتاجوا إلى حدوث نبي آخر ، وذلك بعد هذا
النبي الذي هو خاتم النبيين محال ؛ فلذلك لا بد وأن يكون بعد هذا النبي
صلى الله عليه وسلم من يدعو إلى دينه ، فذلك هو خليفته ، وينبغي أن
يكون ذلك في كل زمان ليكون دينه محفوظا دائما ، إذ لا يمكن بعده
حدوث نبي آخر ، فلذلك لا بد وأن يكون كل واحد من هؤلاء الخلفاء
ممن تعظمه الناس * جدا ، وأولى الناس بأن يعظم بعد هذا النبي صلى الله عليه وسلم (ب ٤٤ ظ)
عليه وسلم من يدعو إلى دينه فلذلك هو خليفته ، وينبغي أن يكون ذلك
في كل زمان ليكون دينه محفوظا دائما إذ لا يمكن بعده حدوث نبي آخر ،
فلذلك لا بد وأن يكون بعد كل خليفة خليفة آخر ، ولا بد وأن يكون

كل واحد من هؤلاء الخلفاء ممن تعظمه الناس جدا ، وأولى الناس بأن يعظم بعد هذا النبي من كان من أقاربه ، وذلك لأن هذا النبي لما وجب أن يكون عند الناس بغاية العظمة ، فأقاربه وأصحابه لابد وأن يكونوا عظماء عند الناس ، والخلفاء الذين يكونون من عقيب موته أو بعد ذلك بزمان لطيف لابد وأن يكونوا ممن صحب^(١) هذا النبي صلى الله عليه وسلم وعظمه جدا ، لأن من يكون كذلك فإنه عند الناس لا محالة أعظم من غيره فيكون أولى بالخلافة .

ولما كانت دعوة هذا النبي صلى الله عليه وسلم * للناس أولا باللين (بـهـ، ر) وذلك إنما يمكن بأن يمدح من أطاعه ومن آمن به قبل تمكنه من الدعوة بالسيف ، وهذا المدح مما يعظم به جدُّ^(٢) الممدوح ويعده للقيام بالخلافة بعده ، وليس يمكنه أن يجعل ذلك^(٣) في كل واحد منهم بتعيينه له ، وإلا كان إيلا ما وتنفيرا للباقيين ، وأنه لو عين واحدا لكان ما يصدر من ذلك الواحد من الخطأ منسوباً إلى هذا النبي صلى الله عليه وسلم ...^(٤) فلذلك وجب أن لا يعين أحدا منهم لذلك .

وفي طبع الناس حب الرياسة فلا بد وأن يقع بين الصحابة السابقين بالإيمان من التنازع والمخالفة إلى أن يقع بينهم مقاتلة على الخلافة ، وذلك

(١) في الأصل : صحبه . والأصوب ما أثبتناه .

(٢) الجدُّ : الحظ والبخت في الدنيا (لسان العرب) .

(٣) في الأصل : كذلك .

(٤) في الأصل عبارة : « مهينين للخلافة بعده وليس يمكنه أن يجعل » وهي غير متسقة مع سياق النص ، فلذلك أثبتناها بالهامش .

لا يمكن أن يكون عقيب وفاته ، وإلا كان ذلك مؤديا إلى استيلاء الكفار على أتباعه^(١) لأجل قلتهم حينئذ وذلك يؤدي إلى بطلان شريعته وذلك يحوج إلى قيام شرع آخر * وذلك بعد هذا النبي وهو خاتم النبيين محال ، (ب هـ ٤ ظ) فلذلك لا بد وأن تكون هذه المقاتلة^(٢) بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم بمدة يكثُر فيها أتباعه^(٣) والمؤمنون به وقبل موت المرتجين للخلافة وهم السابقون بالإيمان بهذا النبي صلى الله عليه وسلم .

(١) في الأصل : تباعه ، والأصوب ما أثبتناه .

(٢) في الأصل : المقابلة .

(٣) في الأصل : تباعه .

الفصل الثاني

في تعرف كامل لما يقع بعد موت هذا النبي صلى
الله عليه وسلم [من (١)] تنازع ومقاتلة

فلا بد وأن ينحاز كل مدع الخلافة (٢) منهم بطائفة تتعصب له
وتنازع مخالفه ، فلذلك لابد وأن تكثر الأهواء والانتصارات في ملة هذا
النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته ، ولأن (٣) هذا النبي لا نبي بعده
فلذلك لابد وأن يوجد بعده شيء يحفظ شريعته ويمنع من نسيانها (٤)
فلذلك [لابد (٥)] وأن يقوم بذلك علماء أمته ، وهؤلاء ليسوا يتلقون
العلم بالوحي كما في الأنبياء (٦) بل بالفكر والرأى .

وطباع * الناس كثيرة الاختلاف فلذلك لابد وأن تكثر الآراء في (ب ٤٦ و)
دين هذا النبي صلى الله عليه وسلم وتفنن الأقوال والمذاهب ، وكل
واحد (٧) لابد وأن يحرص على نصرة رأيه ويدعو الناس إليه ، ويرغبهم في
الميل إلى قوله لأجل محبة الرياسة والاختراع (٨) ، فلذلك لابد وأن تنقسم
ملة هذا النبي عليه الصلاة والسلام إلى طوائف مختلفة الآراء في أصول
دينه وفروعه ، فلذلك يتعادون ويتنازعون ، فلذلك لابد وأن ينتصر لكل

(١) إضافة ليستقيم المعنى

(٢) (ج) : للخلافة .

(٣) في الأصل : وأن .

(٤) في الأصل : نساؤها .

(٥) إضافة ليستقيم النص .

(٦) كما في الأنبياء : مكررة من الناسخ .

(٧) في الأصل : وكل واحد .

(٨) اخترع الشيء : أنشأه وابتدأه .

إمام طائفة ممن يرغّب الناس في موافقة ذلك الإمام ، فلذلك لا بد وأن تكثر الكتب المصنفة في آراء هذه الملة ولا بد وأن تُبنى مدارس ومواضع توقف للمشتغلين بآراء أولئك الأئمة ، ولا بد وأن يجعل لكل مشتغل برأى إمام ما يرغّبه في ملازمة رأى ذلك الامام وتعظيم قوله * ونحو ذلك ؛ فلذلك (ب ٤٦ ظ) لا بد وأن يوقف لسكان المدارس والمشتغلين بها مواضع يُتَحَصَّل منها ما يصرف إليهم من المال ، وكل ذلك لأجل اختلاف أهل الملة في الآراء ونصرة مبتدعيها^(١) وفي التعصب لكل من المتنازعين في الخلافة ونحو ذلك .

ولما كان هذا النبي خاتم النبيين فلا بد وأن تكون شريعته محفوظة دائما ، وإنما يمكن ذلك بحفظ أقواله وأفعاله ، وبحفظ كتابه ومعرفة معانيه ومعاني كلام هذا النبي ، فلذلك احتيج إلى تعرّف علم الحديث وعلم التفسير ونحو ذلك من العلوم الشرعية ، فلذلك لا بد وأن تكثر الكتب والتصانيف في ملة هذا النبي صلى الله عليه وسلم وذلك بعد وفاته بمدة طويلة .

(١) في الأصل : مبتدعيها .

الفصل الثالث

في كيفية تعرف كامل المعاصي التي لا بد وأن تقع

لملة هذا النبي صلى الله عليه وسلم^(١)

ثم إن المسمى * «بكامل» تفكر ، فقال : وإذ قد ثبت أن هذا (ب ٤٧ و) لنبي لا بد وأن يحرم شرب الخمر لأنه يذهب صحة العقل كما بيناه أولا^(٢) ؛ ولا بد أيضا وأن يحرم ظهور النساء وتكشفهن للأجانب ، وذلك لأن هذا النبي صلى الله عليه وسلم لا بد وأن تكون أخلاقه فاضلة جدا محمودة كما بيناه أولا ، ومن جملة هذه الأخلاق أن يكون غيورا فلا بد وأن يمنع النساء من التمسك^(٣) والانكشاف للأجانب وإنما يمكن ذلك بسترهن ومنعهن من زيادة البروز ويلزم [عن^(٤)] ذلك أمران :

أحدهما : أن يكثر من ملة هذا النبي مخالفته في تجنب الخمر ، وذلك لأجل شدة ميل النفوس إليها مع أنها مما لا يستغنى عنها في حفظ الصحة وفي دفع كثير جدا من الأمراض^(٥) .

(١) في الأصل : عليه السلام .

(٢) إشارة المؤلف هنا إلى ما سبق ذكره في نهاية الفصل الرابع من الثالث مما يؤكد نسبة هذا الفن الرابع إلى المؤلف .

(٣) هكذا في الأصل ، ولعلها : التبرج .

(٤) إضافة ليستقيم النص .

(٥) شرب الخمر منكر يزينه الشيطان ، ويذهب العقل مما يؤدي إلى ارتكاب كثير من المعاصي والجرائم ، وانظر تعليقنا على هذا الفصل ففيه الشرح الكافي .

وثانيهما : أن يكثر في ملة هذا النبي صلى الله عليه وسلم اللواط ، وذلك لأنه لما أمر بحبي (١) النساء وعَسُرُ الزواج على كثير من الناس (٢) ، وعَسُرُ على من له زوجة أن * يستصحبها معه في الأسفار والغزوات (٣) (ب ٤٧ ظ) ونحو ذلك فلذلك يحتاج كثير من أهل هذه الملة إلى معاملة من يشبه النساء من الرجال كما يعامل النساء ، وذلك لأجل شدة الشبق وقوة شهوة الجماع على الناس وتعذر مخالطة النساء على كثير من أهل هذه الملة ، فلذلك كثر في هذه الملة اللواط ومخالفة النبي صلى الله عليه وسلم في اجتناب الخمر .

(١) حبي يحبي من حبا يحبني ، وقد ترك الهمة للتخفيف ؛ والله سبحانه وتعالى بين ذلك في قوله : ﴿ وَقُلْ لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ خُيُوبِهِنَّ ﴾ (النور ٣١) وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّلزَّوْجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَىٰ أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ (الأحزاب ٥٩)

(٢) حض الله سبحانه على تزويج الفقراء من المؤمنين ، ووعد أن يغنيهم من فضله ، كما أمر الذين لا يجدون نكاحا أن يستعففوا ويصبروا حتى يغنيهم الله فيزوجهم ، قال تعالى : ﴿ وَأَنكِحُوا الْأَيْمَىٰ مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ إِن يُكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَسْعٌ عَلِيمٌ . وَلْيَسْتَغْفِرِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ ﴾ (النور ٣٢ - ٣٣) .

وقال صلى الله عليه وسلم : « يا معشر الشباب من استطاع الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » مسلم ٤ / ١٢٨ ، كتاب النكاح ، طبعة التحرير .

(٣) كان النبي صلى الله عليه وسلم يستصحب إحدى زوجاته في بعض الغزوات ، وقد اصطحب معه أم المؤمنين أم سلمة في موقعة الحديبية . وكان النساء يشتركن مع جيش المسلمين في الغزوات مع النبي ، وانظر شرح ذلك في التعليق على هذا الفصل .

الفصل الرابع

في كيفية تعرف كامل لما يحدث لملة هذا

النبي لأجل عصيانهم من العقوبة

ثم إن المسمى « بكامل » تفكر فقال : وإذا عصت هذه الملة النبي صلى الله عليه وسلم فهل يحدث لها بذلك في الدنيا عقوبة أو لا يحدث لها ذلك ؟ .

فرأى أنها لا بد وأن تعاقب على هذا العصيان — وذلك لأن هذه الملة لو لم تعاقب على ذلك وقع عند الناس أن معصية^(١) هذا النبي غير ضارة في ★ الدنيا ، وذلك مما [لا]^(٢) يشتد معه الحرص على التوبة وعلى (ب ٤٨، و) ترك هذه المعصية فلذلك تكثر لا محالة ، ويلزم ذلك شدة الفساد وكثرة المعاصي وقلة المبالاة بمخالفة أمر هذا النبي صلى الله عليه وسلم ، وفي ذلك تصغير لقدره وتطريق إلى قلة المبالاة بمخالفة أوامره ، وذلك مما ينطّل فائدة بعثته صلى الله عليه وسلم ، فلذلك لا بد وأن يعرض لهذه الملة عند كثرة عصيانهم عقوبة [على فعل]^(٣) .. ذلك ، وهذه العقوبة ليس يجوز أن تكون الخسف أو الطوفان ونحو ذلك مما يدل على شدة غضب الله تعالى فإن ذلك ينافي زيادة عظمة هذا النبي صلى الله عليه وسلم إذ يجوز أن

(١) في الأصل : معصيت . وهو خطأ كئان نتيجة أن الناسخ أعجمي ، والفرس والترك يكتبون تاء التأنيث المربوطة مفتوحة .

(٢) إضافة ليستقيم النص .

(٤) إضافة ليستقيم النص ، ومكانها بياض في الأصل .

تكون أمته مبجلين عند الله تعالى فلذلك لا بد وأن تكون هذه العقوبة بسفك الدماء ونحو ذلك مما لا يحيط من المنزلة [كثيرا بنبيه] ^(١) .. وهذا القتل إنما يكون من الكفار وبالقتال ^(٢) ... الكفار ، فلأن هذه العقوبة لما يكون * إذا عم العصيان في هذه الملة ، إذ لو كان في طائفة منهم قليلة لم (ب ٤٨ ظ) يكن ذلك مفضيا إلى منقصه شأن هذا النبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن ذلك مما يلزم معه حدوث العقاب [إلا] ^(٣) إذا كان العصيان عاما وإذا كان كذلك لم يكن مما يحدث بين الملة من القتال لأجل ذلك العصيان وذلك لأجل اشتراكهم فيه ، بل يكون ذلك لأجل المنازعة في الممالك ونحو ذلك ، ولا يكون مما يوجب عند الناس التوبة والرجوع عن المعصية فلا بد وأن يكون هذا القتل من غير هذه الملة ، وغيرها كافل لا محالة ، لأن شرع هذا النبي صلى الله عليه وسلم قد تبين أنه عام فإذا لا بد وأن يكون وقوع القتل في هذه الملة من الكفار ، وإنما يمكن ذلك بالقتال فإن القتل الذى يكون خفية ونحو ذلك لا يكاد أن يعم الناس حتى يظهر البلية المحوجة إلى ^(٤) فلذلك لا بد وأن تكون عقوبة هذه الملة ^(٥) ... * هذا (ب ٥٠ و) العصيان العام بقتل الكفار لهم ، وهذا القتال — لاشك أن لهذه الملة غزاة — والمقتول فيه مثاب فلذلك كان هذا القتل والقتال لا يقل بأن يكونا عقوبة لهذه الشريعة ^(٨) .

(١) إضافة ليستقيم النص ، ومكانها بياض .

(٢) بياض في الأصل ، بمقدار ثلاث كلمات .

(٣) إضافة حتى يستقيم المعنى .

(٤) بياض في الأصل بمقدار كلمتين .

(٥) بياض في الأصل بمقدار كلمة .

(٦) إن هذا الفصل كله يوضح السبب في انتشار عقدة الذنب بين كبار علماء المسلمين وبين المتصوفين ، فقد اعتقدوا أن انتصار الكفار على المسلمين ، وتخريبهم لكثير من البلاد الإسلامية ، وقتل الكثيرين من المسلمين ، اعتقدوا أن ذلك كان عقابا من الله سبحانه بسبب عصيان المسلمين للشريعة المحمدية . وهذا هو ما ذكرناه في المقدمة عند بيان أثر الحياة الاجتماعية في تفكير ابن النفيس .

الفصل الخامس

في كيفية تعرف كامل بحال الكفار الذين

يكون^(١) لهم عقوبة هذه الملة^(٢)

إن هؤلاء الكفار يجب أن يكونوا غير ذى ملة ، إذ لو كانت لهم ملة لكانوا لا محالة يدعون الناس إلى الدخول في دينهم وذلك مع الاستيلاء وسفك الدم مما يوجب للناس الرجوع إلى ما يدعون إليه وذلك موجب للخروج عن ملة هذا النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك مناف للغرض من هذه العقوبة ، ومنقص جدا من ملة هذا النبي صلى الله عليه وسلم ، فلذلك لا بد وأن يكون هؤلاء الكفار ، [الذين^(٣)] يقتلون أهل ملة النبي صلى الله عليه وسلم تطهيرا لهم عن عصيانهم ، ليسوا ذوى ملة ، وإنما يكون هؤلاء كذلك * إذا كانوا ممن لا تبلغهم بعد الدعوة بلوغا تاما ، (ب.د. وإنما يكون كذلك إذا كانوا من أطراف الأرض ونائيين عن العمارة التي في البلاد المعتدلة ، ولا يمكن أن يكونوا من سكان الأطراف الجنوبية ، لأن هؤلاء لأجل شدة حرارة أرضهم هم ضعفاء القلوب ، فلذلك لا يقوون على سفك دماء هذه الأمة مع شجاعة أصحابها ، فلذلك لا بد وأن يكونوا من الأطراف الشمالية لأن هذه الأطراف لأجل شدة بردها يكون أهلها شجعانا أقوياء القلوب قساة ، ولا يمكن أن يكونوا من غربي الشمال فإن الناس هناك قليلون جدا ، ومع قلتهم فإنهم في جزائر فلذلك

(١) في الأصل : يكونون .

(٢) نسخة ب ، وهي الأصل ، بها كثير من الطمس في هذا الفصل .

(٣) إضافة ليستقيم المعنى .

يكونون متفرقين فلا يجتمع منهم كثرة تقوى على قهر أصحاب هذه الملة ،
وسبب ذلك أن البحار في شمالى الغرب كثيرة جدا بخلاف شمالى الشرق .

* ولا بد وأن يكونوا — هؤلاء الكفار — من أهل البر لأن أهل (ب ٥١ و)
المدن أقل شجاعة ، ولا بد وأن يكونوا عظام الصدور والرؤوس ، دقاق
الأسافل ، ضيقى العيون ، كبيرى الأعجاز ؛ أما كبير أعاليمهم فلأجل توفر
الحرارة على بواطنهم لأجل شدة بردي هوائهم ، ولذلك تدق أسافلهم
قليلا ، ولأن هذه الصفات هى صفات الشجعان ، ولذلك كان الأسد
خالقته كذلك ، وأما ضيق أعينهم فلأجل كثرة رطوبة أدمغتهم لأجل قلة
التحلل منها بقوة البرد ، ولذلك تكون أنوفهم إلى الفطوسة ؛ وأما كبير
أعجازهم فلأجل كثرة ركوبهم الخيل من الصغر ، وذلك لأن الخيل فى
هذه المواضع كثيرة مع أنهم لأجل أنهم سكان البرارى ينتقلون كثيرا ،
وانتقالهم إنما يكون على الخيل .

هؤلاء الكفار ليسوا * يملكون بلاد الإسلام جميعها ، وإلا لكان (ب ٥١ ظ)
ذلك يؤدى إلى انقراض هذا الدين ، وذلك مما يحوج إلى نبي آخر وهو
بعد ذلك النبي محال ؛ فلذلك لا بد وأن يكون مُلكهم لبعض بلاد أهل
هذه الملة ، ومُلك هذه البلاد التى كثرت هذه المعاصى فيها جدا وهى
البلاد القريبة من هؤلاء ، فإن استيلاء هؤلاء على البلاد البعيدة عنهم دون
القريبة كأنه متعذر ، فلذلك إنما يكون مُلك هؤلاء الكفار للبلاد
الشمالية ، وإذا ملكوها فهم لا يغيرون ملة هذا النبي ولا يأمرؤن الناس
بتغيير دينهم إذ لا دين لهم يحوج إلى ذلك ، فلذلك يبقى أهل هذه الملة فى
بلادهم كما كانوا وإنما يزول عنهم الملك فقط ، فلذلك يكون فى هؤلاء

الكفار نفع لأهل ملة هذا النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك لأن هؤلاء لم يكن لهم دين ينافي دين هذه * الملة ، ومخالطتهم لهذه الملة مما يدعو^(١) إلى (ب ٥٢ و دخولهم فيها ، فلذلك يُعدّون^(٢) آخر الأمر من أهلها^(٣) ، وينضاف ما كان هؤلاء من البلاد ما يفتحه هؤلاء من بلاد الكفار الآخر ، فذلك في آخر^(٣) الأمر تتسع بلاد هذه الملة ، وإن لم يوجد لها من ينتصر لها ويأخذ البلاد من هؤلاء ؛ فكيف إذا وجد ذلك ؟

(١) في الأصل : يدعون .

(٢) في الأصل : يعودون .

(٣) في الأصل : في الآخر الأمر .

الفصل السادس

في كيفية تعرف كامل بحال البلاد التي لا يتمكن
هؤلاء الكفار من الاستيلاء عليها

فقال في نفسه أما ما يكون من هذه البلاد بعيدا جدا عن البلاد
التي (١) ينتهى إليها استيلاء هؤلاء الكفار فإنها تكون كالجاورة لهم ، فلذلك
يحتاج أهلها إلى مقاومتهم (٢) ومدافعهم ، وإنما يتمكنون من ذلك إذا
حصل لهم أمران : وهما كثرة الجيوش وسلطان منهم شجاع إذ بدون
ذلك لا يتمكنون من مقاومة هؤلاء الكفار مع عموم إستيلائهم على * (ب ٥٢ ظ)
كثير جدا من البلاد وكثرة رجالهم وجيوشهم ، فلذلك أهل هذه البلاد
إنما يتم لهم ذلك بهذين الأمرين ، وهم قبل ذلك لم يكونوا محتاجين إلى
كثرة الجيش جدا ، فلا بد وأن يصير جيش هذه البلاد الجاورة لما انتهى إليه
ملك أولئك الكفار أزيد مما كان أولا بكثير ، وإنما يمكن ذلك بأن تكون
النفقة على الأجناد أزيد مما كانت بكثير ، فلذلك يحتاج ملك هذه البلاد
أن يصرف إلى الأجناد أزيد مما كان أولا ، ولا يمكن أن يكون له ذلك من
مغل (٣) هذه البلاد ، فإن هذا المغل لا يمكن أن يكون أزيد مما كان أولا
مغل تلك البلاد ، فإذا زادت هذه العساكر بقدر كثير اضطر لا محالة إلى
نفقة تزيد على مغل تلك البلاد ، فلا بد وأن يكون ذلك الزائد من أموال

(٢) في الأصل : الذى .

(٢) في الأصل : معا ومنهم (غير معجمة) .

(٣) المصباح المنير : أَغْلَت الضيعة صارت ذات غلة ، والمقصود هنا ما تغله هذه البلاد من محاصيل .

أهلها ، وليس يسمح بذلك أحد اختيارا ، فلذلك لابد وأن يؤخذ من أموال أهل هذه البلاد ما (١) يزيد كثيرا على ما كان يؤخذ منهم قبل * (ب ٥٣ ر) مجاورة هؤلاء الكفار لهم بقدر كثير ، وهذا الأخذ لما كان لابد وأن يكون على سبيل القهر لأنه خلاف ما يؤثره المأخوذ منه فإنما (٢) يمكن ذلك بأن يكون الأخذ له مطاعا مستوليا ، وذلك هو السلطان حينئذ ، وهذا الأخذ مع أنه نافع في حفظ هذه البلاد فإنه كالمطهر لأهلها إذ (٣) لم تكن معصيتهم بقدر يستحقون به القتل بل بقدر يستحقون به أخذ شيء من أموالهم ونحو ذلك ، وإذا أهل هذه البلاد يؤخذ من أموالهم أكثر مما كانوا [عليه (٤)] أولا ، فلا بد وأن تقل الأموال في هذه البلاد ويكثر فيها الفقراء ونقصان المعيشة وقلة الأرزاق ونحو ذلك مما يلزم قلة الأموال ؛ ويلزم ذلك كثرة السرقات وزدادة المعاملات ونحو ذلك .

(١) في الأصل : بما .

(٢) في الأصل : وإنما .

(٣) في الأصل : إذا .

(٤) إضافة في (ج) وهي تساعد على جلاء المعنى .

الفصل السابع

في كيفية تعرف كامل بحال سلطان البلاد التي^(١)

تبقى^(٢) لهذه الملة مجاورة^(٣) لما يتبقى

إليه ملك أولئك الكفار

إن المسمى * بكامل تفكير^(٤) بعد ذلك في حال سلطان البلاد (ب ٥٣ ظ)

التي^(٥) تبقى لهذه الملة^(٦) — المتاخمة لبلاد هؤلاء الكفار فقال : إن هذا السلطان لا شك أن يكون في بلاده وأجناده وأمواله دون ما لهؤلاء الكفار بكثير ، وكيف لا وأكثر بلاد ملة هذا النبي عليه السلام يكون أولئك الكفار قد استولوا عليها ، ومع ذلك فلهم لا محالة بلاد أخر من بلاد غير هذه الملة ، وهذا السلطان إنما معه بعض الباقي من بلاد هذه الملة وهي البلاد المتاخمة لهؤلاء الكفار ، فلذلك لو لم يكن هذا السلطان شديد البأس جدا حتى يكون وحده في مقابلة جيش كثير لم يتمكن من مقاومة هؤلاء الكفار ومنعهم من الاستيلاء على بلاده ، فلذلك لابد وأن يكون هذا السلطان شديد البأس جدا ، ولا يكفي أن يكون كذلك في نفسه فقط بل لابد وأن يكون عند الناس بهذه الصفة ، وإنما يكون ذلك إذا كان * قد (ب ٥٤ و) .
اشتهر عنه أنه جرىء مقدام شجاع سَمِيَ^(٧) الأخلاق ، وإنما يكون ذلك

(١) في الأصل : الذي .

(٢) في الأصل : تبقى (بلا إعجام) ، وفي (ج) : يتقى .

(٣) في (ج) : المجاورة .

(٤) في الأصل : تكفر .

(٥) في الأصل : الذي .

(٦) التي ... الملة : - (ج) .

(٧) في الأصل : سَمِيَ .

إذا عُرفت منه جراءة^(١) شديدة جدا كالجرأة على الملوك^(٢) والإقدام على قتل أكابرهم، ويلزم ذلك أن يكون قوى القلب جدا، فلذلك لا بد وأن يكون قاسيا، فلذلك تقل رحمته، فلذلك يكثر منه صدور العقوبات وقطع الأطراف والصلب والتسمير ونحو ذلك مما إنما^(٣) يكثر مع القساوة، فلذلك لا بد وأن يكثر في بلاده^(٤) هذه الأمور كلها خاصة. وقد بينا أنه لا بد وأن تكثر في البلاد السرقة ونحو ذلك مما يوجب هذه العقوبات، فلذلك لا بد وأن يكون هذا السلطان قد صدرت عنه هذه الأمور، فلذلك هذا السلطان لا يجوز أن يكون من أهل المدن فإن أهل المدن بعيدون عن هذه الأخلاق، فلا بد وأن يكون من أهل البر، ولا بد وأن يكون من أهل برهم أقوى القلوب * شجعان، فلذلك لا بد وأن (ب ٥٤ ظ) يكون شماليا كما قلناه، ولا بد وأن يكون أيضا من شمالي المشرق لأن شمالي المغرب كما تقدم إنما يوجد فيه قوم جَزْرِيُون^(٥) فتكون أمزجتهم غير ملائمة للأخلاق المذكورة، فلذلك لا بد وأن يكون هذا السلطان إما من أرض أولئك الكفار، أو من أرض تقرب منهم. فلذلك لا بد وأن يكون ضيق العينين، واسع الصدر، عظيم الهامة. عريض الأكثاف، دقيق الساقين، ليس بشديد. سواد العينين، ولا أنفه شديد الحدة، ولا بدنه^(٦) بعظيم^(٦)

(١) هكذا في الأصل وهي صحيحة، ولكن المستشرقين وضعوا جرأة بدلا منها، وقد جاء في المعجم الوسيط: جرؤ على الشيء - جرأة، وجرأة: أقدم عليه

(٢) يشير هنا إلى مقتل «قطر» على يد «الظاهر بيبرس». (انظر ما أثبتناه في المقدمة عند بحث الحياة السياسية والاجتماعية في زمن «ابن النفيس».

(٣) إنما زائدة هنا زائدة وقد وردت هكذا في الأصل.

(٤) في الأصل: بلاد.

(٥) في الأصل «حريون» وفي (ج): خائرون. والأقرب إلى الصواب ما أثبتناه، حيث تقدم أنهم في شمال الغرب يسكنون الجزر، والنسبة إلى الجزيرة جَزْرِي وَجَزِيرِي.

(٦) الناسخ هنا مضطرب وإعجابه ليس دقيقا ولذلك وضع النقاط تحت الحروف وفوقها خطأ فقد كتب بدنه (بد به) وعظيم كتبها (بعظم)

جدا ، فتكون أرواحه^(١) شديدة الانبساط والتثبت ، فإن ذلك ينافي شدة حرارة القلب وحرارة الخلق ، ولا أيضا بصغير جدا فيكون قليل التثبت غير عميق الفكرة وإلا لم يصلح لتدبير المملكة فلا يكون صالحا لمقاومة هؤلاء الكفار ، ولا بد أن يكون * مزاجه إلى حرارة وإلا لم يكن شديد (ب ٥٥٥) الجراءة ، فلا بد وأن يكون لونه أحمر إلى العُمر^(٢) ، وشعره ليس بقليل جدا بل يكثر شعره ولا يحدث له صلح ، إلا^(٣) أن يتدبر تدبيرا^(٣) مخففا و^(٤) لأنه من أرض باردة جدا فلا بد وأن يكون بدنه متكاثفا مستحصفا^(٥) فلذلك يقل تحلل ما يحدث في بدنه من الأبخرة الدخانية لأجل حرارة مزاجه ، فلذلك لا بد وأن يكون حاد الأخلاق إلى زعورة^(٦) . ونزاقة^(٧) ؛ ولا بد وأن يكون كثير الحركة سريعا يكره^(٨) السكون ويحب الحركة خاصة في الشمس ، ويؤثر التعرق^(٩) ، ويكره البرد ، ويميل إلى كثرة الدثار مع إثارة استنشاق الهواء البارد ، ويؤثر الأطعمة الباردة

(١) قال ابن النفيس في «الموجز في الطب» : الأرواح ، ولا نعى بها النفس كما يُراد بها في الكتب الإلهية ، بل نعى بها جسما لطيفا بخاريا يتكون من لطافة الأخلاط ، تتكون الأعضاء عن كثافتها . والأرواح هي الحاملة للقوى ، فلذلك أصنافها وأصنافها . انظر الموجز في الطب . ص ٣٥ .

(٢) الكلمة في الأصل غير معجمة ، وفي (ج) : السمرة . والأقرب للصواب ولرسم الكلمة ما أثبتناه ، فالعُمر : طلاء يتخذ من الزعفران أو الكرم يطل به النساء وجوههن ليصفوا لوتها ، والعُمر أيضا الزعفران . (المعجم الوسيط) .

(٣) هكذا في الأصل ولعلها : إلا أن يتدثر تدثيرا مخففا ، أى يخفف دثارة عند النوم ، وهنا يتحول مزاجه من حرارة إلى برودة ، وفي هذه الحالة قد يحدث له الصلح - هذا في رأى المؤلف .

(٤) هكذا في الأصل وهي صحيحة ، وحذف واو العطف - كما فعل المستشرقان لا داعي له .

(٥) حصف الرجل أو حصف جلد الرجل : أصابه الحصف ، وهو الجرب اليابس ، ويثر صغار يقيع ولا يعظم ، وربما خرج في مرق البطن أيام الحر . (المعجم الوسيط) .

(٦) الزجر : سىء الخلق قليل الخير .

(٧) الترق : الخفة والطيش .

(٨) في الأصل «بكثرة» وهو تصحيف من الناسخ لا يتفق مع المعنى المطلوب .

(٩) في الأصل « ونور التعرف » بكون اعجام .

والغليظة ، ويكره تناول الأطعمة الشديدة السخونة ، ويتنفع بالشتاء والنوم في موضع بارد مع أنه يؤثر كثرة الدثار ، ويكشف رجليه للهواء البارد ، وتتأخر حركة أجفانه . ، ولا * يوجد على ظهره شعر بل ربما وجد (ب ٥٥ ظ) ذلك على صدره وبطنه وإن كان قليلا جدا ، ونومه ليس بشديد الاستغراق ولا يكثر ويثب في نومه كثيرا ، ويرى أحلاما هائلة في كثير من الأيام ، وشهوته للأكل ليست بقوة جدا ، ولا جماعه بكثير جدا ، وأكثر أولاده البنون (١) وأكثر شهوته الأطعمة الحامضة ، ويؤثر الحلوات في أوقات ، ولا يشتد ميله الى الأطعمة النفهة (٢) ، ويجب الفواكه ، ويحدث له الغثى كثيرا ، ويسهل إسهاله (٣) .

(١) في الأصل : البنين .

(٢) الأطعمة النفهة : التي لا طعم لها .

(٣) تدل جميع الأوصاف البدنية المذكورة في هذا الفصل على أن ابن النفيس كان متصلا أشد الاتصال بالسلطان بيبرس وكذلك بالسلطان قلاوون مما يجعلنا نعتقد أنه كان طبيهما الخاص . كما يشير ابن النفيس بذلك إلى أن المماليك الذين كانوا يحكمون مصر والشام في ذلك العصر هم أصلا من بلاد متاخمة لبلاد المغول وأنهم من جنسهم .

الفصل الثامن

في كيفية تعرف « كامل » بأحوال حفدة الملك المتأخم
للكفار وهو الذى تقدم ذكره وأحوال أعوانه
وجيرانه من ملوك ملّة النبى ﷺ

ثم إن المسمى بكامل تفكر في أحوال هؤلاء المذكورين فقال في
نفسه : إن الملك لما تبين أنه لا بد وأن يكون عند الناس مشهورا بالشهامة
والسطوة والقدرة فلا بد وأن يكون عند جميع * الناس مهيبا مخوفا^(١) ، (ب ٥٦ و)
فلذلك لا بد وأن يكون جميع هؤلاء حسنى الطاعة له والانقياد لأوامره^(٢)
خائفين من سطوته ، فلذلك لا بد وأن تكون معاملتهم في الظاهر على
أجود الوجوه وأتمها .

وهذا الملك يخالف غيره من الملوك فإن هذا مشغول بمقاومته^(٣)
هؤلاء الكفار ومهم بأمرهم ، فلذلك يحتاج في كثير من الأوقات إلى
الحركة إلى جهة أولئك ليظهر لهم القدرة على المقاومة ، ومع ذلك فإنه
يقا^(٤) جميع من يتمكن من قتاله^(٥) ممن يقرب منه [من^(٦)] الكفار
ليظهر لأولئك ما فيه من الشهامة والقدرة ، فلذلك يحتاج كثيرا أن يفارق

(١) المعجم الوسيط : خاف خوفا والمفعول مخوفا وهى مكذا في الأصل ، ولكن وضع المستشرقان
الشدّة على الواو فأصبحت مخوفا ، ولاداعى لذلك .

(٢) في الأصل : لاوامرأة .

(٣) في (ج) ، اختار المحققان : بمقاومة ، والمثبت صحيح أيضا .

(٤) في الأصل : يقابل .

(٥) في الأصل : قتاله ، والتاء غير معجمة .

(٦) إضافة يقتضيهما السياق .

محل مملكته والبعد^(١) عنها إلى جهات الكفار ليرهبهم^(٢) فيزيد في خوفهم ،
فلذلك يحتاج أن يكون له من يخلفه في محل المملكة ليقوم فيها مقامه ، وإنما
يمكن ذلك إذا كان هذا الذي * يستخلفه شديد البأس^(٣) أيضا شهما^(٤) (ب ٥٦ ط)
جيد التدبير أيضا ، لأن هذا الوزير يحتاج كثيرا أن يستقل بتدبير المملكة
لأجل كثرة غيبة هذا السلطان عن البلاد ، وكذلك أيضا يحتاج إلى
[أن^(٥)] يكون مهيبا مطاعا إذ لولا ذلك لاختل أمر المملكة بسبب كثرة
غيبة السلطان ، ويحتاج أيضا أن يكون شديد التمسك بأحكام الشرع ،
وإنما يمكن ذلك إذا كان عالما بتلك الأحكام ، وإنما وجب ذلك ليكون
تصرفه على الوجه المرضي شرعا فلا يكثر الفساد في هذه البلاد فيصير
أهلها مستحقين للقتل كالذين كانوا بجوارهم ، فيكون ذلك سببا لتسليط
أولئك الكفار على تلك البلاد - ولذلك أيضا يجب أن يكون حاكم هذه
البلاد وواليا ونحو ذلك من المتصرفين فيها - ويحتاج هذا الوزير أن يكون
عنده من الفكر^(٦) اللطيف وحسن التأني مما يتمكن بهما من جودة أخذ
الأموال^(٧) (*) التي بيننا أنها لا بد وأن تؤخذ من الرعية لتصرف في الجيش (ب ٥٧ و)
حتى يكون أخذه لها على وجه يحلّه الشرع ، وعلى وجه يقل معه تضرر
أهل هذه البلاد ، فلذلك يحتاج أن يكون متوسط الأخلاق حتى ما يكون
عنده من الرقة والرحمة يعادل ما عنده من السطوة والقوة ، وبالجملة فإنه

(١) هكذا في الأصل وهي صحيحة ، ولكن وضع المستشرقان بدلا عنها «ويعد» .

(٢) في الأصل : ليرهبهم .

(٣) في الأصل : الناس .

(٤) في الأصل : مهتا . وما أثبتناه أقرب الصواب ، ليتفق مع أوصاف ابن النفيس السابقة .

(٥) إضافة حتى يستقيم المعنى .

(٦) في الأصل «الكفر» .

(٧) في الأصل : المال ، والتصحيح ليستقيم الأسلوب .

يحتاج أن يكون متمكنا من رضى هذا السلطان ، ورضى الله تعالى ،
ورضى الرعية والأجناد وغير ذلك ، إذ لو كان على وجه يُسخط الله عز
وجل لجعل البلاد مستحقة لقتل أهلها واستيلاء أولئك الكفار عليها كما في
البلاد المجاورة ، فكان مؤديا إلى زيادة استيلاء الكفار لا إلى دفعهم^(١)
ومقاومتهم ، ولو كان على وجه يسخط السلطان لم يسع السلطان^(٢)
الاعتماد عليه ولا استخلافه ، ولو كان على وجه يُسخط الأجناد
وحفدة^(٣) السلطان ورعيته لكان ذلك يدعو هؤلاء إلى الخروج (*) عن (ب ٥٧ ظ)
حسن طاعة السلطان ، فكان في ذلك فساد المملكة ، فلذلك لا بد وأن
يكون هذا الوزير على الوجه الذى قلناه .

(١) فى الأصل : رفعهم بالراء المعجمة ، وما أثبتناه أقرب إلى الصواب .

(٢) هكذا فى الأصل وهو صحيح ، وعند المستشرقين « للسلطان » .

(٣) الحفاد : القون ، والخدام ، والجمع حفدة ، وحفد فلانا : أعانه وخف إلى خدمته : (المعجم الوسيط) .

الفصل التاسع

في كيفية تعرف كامل لما يحدث في العالم العلوى بعد
وفاة خاتم النبيين صلوات الله عليه
وعليهم أجمعين

ولما كان «كامل» دائم التصفح^(١) والتفكر في أحوال الموجودات تأمل حركة^(٢) الشمس فوجدها في الصيف تدنو من الشمال ، وفي الشتاء تبعد كثيرا من الجنوب ، ومع ذلك فإنها تدور كل يوم دورة موازية للدائرة^(٣) العظيمة التي بُعدها عن ميل الشمس الشمالى والجنوبى بُعدًا واحدًا^(٤) ، وكذلك الكواكب المسيرة جميعها تميل إلى هاتين الجهتين مع الدورة اليومية ، فعَلِمَ لذلك أن جميع هذه الكواكب لها بدورانها دورات تصير بها تارة شمالية وتارة جنوبية مع أن جملة السموات تدور في كل يوم دورة مشرقية أى تأخذ* من المشرق إلى المغرب ، وإنما يمكن ذلك بفلك (ب ٥٨ و) له هذه الحركة السريعة [و]^(٥) تكون الدائرة المتوسطة بين المنزلة الشمالية والجنوبية هى منطقته ، ويكون له إدارة جميع أفلاك الكواكب كلها بهذه الدورة ، وإنما يكون ذلك بأن تكون هذه الكواكب يثبت بطنًا^(٦) كل سافل منها بنقطتين من العالى أشياء قطبية فيلزم من دوران

(١) المعجم الوسيط : « تصفح الشيء » : نظر فيه ... و تصفح القوم نظر فيهم ليتعرف أمورهم .

(٢) فى الأصل : الحركة .

(٣) فى الأصل : الدائرة ، والأصوب هو ما اعتمدناه .

(٤) فى الأصل : بعدا واحدا .

(٥) و : إضافة ليستقيم النص .

(٦) فى (ج) : قطبا .

ذلك العالى^(١) دوران السافل ، فلذلك إذا دار الفلك العالى هذه الدورة السريعة دار ما يماسه من تحته ، ولذلك كل فلك يدور ما تحته حتى يدور الكل بهذه الدورة ، وهذا انما يمكن إذا كانت أقطاب الأفلاك مختلفة ، فإن قطبى العالى إذا حاذيا قطبى السافل لم يتحول السافل بحركة العالى .

ثم إن المسمى « بكامل » وجد مقدار بُعد الشمس فى الشمال والجنوب عن منطقة الفلك الأعلى يتناقص فعلم أنه لا بد وأن تبطل حتى يصير مدار الشمس فى منطقة الفلك العالى وإن كانت الشمس * فى غير (ب ٥٨ ظ) العقدتين ، ويلزم ذلك أمور :

المحدها : أن يصير بعد القمر عن الشمس أزيد مما هو الآن بكثير ، أعنى بعده منها شمالا وجنوبا ، وذلك لأن ميل القمر الذى هو غرضه لا يتغير ، فلذلك تكون الأهلة لا محالة أعظم كثيرا^(٢) مما هى الآن ، أعنى مما هى حين [كان]^(٣) ميل الشمس كثيرا ، ولذلك إذا نقص ميل^(٤) الشمس فلا بد وأن تعظم الأهلة بقدر دون ذلك .

وثانيها : أن الفلك الذى دون العالى تصير قطباه حيثئذ محاذية لقطبى العالى فيبطل لذلك استصحاب^(٥) العالى له فى الدورة اليومية ، فتبطل هذه الدورة عن الأفلاك السافلة كلها ، وتظهر حركتها من المغرب إلى المشرق ، وهى حركتها الخاصة التى بها يكون الميل المذكور ، فلذلك تطلع الشمس وسائر الكواكب من المغرب ، إلا أن غير الشمس والقمر

(١) فى الأصل : العالى .

(٢) فى الأصل : كثيرا .

(٣) إضافة ليستقيم المعنى .

(٤) فى الأصل : مثل .

(٥) فى الأصل : استصحاب .

لا يظهر ذلك فيها لجمهور الناس لأجل زيادة بطف^(١) حركتها فلذلك تطلع الشمس في يوم من * المغرب اللهم إلا أن يمنع من ذلك فلك^(٢) آخر . (ب ٥٩ ر)

وثالثها^(٣) : أن دوران الشمس يصير حينئذ دائما في خط الاستواء فلذلك يستوى النهار والليالي في جميع البلاد ، وإنما يحدث حينئذ طول في الليل في ليلة واحدة وهي الليلة التي يتبعها طلوع الشمس من المغرب .

ورابعها : أن الفصول حينئذ تبطل ، وتكون المواضع الزائدة البعد عن خط الاستواء شديدة البرد دائما ، وخط الاستواء وما يقرب منه شديد الحر دائما ، وفي ذلك الزمان وقبله بسنين يكون لا محالة طبيعة الهواء غير ملائمة لمزاج الإنسان ، فلذلك يكون الناس حينئذ خارجين عن الاعتدال جدا ، فلذلك تسوء أخلاقهم وتكثر الشرور والفتن ونحو ذلك .

(١) في الأصل : بطو . وهي ظاهرة خطية إملائية .

(٢) في الأصل : فلذلك .

(٣) في الأصل : ومثلها .

الفصل العاشر

في كيفية تعرف كامل لما يحدث في العالم السفلي
بعد وفاة خاتم النبيين صلوات الله عليه
وعليهم أجمعين

ثم إن المسمى* «بكامل» تفكر بعد ذلك في الحوادث التي تحدث في (ب ٥٩ ط)
ظاهر الأرض بعد وفاة خاتم النبيين صلوات الله عليه وعليهم أجمعين فقال :
وإذا ثبت أن ميل الشمس إلى الشمال والجنوب يتناقص دائما ،
فإذا بطل هذا الميل أو قرب من البطلان صارت الشمس دائمة المسامطة
لخط الاستواء وما يقرب منه جدا ، فلذلك يحدث في تلك البقعة حرارة
شديدة جدا ، ويحدث في تلك البقاع التي لها عرض يُعتدّ به برد مفرط
جدا ، ويلزم ذلك أن تكون أكثر المواضع خارجة جدا عن الاعتدال ،
فلذلك تكون أمزجة الناس في أكثر البلاد رديئة فاسدة ، فلذلك تضعف
قلوبهم ويكثر فيهم^(١) الموت الفجأة^(٢) ، وتكون أخلاقهم ومعاملتهم
[رديئة فاسدة^(٣)] فلذلك تكثر حينئذ الشرور والمخاصمات ، خاصة
وأمزجة الناس تكون حينئذ شديدة الاختلاف^(٤) ، وذلك لشدة
اختلاف^(٥) طبائع أهوية البلاد ، فلذلك يحدث بين الناس اختلاف^(٦)* (ب ٦٠ ط)

(١) في الأصل : منهم .

(٢) الموت الفجأة والفجأة : ما يأخذ الإنسان بغتة ، وهو موت السكنة . (المعجم الوسيط) .

(٣) إضافة من عندنا إذ الظاهر أنها سقطت من الناسخ وقد أضفنا التعبير الذي استعمله المؤلف سابقا .

(٤) في الأصل : الاختلاف .

(٥) في الأصل : اهلاف .

(٦) في الأصل اخلاف .

شديد جدا ، وتكثر الحروب والفتن وسفك الدماء ونحو ذلك ، ولذلك
يتقدم الأشرار ، ويتأخر أهل الخير .

ولأن سوء المزاج يلزمه فساد الذهن ، فلذلك تفسد أذهان الناس
حينئذ وتصير بحال رديئة وذلك ما ينافي^(١) قبولها للعلوم والحكمة ،
فلذلك ترتفع العلوم كلها وتقل جدا في الناس ، ثم إذا بطل ميل الشمس
ألبته اشتد الحر جدا في البقاع القريبة من خط الاستواء ، وكثرت النيران
واللهب خاصة في البلاد الغورية^(٢) والكبريتية^(٣) الأرض ، فلذلك يحدث
حينئذ نار بأرض اليمن ، وتمتد حتى تعم الأراضي التي عند خط الاستواء
وما يقرب منه ، وتكثر حينئذ الأدخنة ، ويتولد من ذلك رياح رديئة
وصواعق وبروق هائلة ، وتكثر العلامات الهائلة في الجو ، وذلك قبل
بطلان ميل الشمس وذلك إذا تناقص ميلها جدا .

ولأجل كثرة الأدخنة حينئذ يظلم الجو ويكدر ويلزم ما يرتفع * (ب ٦٠ ظ)
من الأجزاء الأرضية والمائية اللتين^(٣) في خط الاستواء وما يقرب منه ،
فلذلك يقل جرم الأرض هناك جدا ، فيصير ما تحت القطبين وما يقرب
من ذلك ثقيلًا جدا بالنسبة إلى وسط الأرض ، فلذلك لا بد وأن يسقط
كثير من ظاهر الأرض هناك ، ويلزم ذلك سقوط الجبال وانداكاكها ،
ويقل الماء جدا لأجل ميلانه إلى قرب خط الاستواء بسبب انخساف ذلك
الموضع ثم تبخره بقوة الحرارة التي تكون هناك ، فلذلك يجف كثير

(١) في الأصل : في . الغور . والاغوار : كل منخفض من الأرض . (المعجم الوسيط) .

(٢) في الأصل : الكبريتية .

(٣) هكذا في الأصل وهو صواب ، ولكن في (ج) اللتان .

من الأشجار وكذلك تقل الأرض جدا لكثرة ما يتصعد منها متدخنا ،
فلذلك تظهر الكنوز وما يكون في باطن الأرض .

وإذا دام فقدان ميل الشمس مدة أفرط^(١) الخروج عن الاعتدال ،
حتى أفسد الأمزجة الحيوانية والنباتية وكان من ذلك القيامة .

وقبل ذلك لابد وأن تكثر الزلازل والخسوف وذلك لأجل كثرة
ما يحدث حينئذ في باطن الأرض من الرياح والأدخنة ، وذلك أما في
المواضع الحارة جدا فلأجل شدة تحريك هذه * الحرارة للأجزاء الأرضية (١٠٠-٩٦)
إلى فوق ، وأما في المواضع الشديدة [البرد]^(٢) فلأجل تكاثف وجه
الأرض حينئذ بكثرة الجمد فلذلك تحتبس الرياح والأبخرة ونحوهما في
باطن الأرض ويلزم ذلك حدوث ما قلناه^(٣) .

ولأجل شدة اختلاف الأمزجة حينئذ تختلف صور الناس أيضا ،
ويسمج^(٤) خلقهم ، فلذلك ربما وجد إنسان يخاطب الناس ويكلمهم كما
في غيره من الناس ومع ذلك فإنه يكون في صورة مخالفة لصورة الإنسان
حتى يكون على صورة تشبه صور الدواب .

ولأجل كثرة الحروب حينئذ يكثر القتل ، وذلك إنما يكون في
الرجال ، فلذلك تكثر النساء جدا بالنسبة إلى من يبقى من الرجال ،

(١) في الأصل : إفراط .

(٢) إضافة حتى يستقيم المعنى .

(٣) يقصد حدوث القيامة .

(٤) المعجم الوسيط : سمج : قبح .

ويلزم ذلك كثرة شهوتهم وإفراط شبقهم إذ لا يجدن من يقوم بما يحتجن إليه من الرجال ، ويلزم ذلك كثرة المساحقة .

وتقل الثمار والزررع جدا ، وذلك أما في البقاع الشديدة الحرارة فلاجل نقصان المادة جدا* في باطن الأرض لأجل فقدان البرد الحابس لها (ب ٦١ ط) في الباطن لتنضج ، وأما في البقاع الشديدة البرد فلاجل فقدان الحرارة الجاذبة للمادة والمنضجة لها ، ويقل حينئذ ما يوجد من البقاع المعتدلة الهواء ، فلذلك يقل جدا تكون الثمار والزررع ، فلذلك تقل الأرزاق جدا وتغلو^(١) الأسعار ، ويلزم ذلك أن تكثر السرقة والنهب وقطع الطريق ونحو ذلك مما يحدث في أوقات القحط والجذب^(٢)

وإذ ميل الشمس إذا قل جدا أو بطل ، لزم ذلك شدة إفراط الحر في الإقليم^(٣) الأول وما يقرب منه ، وشدة إفراط البرد في الإقليم السابع وما يقرب منه ، وكلا هذين يمنع من الحياة والصحة ، فلذلك يضطر سكان هذين الاقليمين وما يقرب منهما إلى الانتقال [فيحتاج أهل الإقليم الأول وما يقرب منه وهم السودان]^(٤) إلى الانتقال إلى ما هو عندهم شمالي ، ويحتاج أهل الاقليم السابع وما يقرب منه وهم الترك والتتار والروس ، ويأجوج ومأجوج إلى الانتقال* إلى ما هو عندهم جنوبي ، (ب ٦٢ و) وذلك بأن ينتقل كل واحد من سكان هذين الاقليمين مع ملوكهم وعساكرهم ومواسيهم ونحو ذلك إلى البلاد التي بينهما ، وذلك مما يلزم

(١) في الأصل : تغلوا . وهي ظاهرة خطية عند الناسخ .

(٢) في الأصل : الجذب .

(٣) في الأصل : الأقاليم الأول .

(٤) إضافة ليستقيم المعنى ، وهي في (ج) .

منه وقوع المقاتلة والمدافعة من سكان تلك البلاد ، فلذلك لابد وأن يحدث لسكان الأقاليم القريبة من الاعتدال قبل القيامة قتال مع السودان وقتال مع الترك والتتار ويأجوج ومأجوج ، ولابد لسكان هذين الاقليمين من الاستيلاء على بعض هذه الاقاليم القريبة من الاعتدال ، فلا بد وأن يحدث فيها غلاء في سائر الأسعار ونقصان من الأموال ونحو ذلك مما يحدث عند ازدحام الناس وكثرتهم .

ثم بعد بطلان ميل الشمس لابد وأن يحدث لها ميل آخر ، وذلك لأجل استمرار حركة تلك الثوابت الحركة البطيئة جدا وهي التي من الشمال إلى الجنوب ، وإذا كثرت * الميل عادت الأرض إلى الأرض^(١) (ب ٦٢ ظ) الأول ، وصلح الهواء لأن يعيش فيه الحيوان ، فإذا حدثت في الشتاء أمطار كثيرة ، وامتلأت الأرض حتى امتزج التراب بالماء ، وحدثت له من حرارة الشمس العفونة ، صار ذلك صالحا [لأن يتكون منه^(٢)] بدن الإنسان وغيره من الحيوان ، فلذلك تتمكن حينئذ النفس الإنسانية من تغذية الجسم^(٣) الصغير جدا وهو المسمى بعجب الذنب الذي ذكرناه أولا وبيننا أن النفس الإنسانية تكون متعلقة به ، فلذلك يحدث من

(١) هكذا في الأصل ويقترح في (ج) استبدالها فتصبح عادت الأرض إلى العرض ، وهنا لا يؤدي إلى معنى وواضح أن المقصود هو أن الأرض عادت إلى حالها الأول الذي كانت عليه قبل القيامة ، فأبنت وأصبحت صالحة للحياة الانسانية .

(٢) إضافة يقتضيه السياق .

(٣) في الأصل : الاسم .

ذلك الطين ما يغذى به مدة لطيفة ، غذاء كثيرا جدا ، وحيث تكمل من ذلك أبدان الناس ، ويعثون كما كانوا أولا ، وذلك هو البعث ، سبحانه الله القدير الغليم .

ومن هاهنا فلنختم الكتاب مستعينين بالله
وحده ومصلين على خير أنبيائه محمد وآله
وصحبه وأصفيائه

تمت الرسالة الكاملة في السيرة النبوية
وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم

الفهرس

الموضوع	الصفحة
تقديم لجنة احياء التراث	٥
مقدمة الطبعة الثانية	٧
مقدمة الطبعة الأولى	٩
المدخل	١٣

المبحث الأول

ابن النفيس وعصره الذى عاش فيه وإنتاجه الفكرى

حياة ابن النفيس	٢٣
الحياة السياسية والاجتماعية زمن ابن النفيس	٢٩
الحياة العلمية والثقافية أيام ابن النفيس	٣٥
مؤلفات ابن النفيس فى العلوم والفنون ماعدا الطب	٤٧
الطب فى عصر ابن النفيس	٤٩
فضل العلاء بن النفيس فى تطوير الطب وطرق العلاج	٥٣
مؤلفات ابن النفيس فى الطب	٥٩
ابن النفيس واكتشافه للدورة الدموية الرئوية	٦٣

المبحث الثانى

التعليق على « الرسالة الكاملة فى السيرة النبوية » لابن النفيس	٧٣
معارضة ابن النفيس لقصة حى بن يقظان للشيخ الرئيس على بن سينا	٧٩
بحث مقارنة بين حى بن يقظان لابن طفيل والرسالة الكاملة فى السيرة لابن النفيس	٨٧
سيرة خاتم الأنبياء عند ابن النفيس (عرض وتعليق)	١٠٣

التحقيق

١٣٧ مقدمة التحقيق

١٤٠ نص الرسالة الكاملة في السيرة النبوية

الفن الأول

١٥٠ في بيان كيفية تكون هذا الإنسان المسمى بكامل

الفصل الأول :

١٥١ في بيان كيفية تكون الرجل المسمى بكامل

الفصل الثاني :

١٥٤ في بيان كيفية تعرف المسمى بكامل العلوم والحكمة

الفصل الثالث :

١٦٠ في بيان كيفية وصول المسمى بكامل الى تعرف أمر النبوات

الفن الثاني

في كيفية توصل كامل الى معرفة السيرة النبوية ويشتمل

١٦٧ على عشرة فصول

الفصل الأول :

١٦٩ في نسب هذا النبي الذي هو خاتم النبيين ﷺ

الفصل الثاني :

١٧٢ في موطن هذا النبي الذي هو خاتم النبيين ﷺ

الفصل الثالث :

في أنه كيف ينبغي أن تكون تربية هذا النبي الذي هو خاتم النبيين

١٧٧ صلوات الله عليه وعليهم أجمعين

الفصل الرابع :

١٨٠ في حال هذا النبي ﷺ في شهوراته

الفصل الخامس :

١٨٢ في هيئة هذا النبي ﷺ

الفصل السادس :

١٨٣ في حال هذا النبي ﷺ في الأمراض ومقدار العمر

الفصل السابع :

١٨٥ في أولاد هذا النبي ﷺ

الفصل الثامن :

١٨٧ في كيفية دعوة هذا النبي ﷺ للناس الى اتباعه

الفصل التاسع :

١٨٩ في اسم هذا النبي ﷺ

الفصل العاشر :

١٩٠ في كتاب هذا النبي ﷺ

الفن الثالث

١٩١ في بيان كيفية تعرف كامل لسنة النبي ﷺ ويشتمل على باين

الباب الأول :

١٩١ فيما يأتي به هذا النبي ﷺ من التكليف العلمية

الفصل الأول :

١٩٣ فيما يأتي به هذا النبي ﷺ من صفات الله تعالى

الفصل الثاني :

١٩٥ فيما يأتي به خاتم النبيين من أمر المعاد

الباب الثاني :

٢٠١ فيما يأتي به هذا النبي ﷺ من التكليف العملية

الفصل الأول :

٢٠٣ في العبارات التي يأتي بشرعها هذا النبي ﷺ

الفصل الثاني :

٢٠٦ في المعاملات التي يأتي بشرعها النبي ﷺ

الفصل الثالث :

في الأشياء التي ينبغي أن يسنها النبي ﷺ في تدبير المنزل ونفقة
الزوجات والعبيد والأقارب ٢٠٨

الفصل الرابع :

فيما يسنه النبي ﷺ من العقوبات ٢١٠

الفن الرابع

في كيفية وصول كامل الحى الى معرفة الحوادث التي تكون بعد وفاة
خاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ٢١٣

الفصل الأول :

في كيفية تعرف كامل لما يقع بين أصحاب هذا النبي ﷺ من المنازعة
على الخلافة بعد وفاته ٢١٥

الفصل الثاني :

في تعرف كامل لما يقع بعد موت هذا النبي ﷺ من تنازع ومقاتله ٢١٨

الفصل الثالث :

في كيفية تعرف كامل المعاصي التي لا بد وأن تقع لملة هذا النبي عليه السلام .. ٢٢٠

الفصل الرابع :

في كيفية تعرف كامل لما يحدث لملة هذا النبي لأجل عصيانهم من العقوبة ٢٢٢

الفصل الخامس :

في كيفية تعرف كامل بحال الكفار الذين يكون لهم عقوبة هذه الملة ٢٢٤

الفصل السادس :

كيفية تعرف كامل بحال البلاد التي لا يتمكن هؤلاء الكفار من الاستيلاء
عليها ٢٢٧

الفصل السابع :

في كيفية تعرف كامل بحال سلطان البلاد التي تبقى لهذه الملة مجاورة لما ينتهي
إليها ملك أولئك الكفار ٢٢٩

الفصل الثامن :

في كيفية تعرف كامل بأحوال حفدة الملك المتأخم للكفار وهو الذى تقدم ذكره وأحوال أعوانه وجيرانه من ملوك ملة النبى ﷺ ٢٣٣

الفصل التاسع :

في كيفية تعرف كامل لما يحدث في العالم العلوى بعد وفاة خاتم النبيين ﷺ وعليهم أجمعين ٢٣٦

الفصل العاشر :

في كيفية تعرف كامل لما يحدث في العالم السفلى بعد وفاة خاتم النبيين صلوات الله عليه وسلم أجمعين ٢٣٩

الفهرس ٢٤٥

رقم الإيداع ١٩٨٧/٣٤٥٨

مطابع الأوقست

بشركة الإعلانات الشرقية

مطابع الأوقست
بشركة الاعلانات الشرقية